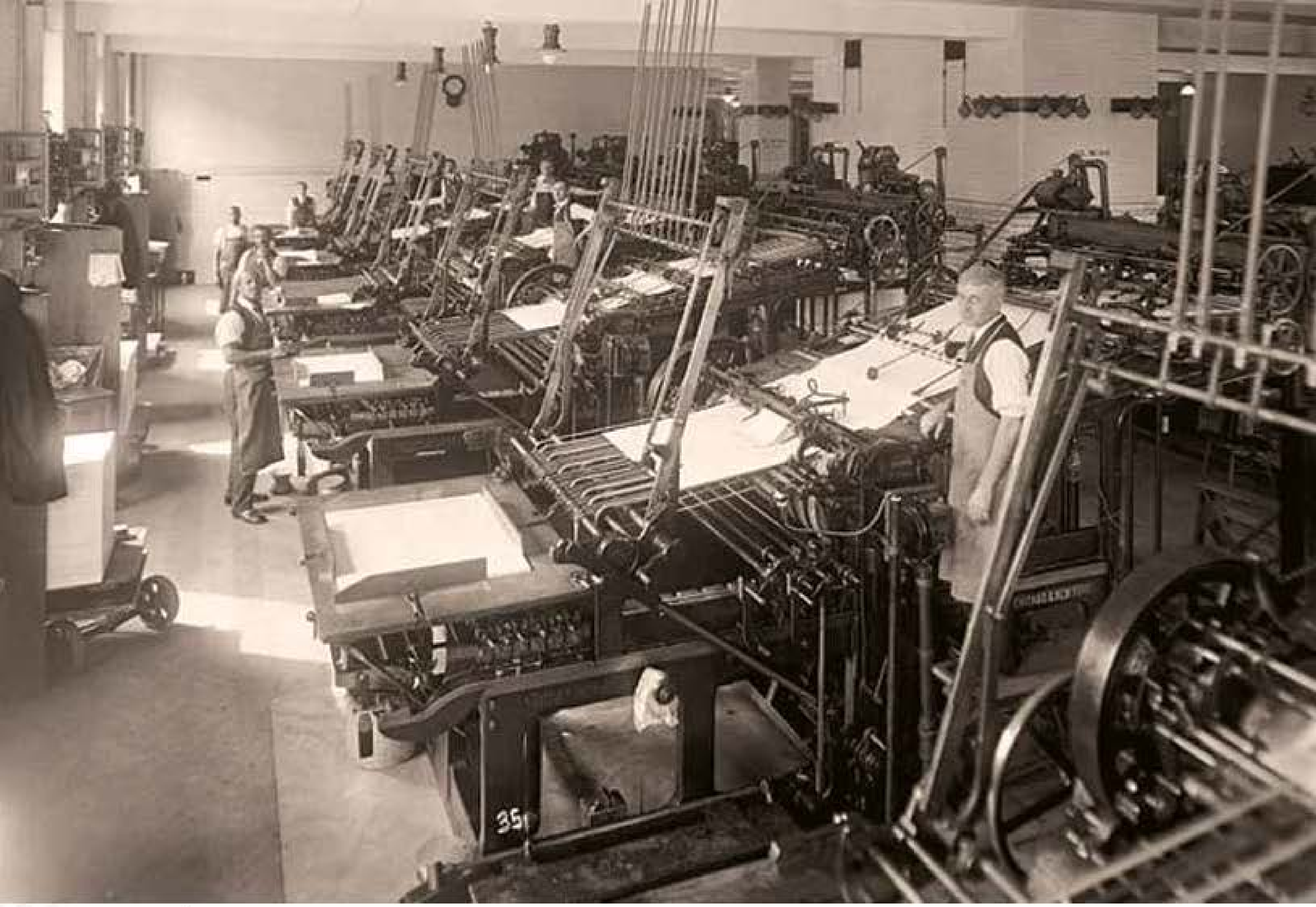


قصة الطباعة ونشر المعرفة

تعد الطباعة وسيلة لاستيعاب الإنتاج المعرفي للإنسان وحفظه، واكتشاف الإنسان لها كان يمثل رحلة توثيق وتخزين المعارف والفنون.

إن ظهور الطباعة وحلولها بالتدريج محل عملية النسخ اليدوي، انتقل بالكتابة إلى مرحلة متقدمة، جعلتها تتحرك بسرعة كبيرة لتصل إلى كل مكان، حتى أضحى الكتاب أحد أكثر السلع تداولا بين الناس، وباتت المعرفة أمرا مشاعا، يستطيع أن يتلقاها أي فرد مباشرة من الكتاب، بعد أن كانت مقتصرة على طائفة خاصة.

لقد شكل اختراع الطباعة أساسا متينا للثورة المعرفية، وتطور حركة البحث العلمي، وتجسير عملية الاتصال والتواصل الحضاري والمثاقفة بين المجتمعات، وبسبب شيوع الطباعة تداعت تلك الأسوار العتيدة التي كانت تحيط بها المجتمعات سابقا عقائدها، وتقاليدها، وتراثها، حيث تسلل الكتاب هذه الأسوار، وعبر كل الحواجز، فاخترقت المجتمعات من خلال الكتب بسهولة، حتى انتهى العالم أخيرا إلى منطقة واحدة، لما يسرته الطباعة من الاتصال، وكذلك وسائل الاتصال الأخرى.



لقد شكل اختراع الطباعة أساسًا متينًا للثورة المعرفية، وتطور حركة البحث العلمي، وتحسير عملية الاتصال والتواصل الحضاري والمثاقفة بين المجتمعات، وبسبب شيوع الطباعة تداعت تلك الأسوار العتيدة التي كانت تحيط بها المجتمعات سابقًا عقائدها، وتقاليدها، وتراثها، حيث تسلل الكتاب هذه الأسوار، وعبر كل الحواجز، فاخترقت المجتمعات من خلال الكتب بسهولة، حتى انتهى العالم أخيرًا إلى منطقة واحدة، لما يسرته الطباعة من الاتصال، وكذلك وسائل الاتصال الأخرى.

وتعد الطباعة وسيلة مرنة ومتطورة لاستيعاب الإنتاج المعرفي للإنسان وحفظه.

بداية الطباعة:

يسود الكتب والبحوث المصنفة حول تأريخ الكتاب جدل ساخن حول تحديد أول من اكتشف الطباعة، فبينما تؤكد الكثير من المراجع على أن الطباعة فن حديث اكتشف في القرن الخامس عشر الميلادي، تذهب مراجع أخرى إلى أبعد من ذلك لتؤكد أن تأريخ اكتشاف الطباعة يعود إلى عدة قرون تسبق هذا التأريخ، وربما أنهاها بعض الباحثين إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد. ولعل الأهمية المتميزة لدور الطباعة، في تأريخ تطور الفكر وتقدم المعارف البشرية، هي التي جعلت بعض الباحثين يسعى جاهدًا لنسبة اكتشافها إلى البلد الذي ينتمي له، وإناطة هذا الإبداع به.

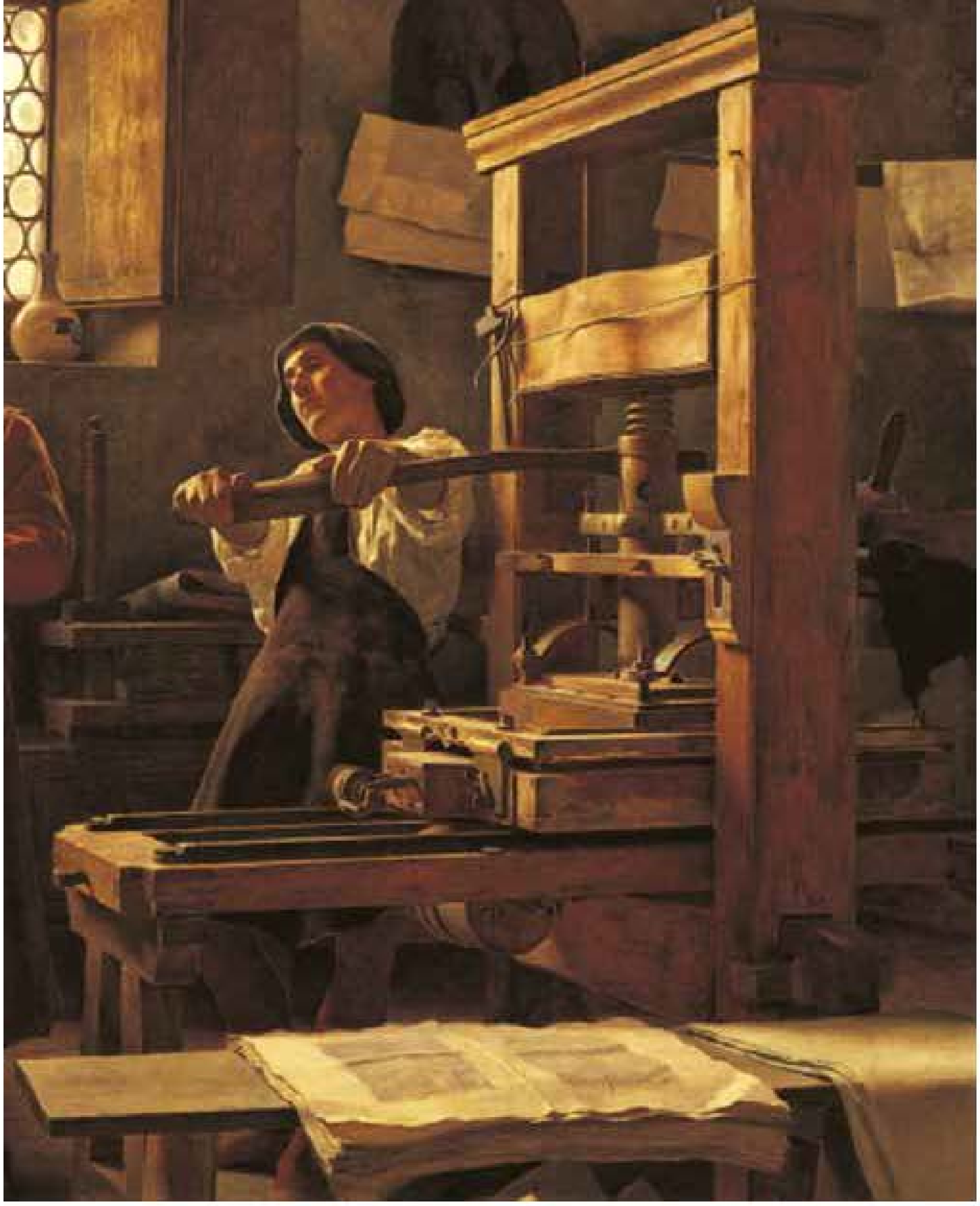
بيد أن الصحيح هو أن الطباعة نتاج حضاري بشري، أسهمت البشرية شرقًا وغربًا في تطويره واكتشاف بعض جوانبه حتى انتهى إلى صورته الحاضرة، وليس صحيحًا ما ذهب إليه بعض الباحثين من نسبة هذا الاكتشاف إلى أمة معينة، وتجاهل اللبنات الأساسية التي أشادتها أمم أخرى على طريق هذا الاكتشاف.

فمثلاً نلاحظ البدايات الأولى لهذا الفن ظهرت في الصين القديمة، فقد استطاع الحكام الصينيون في ذلك الوقت تأمين نقش النصوص الدينية المقدسة على قوالب خشبية، ثم كانت تترك هذه في أماكن عامة حتى يمكن أخذ نسخ منها على الورق، وهكذا كان بإمكان كل من يريد أن يأخذ نسخة طبق الأصل عن النصوص المقدسة أن يفعل ذلك. وفي حوليات أسرة هان (من 202 قبل الميلاد إلى 220 بعد الميلاد) توصف هذه الطريقة بشكل حي، كما يتم الحديث عن السبب الذي دفع الحكام الصينيين إلى نقش النصوص الدينية على قوالب خشبية، فهذه الحوليات تؤكد أولاً الرأي القائل بأن أعمال الحكماء قد تعرضت إلى تغييرات وتشوهات، ولذلك كان من الضروري أن تنقش تلك الأعمال بصورتها الأصلية على الحجر، لكي يتم تفادي أخطاء النساخ.

قصة ظهور الطباعة في أوروبا

ترتبط قصة اختراع الطباعة في أوروبا بالألماني جوهان غوتنبرغ (ولد نحو 1400م، وتوفي نحو 1468م) كما هو مشهور، إذ يقال: إنه هو الذي اخترع الأحرف المتنقلة في أوروبا، وأدخل عليها تحسينات في مدينة ستراسبورج، ولكنه نقل مطبعته إلى مسقط رأسه في مدينة ماينز نحو عام 1440م، أو على رواية أخرى بعد ذلك بقليل في عام 1448م، حيث طبع الكتب بها، ويقال: إن كتبه الأولى ظهرت في السوق نحو عام 1445م والسنوات التالية، ومنها كتاب Sibylle (أي الكاهنات العرافات)، وكتاب Donat (أي النحو اللاتيني) في ثلاث طبعات، وتقوم عام 1448م، كذلك خرج من مطابعه خطاب غفران للبابا نقولا الخامس عام 1451م، أو عام 1454م.

كما طبع غوتنبرغ التوراة عام 1455م، في مجلدين من حجم النصف، وقد عرفت هذه التوراة فيما بعد



باسم 'التوراة المازاريني' لأن أول نسخة لفتت أنظار خبراء الكتب، كانت النسخة التي احتفظ بها الكاردنال مازاران في مكتبته الخاصة.

وقد اقترن اسم غوتنبرغ باسم جان فوست، وهو الممول الذي أقرضه 800 فلورين بفائدة عام 1450م، لكي يستطيع صناعة بعض الأدوات، ولكن في عام 1455م، اتهم فوست غوتنبرغ بعدم الالتزام والوفاء بتعهداته، ثم قاضاه في المحكمة، وحكم عليه بدفع الفوائد المترتبة عليه، وإعادة رأس المال. كما اقترن اسم غوتنبرغ بشخص آخر هو بيترشوفر (مهرفوست)، الذي اشترك مع فوست، فطبعًا عام 1457م أول كتاب مؤرخ وهو 'زبور ماينانس'، ثم ما لبث شوفر هذا أن طور أعماله ووسعها، حتى ظل مشغله من أكثر المشاغل أهمية في أوروبا كلها إلى مطلع القرن السادس عشر.

وذهب آخرون إلى أن المخترع الأول للطباعة في أوروبا قبل غوتنبرغ، هو الهولندي لورنز جانزون كوستر، من مدينة هارلم الهولندية، أما الألماني غوتنبرغ فقد اقتصر جهده على التطور بها نحو الكمال، وقد أقام الهولنديون تمثالًا لكوستر في عام 1635م تكريمًا له.

إن من يؤرخ لمسألة اختراع الطباعة من الغربيين، قد لا يفلت من التحيز، ولذلك أثير حول هذه المسألة سجال واسع، فتارة تنسب إلى شوفر، أو إلى فوست، وأخرى إلى كوستر. ويقال: إن أول من ادعى بأن كوستر هو مكتشف الطباعة هو طبيب هولندي من هارلم يدعى أوريان دي جونغ، حيث ظهرت مقالة موقعة باسمه بعد وفاته في إحدى الصحف الهولندية، يدعي فيها أن أحد سكان هذه المدينة ويدعى (لوران جانزون) الملقب بكوستر، كان قد اخترع قبل عام 1441م فن جمع الحروف المتحركة من المعدن المصبوب من أجل النسخ الآلي للنصوص، كما طبع عدة كتب، وذاع سره عام 1442م في أمستردام، ثم كولونيا وماينانس، من قبل أحد عماله الذين تركوا العمل عنده.

وبغض النظر عن مدى صحة هذه القصة التي أثار حولها الكثير من الباحثين الشكوك، كما دحضها آخرون، مثل فان درلند الذي أوضح أن كوستر كان صاحب فندق يصنع الشمع من الشحم.

فإن ظهور الطباعة الحديثة في أوروبا تأخر حتى أواسط القرن الخامس عشر، أي بعد ولادتها في الصين بنحو سبعة قرون، وإن كانت الطباعة آنذاك في تجاربها الأولى، وفيما بعد استطاع الأوروبيون اكتشاف الأسلوب المتطور لها.

ولكن تبقى مسألة ينبغي أن لا تغيب عن الباحث، وهي أن اكتشاف الكتابة، ثم الورق، وأخيرًا الطباعة - بشكلها الأول - كلها من معطيات الإنسان الشرقي الحضارية، بيد أن المجتمعات الأخرى اقتبست هذه الفنون فأعادت إنتاجها، وطورتها، وعملت على تحديثها، وتكييفها مع البيئات المدنية المتنوعة، لتيسير الاستفادة منها.

انتشار الطباعة

لقد انتشرت الطباعة بسرعة فائقة في أوروبا حيث باشر الإيطاليون باستخدام الطباعة عام 1464م، أو 1465م، بعد أن أقام اثنان من تلامذة شوفر هما كونراد رفاينهايم، وأرنولد بانارتز مطبعة بأحد أديرة مدينة سوبياكو Subiaco بالقرب من روما.

وبعد ذلك بسنتين تلقيا دعوة للتوجه إلى روما، حيث عكفا على نشر سلسلة طويلة من الكتب، خلال السبع سنوات التالية ضمت بحسب روايتهم الشخصية ستة وثلاثين كتابًا مكونة من 12475 مجلدًا، وكانت تلك المجاميع تحوي في أساسها نصوصًا لاتينية قديمة.

ثم دخلت الطباعة سويسرا في عام 1468م، وفرنسا في عام 1470م، وهولندا في عام 1473م (فيما عدا ما يسمى بمطبوعات كوستريانا التي نفذت قبل ذلك الوقت)، وبلجيكا والنمسا والمجر في عام 1477م، والدانمارك في عام 1482م، والسويد في عام 1483م والبرتغال في عام 1487 م.

أما في خارج أوروبا فقد أنشئت أول مطبعة في المكسيك عام 1536م، كما ظهرت طبعة التوراة العربية بترجمة سعيد الفيومي بالأحرف العبرانية في الأستانة 1551م، ولم يظهر لتلك المطبعة من أثر غير تلك التوراة.

وبذلك تعد الأستانة أول مدن الشرق التي وصلتها الطباعة بعد المدن الأوروبية، وإن كنا لا نجد أثرًا لمطبوعات أخرى فيها حتى عام 1729م، أو 1730م حيث طبعت فيها ترجمة صحاح الجوهري إلى التركية. وربما كانت بلاد الشام هي المحطة الثانية للطباعة الوافدة من أوروبا، فقد طبع كتاب مزامير داود بالعربية بالحروف السريانية مع ترجمته إلى السريانية سنة 1585م، في مطبعة أنشأها رهبان مارقزحيا في ديرهم لبنان، وهي أقدم مطابع سوريا.

ظهور الطباعة العربية في أوروبا

أكد بعض الباحثين على أن أول مطبعة عربية وأحرفها عربية، ظهرت في فانو بإيطاليا بأمر البابا يوليوس الثاني، ودشنها البابا ليون العاشر سنة 1514م، وأول كتاب عربي طبع فيها في تلك السنة كتاب ديني، ثم سفر الزبور سنة 1516م، وبعد قليل طبع القرآن الكريم في البندقية، ولكن لم تصلنا منه نسخة ما، لأن جميع



النسخ أحرفت ، وقد طبع في مطبعة باغانيني المشهورة في البندقية.

كما طبع في جنوى سنة 1516م، بتكليف من الأب جوستنياني سفر المزامير ، وقام بطبعه باولو بورو ، وقد طبعه بأربع لغات هي العربية والعبرية واليونانية والكلدانية ، ومع كل لغة من هذه اللغات ترجمة لاتينية مطابقة لها ، مع ملاحظات وشروح ، وكان كتابًا كبير الحجم، وقد نشر المستشرق غويوم بوستيل الأستاذ في كلية فرنسا ، مبادئ اثنتي عشرة لغة شرقية بحروفها الأصلية ، وقد استعمل المستشرق المذكور في طباعة القواعد العربية التي صدرت مع باقي المجموعة في باريس سنة 538م حروفًا عربية ، وكان هذا الكتاب أول سجل مطبوع للغة العربية في باريس. وفي عام 1585 م قام الطباع البندقي بازا ، بعد أن انتقل إلى روما بطبع مؤلف جغرافي عربي ، هو الأول من نوعه باللغة العربية خلو من الدعاية الدينية ، هو كتاب البستان في عجائب الأرض والبلدان ، ومؤلف الكتاب سلاميش بن كندغدي الصالحي ، ولا يعرف عنه شيء البتة.

وفي المدة نفسها طبعت بعض الكتب العربية في المدن الألمانية ، فقد ألف يعقوب كريستمان وهو أول أستاذ للغة العربية في جامعة هايدلبرغ ، كتابًا عنوانه: في الألفباء العربية ، وطبع الكتاب أول ما طبع في نيوشتاد من ألمانيا ، وذلك عام 1582م.

كما جرى طبع كتاب عربي آخر في هايدلبرغ عام 1583م ، على الحروف نفسها التي طبع عليها الكتاب الأول ، وهذا الكتاب هو الترجمة العربية لرسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية بعنوان: إلى غلاطية ، وقد قام بنقلها إلى العربية روتجر سباي ، كذلك ألف بارتولو ماوس رادتمان كتابًا بعنوان: المقدمة في اللغة العربية ، وقد تم طبعه في فرانكفورت سنة 1592م.

أما بالنسبة لأول مطبعة عربية ظهرت في أوروبا ، فهي تلك المطبعة التي أمر بإنشائها الكاردينال فرنتدوي متشي في روما عام 1584م ، وهي "المطبعة الشرقية المديتشية" التي تولى إدارتها جيوفني؟ بتستار ايموندي ، وقد نشرت هذه المطبعة الكثير من الكتب العربية ، وقد باشرت عملها في عام 1586م ، واستمرت تستعمل في طبع الكتب العربية حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ولكنها توقفت حوالي خمسة عشر عامًا في بداية القرن السابع عشر ، كما أنها نقلت إلى المكتبة المديتشية - اللورانزية في فلورانسا اعتبارًا من سنة 1818م.

وكان أول إنتاج لها هو كتاب "القانون" لابن سينا ، ومعه كتاب "النجاة" له أيضًا ، وقد تم إنجاز طبعهما عام 1593م ، لكن خلال هذه الحقبة التي استمرت سبعة أعوام - من سنة 1586م إلى 1593م - طبعت هذه المطبعة كتبًا صغيرة أخرى باللغة العربية منها: "الأناجيل الأربعة" ، في ترجمة عربية ، عام 1590م ، وتلتها طبعة أخرى لنفس للترجمة العربية نفسها وفي مقابلها الترجمة اللاتينية عام 1591م ، ثم تلا ذلك طبع كتاب "الكافية" لابن الحاجب ، وكتاب "الأجرومية" لابن آجروم ، وفي السنة نفسها ، سنة 1592م طبع كتاب "نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق" للشريف الإدريسي ، ثم طبعت سنة 1594م كتاب "تحرير أصول أوقليدس" ، وبعدها توقفت حتى عام 1610م ، حيث طبعت كتاب "التصريف" للعزي في ذلك العالم.

ومن المطابع العربية الأخرى التي أقيمت في أوروبا ، هي المطبعة التي أنشأها استفانوس باولينوس تلميذ رايموندي مدير المطبعة السابقة الذي توفي عام 1614م ، فطلب السفير الفرنسي لدى الفاتيكان (من 1608 إلى 1614 م) فرانسو سافار؟ دي برف من باولينوس هذا ، إنشاء مطبعة جديدة في روما ، صممت لها حروف عربية جديدة جميلة الشكل، وحين عاد سافار؟ من روما إلى باريس عام 1615م ، أخذ معه مطبعته العربية ، ومديرها استفانوس باولس ، كذلك أنشأ في باريس مطبعة أخرى ، سميت "مطبعة اللغات الشرقية".

وكان فرانسسكوس رافلنجيوس (1539 - 1597) ، قد أنشأ مطبعة عربية في هولندا ، كانت حروفها أقل في مستوى جمالها من مطبعة مدتشي ، ولم يطبع فيها سوى "الأبجدية العربية" وخمسين مزمورًا، كذلك أسس بطرس كرستن (1575 - 1640م) ، أول مطبعة عربية في ألمانيا ، حيث تولت في الأعوام 1608 - 1611 م طباعة مجموعة من الكتب العربية ، منها: نحو عربي في ثلاثة أجزاء ، الجزء الثالث منها هو النص العربي لكتاب "الأجرومية" بحسب طبعة روما المذكورة آنفًا ، مع ترجمة لاتينية وتعليقات . . . وغيرها.

وفي مدينة ليدن في هولندا ، أنشأ توماس أربينيوس مطبعة عام 1595م ، ظهر أول كتاب من طباعتها بعنوان "قواعد اللغة العربية" لأربينيوس نفسه ، عام 1613م ، وفي عام 1615م صدر كتاب "أمثال لقمان" عنها ، وقد نالت ليدن شهرة واسعة بسبب كثرة ما طبع فيها من كتب عربية ، ولم تزل مطبعة بريل فيها تعنى بنشر الكتاب العربي حتى اليوم، أما في لندن فقد تأسست فيها مطبعة عربية منذ منتصف القرن السابع عشر ، ويعد كتاب "تاريخ الدولة الخوارزمية" المستل من كتاب أبي الفداء الشهير "المختصر في أخبار البشر" ، من أهم ما طبع فيها وقت إنشائها ، حيث صدر عم 1650م، وهكذا أسست جامعة أكسفورد مطبعة عربية في تلك الحقبة طبع الكثير من الكتب العربية ، مثل: كتاب "تأريخ مختصر الدول" لابن العبري مع ترجمة لاتينية ، وكتاب "نظم الجوهر" لابن البطريق . . . وغيرها.

وفي القرن الثامن عشر انتشرت الطباعة العربية في الكثير من البلدان الأوروبية ، وتزايد دور هذه المطابع في إصدار الكتب العربية ، بعد التوسع الكبير في حركة الاستشراق ، وتغلغلها في مختلف البلاد العربية ، وكثرة مراكزها في الجامعات الغربية.



تاريخ الطباعة في الدول العربية

شهدت طباعة الكتب عبر التاريخ مراحل عدّة وصولًا إلى تكنولوجيا الطباعة الحديثة؛ بدايةً من الألواح الخشبية والصلصالية والرق، وصولًا إلى الورق ثمّ الطباعة ثلاثية الأبعاد. يعود الفضل لمخترع الآلة الطابعة "يوحنا غوتنبرغ" التي صنعت في ذلك الحين من النّحاس والتي غيرت شكل الحياة على كوكب الأرض لدرجة كبيرة.



شهدت طباعة الكتب عبر التاريخ مراحل عدّة وصولًا إلى تكنولوجيا الطباعة الحديثة؛ بدايةً من الألواح الخشبية والصلصالية والرق، وصولًا إلى الورق ثمّ الطباعة ثلاثية الأبعاد. يعود الفضل لمخترع الآلة الطابعة "يوحنا غوتنبرغ" التي صنعت في ذلك الحين من النّحاس والتي غيرت شكل الحياة على كوكب الأرض لدرجة كبيرة.

في أوروبا:

يوحنا غوتنبرج (1397-1468م) اسم لمع في مدينة (ماينز) بألمانيا، وارتبط باختراع فن المطابع، وذلك عام 840 هـ/1436م، وكان هذا الاكتشاف إيذانًا بعصر جديد في انتشار العلم والتقاء الحضارات، وتبادل الثقافات.

وظهر أول كتاب مطبوع في أوروبا -على الأرجح- ما بين (844-854هـ / 1440-1450م) وذلك بالحروف اللاتينية المتحركة.

وبرغم السرية التي أحاط بها غوتنبرج اختراعه إلا أن الطباعة انتشرت انتشارًا سريعًا في البلاد الأوروبية الأخرى؛ حيث ظهرت الطباعة في روما سنة 870هـ/1465م، وفي البندقية سنة 874هـ/1469م، وفي باريس سنة 875هـ/1470م، وفي برشلونة سنة 876هـ/1471م، وفي إنجلترا سنة 879هـ/1474م.

وفي عام 1486م عُرفت الطباعة بالحروف العربية، وطبع في عام 1505م في مدينة غرناطة كتابان بالعربية هما: وسائل تعلم قراءة اللغة العربية ومعرفتها، ومعجم عربي بحروف قشتالية، بتوجيه من الملك فردينان وزوجته إيزابيلا.

في تركيا:

تاريخ دخول المطابع الحديثة إلى تركيا مضطرب، لم تتفق المصادر على تحديد بدايته؛ حيث ورد أن بداية معرفة الأتراك للمطابع الحديثة كان مع دخول المهاجرين اليهود إلى الأراضي العثمانية، عندما حملوا معهم مطبعة تطبع الكتب بعدة لغات هي: العبرية، واليونانية، واللاتينية، والإسبانية، فطُبعت التوراة مع تفسيرها في عام 1494م، وطبع كتابٌ في قواعد اللغة العبرية عام 1495م، وطبعت كتب أخرى بعدة لغات في عهد السلطان بايزيد الثاني (886-918هـ /1481-1512م) بلغت تسعة عشر كتابًا.

ويؤكد بعضُ الباحثين أن الآستانة عاصمة الأتراك العثمانيين هي أول بلد شرقي يعرف المطابع الحديثة، ويرجع ذلك إلى عام 1551م، في عهد السلطان سليمان الأول القانوني (926-974هـ/ 1520-1566م)، وكانت ترجمة التوراة إلى اللغة العربية، والتي قام بها سعيد الفيومي هي أول كتاب يطبع في تركيا في ذلك العام، وقد طبعت بحروف عربية.

ويذكر موريس ميخائيل أن أول مطبعة تطبع بحروف عربية في اسطنبول هي التي أسسها إبراهيم الهنغاري عام 1727م (1139هـ)، وسمح له بطباعة الكتب عدا القرآن الكريم، ويبدو أن أول كتاب يظهر في هذه المطبعة هو كتاب (قاموس وان لي) في مجلدين، بين عامي 1729-1730م، وهو ترجمة تركية لقاموس (الصحاح) للجوهري، ويقترب معه إلى حد كبير الدكتور سهيل صابان في تحديد تاريخ أول مطبعة بالحروف العربية تظهر في تركيا لصاحبيها سعيد حلبي، وإبراهيم متفرقة، وذلك عام 1139هـ (1726م).

وفي رأي آخر أن كتب الحكمة والتاريخ والطب والفلك طبعت مع بداية عام 1716م، عندما صدرت فتوى من شيخ الإسلام عبدالله أفندي بجواز طبعها.

في بلاد الشام:

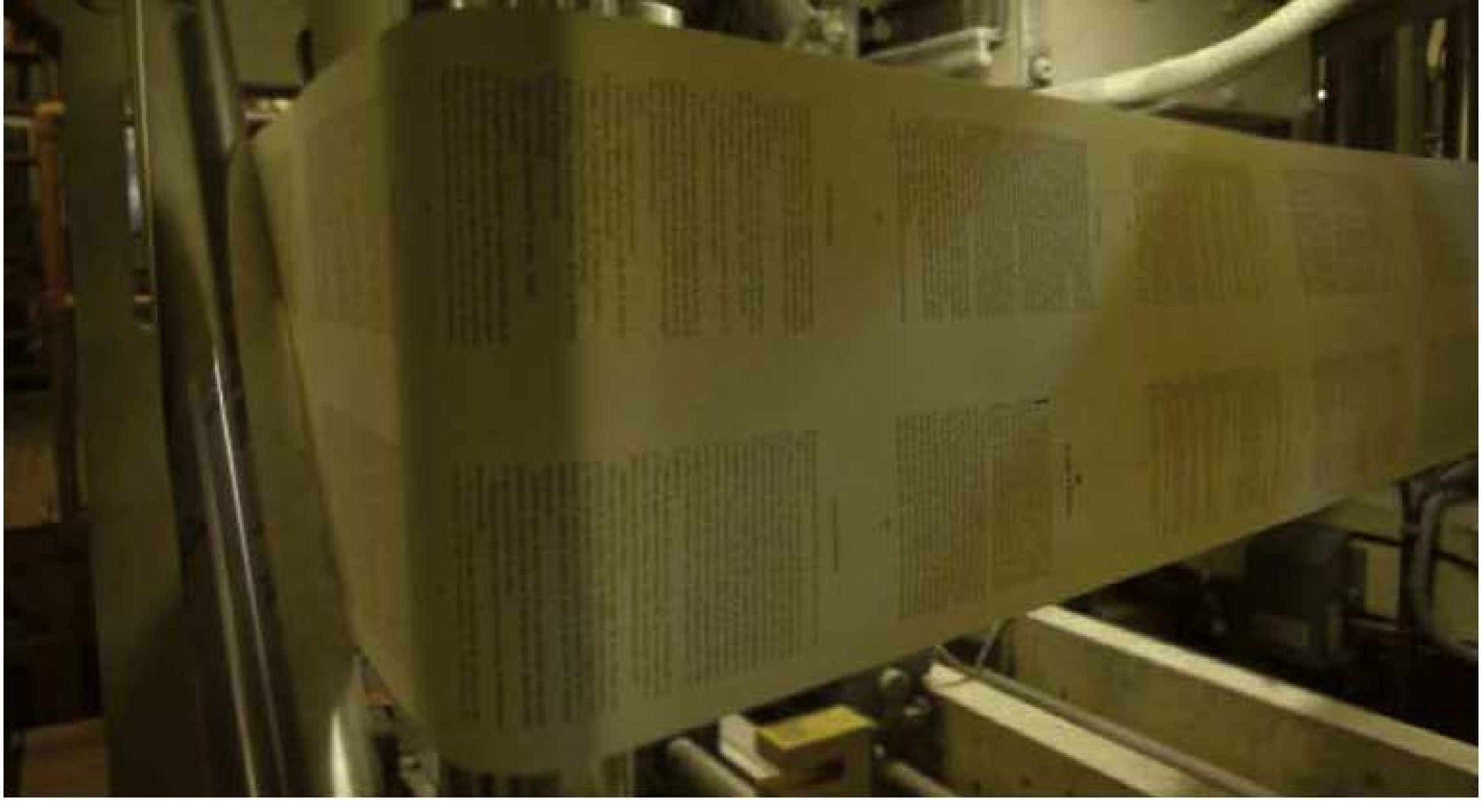
عرف لبنان الطباعة في وقت مبكر، وهذا يعود إلى سنة 1610م (1018هـ)، عندما أنشئت المطبعة المارونية على يد رهبان دير قزحيا (قزوحية)، وكان أول كتاب يطبع فيها هو كتاب (سفر المزامير) الذي طبع بعمودين، أحدهما بالسريانية، والآخر بالعربية، إلا أن هذه المطبعة واجهت صعوبات لم تمكنها من الاستمرار في عملها.

ثم ظهرت مطبعة دير ماريوحنا الصايغ عام 1734م، أنشأها عبدالله بن زخريا (الزاخر) المتوفى عام 1748م، وكان أول كتاب يطبع فيها (ميزان الزمان).

وفي عام 1753م ظهرت في بيروت مطبعة القديس جاورجيوس، وفي عام 1834م نقلت المطبعة الأمريكية للمبعوثين الأمريكان - التي أنشئت في مالطا عام 1822م- إلى بيروت، وطبعت فيها كتب كثيرة في الأدب والتاريخ.

وتعد المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين التي ظهرت عام 1854م أول مطبعة تخرج عن الصبغة المسيحية، وتقوم بنشر العديد من كتب اللغة والأدب، وفي عام 1867م أنشأ بطرس البستاني مطبعة المعارف.

أما سوريا، فهي أيضًا من أوائل البلاد العربية معرفة



بالطباعة، وتعد مطبعة حلب من أقدم المطابع العربية، حيث ظهرت عام 1706م وبعد أكثر من مئة عام على ظهور هذه المطبعة ظهرت مطبعة أخرى حجرية في حلب أيضًا، هي مطبعة بلفنطي وذلك عام 1841م، ثم مطبعة الطائفة المارونية بحلب أيضًا عام 1857م، وفي حلب أيضًا ظهرت مطبعة جريدة فرات عام 1867م، أما دمشق فقد ظهرت فيها مطبعة الروماني عام 1855م، ومطبعة ولاية دمشق عام 1864م.

أما فلسطين والأردن، فيرجع ظهور المطابع فيها إلى عام 1830م عندما أنشئت مطبعة في فلسطين تطبع بالعبرية، ثم ظهرت مطبعة أخرى في القدس عام 1846م، تطبع بالعربية، ولم تعرف الأردن المطابع إلا بعد الحرب العالمية الأولى، عندما أنشئت مطبعة خليل نصر في عمّان عام 1922م، ثم ظهرت مطبعة الحكومة عام 1925م.

وأمّا في العراق، فرغم أنها عرفت أول مطبعة حجرية عام 1830م إلا أن أهم مطبعة ظهرت فيها كانت عام 1856م، في مدينة الموصل، على يد الرهبان الدومنيكان.

وفي مصر:

ارتبط ظهور الطباعة بحملة نابليون بونابرت على مصر عام 1798م، الذي حمل معه ثلاث مطابع مجهزة بحروف عربية ويونانية وفرنسية، وكان الهدف الأساسي لهذه المطابع هو طباعة المنشورات والأوامر، وكانت تقوم بعملها في عرض البحر، حتى دخلت الحملة القاهرة، فنقلت إليها، وعرفت بالمطبعة الأهلية، وتوقفت هذه المطبعة بانتهاء الحملة الفرنسية عام 1801م، ولم يُعرف مصيرها.

وبعد حوالي عشرين عامًا، وفي عام 1819م، أو


الوقائع المصرية
جريدة رسمية للحكومة المصرية

1821م أنشأ والي مصر محمد علي باشا (1184-1265هـ / 1770-1849م) مطبعة على أنقاض المطبعة الأهلية، عُرفت بالمطبعة الأهلية أيضًا، ثم نُقلت إلى بولاق، فعرفت بمطبعة بولاق، أو المطبعة الأميرية، وكانت هذه المطبعة ثورة في عالم المعرفة، طبع فيها في مدة وجيزة من عام 1289هـ إلى عام 1295هـ أكثر من نصف مليون نسخة، ولم تتوقف خلال تسعين سنة من عملها المتواصل غير مدة يسيرة بين عامي 1861 و 1862م بين عهدي محمد علي والخديوي إسماعيل (1245-1312 هـ/ 1830-1895م).

إثر انهيار إمبراطورية محمد علي باشا، ظهرت قيادات ضعيفة لم تستطع مواصلة مسيرة البناء المعرفي الذي شيد أساسه محمد علي باشا.

وبعد أربعين سنة من إنشاء مطبعة بولاق (الأميرية) التي أسهمت إسهامًا كبيرًا في إثراء المعرفة الإنسانية بطبع روائع التراث الإسلامي ونشرها، توالى ظهور بعض المطابع الأهلية مثل: مطبعة الوطن عام 1860م، ومطبعة وادي النيل عام 1866م، ومطبعة جمعية المعارف عام 1868م، والمطبعة الخيرية بالجمالية، والمطبعة العثمانية، والمطبعة الأزهرية، والمطبعة الشرفية أو الكاستلية، والمطبعة الرحمانية، وغيرها من المطابع.

غير أن هناك رأيًا آخر حول تاريخ الطباعة في مصر وهو ما أكده الباحث ستيتشفيتش قد أفاد في مصنفه عن تاريخ الكتاب أن الكتب الأولى المطبوعة بالقوالب الخشبية التي ظهرت في أوروبا قد ظهرت في الوقت الذي توقف فيه إنتاجها في مصر، ويتضح من بحوثه أن مصر عرفت طباعة الكتب بالقوالب الخشبية في وقت مقارب جدًا لطباعة أول كتاب معروف للصيني 'وانج شيه' عام 968، وهو كتاب دورة البوذية Diamond Sutra، ففي اكتشاف يرجع إلى نهاية القرن التاسع عشر تم العثور في آثار مدينة قريبة من الفيوم بمصر على خبيئة تضم حوالي خمسين كتابًا، وكذلك تم العثور عام 1894 على عدة أوراق مطبوعة عبارة عن أحجبة طبعت بالقوالب الخشبية في المدة من 900 إلى 1350 وهي ضمن مجموعة الأرشيدوق بالمكتبة الوطنية بفينا'. وكشف د. مصطفى الرزاز أستاذ الفنون الجميلة بكلية التربية الفنية أن متحف الفن الإسلامي بالقاهرة يقتني مجموعة من الأوراق المطبوعة ترجع إلى ما بين القرنين العاشر والثاني عشر، عثر عليها في الفسطاط والبهنسا والقصير، وهي وثائق دالة على أن المصريين قد عرفوا ومارسوا فن الحفر البارز على الخشب قبل أن يستخدمه


شمس الحقيقة


أم القرى

نطق ملكي كريم

الأمر الملكي بإنشاء مدارس لتعليم البنات بالمملكة


العدد ١

السنة الأولى

صوت الحجاز

جريدة وطنية جامعة

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاح الصحيفة

الأوروبيون بأربعة قرون ونصف القرن؛ حيث بدأت هذه التقنية في أوروبا فيما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

الطباعة في الجزيرة العربية:

اليمن:

أسست الحكومة العثمانية أول مطبعة في الجزيرة العربية في صنعاء باليمن عام 1877م، حوالي عام 1295هـ، ويرجِّح الدكتور يحيى محمود جنيد أن عام 1297هـ (1879م) هو العام الذي ظهرت فيه الطباعة في اليمن، وذلك بعد مناقشته لمختلف الروايات التي أشارت إلى تواريخ متعددة عن بداية الطباعة في اليمن هي: 1289هـ (1872م)، و 1292هـ (1875م)، و 1294هـ (1877م)، و1297هـ (1879م).

وكانت الدولة العثمانية هي التي قامت بإنشاء هذه المطبعة، وخصصتها لما يخدم مصالحها، ولم يُطبع فيها أي كتاب بالعربية، وعرفت هذه المطبعة بمطبعة صنعاء، أو مطبعة الولاية، أو مطبعة ولاية اليمن، ويصفها الدكتور يحيى بأنها مطبعة يدوية هزيلة، لا تطبع أكثر من صفحتين.

الحجاز:

بعدها عرفت مكة المكرمة المطابع عام 1300هـ (1883م) حيث أنشأت الحكومة التركية فيها مطبعة رسمية، وقد أسس والي الحجاز وقتها عثمان نوري باشا مطبعة حكومية بمكة المكرمة وهي المطبعة الميرية، كما كانت تسمى في بعض الأحيان، وقد أنشأها الشيخ أحمد زيني دحلان (ليطبع فيها كتب العلوم ليكثر انتشار العلم في موضع مهبط الوحي المكين)، وكانت المطبعة في بدايتها يدوية زودتها الحكومة التركية عام 1302هـ بآلة طباعة متوسطة، قال عنها رشدي ملحس رئيس تحرير أم القرى عام 1347هـ (1928م): في عام 1302هـ قد جلبت لها حينئذ ماكينة كبيرة وأدوات أخرى هي الموجودة اليوم.

وقد تولى إدارة المطبعة عبدالغني أفندي، ويعاونه علي أفندي في بدايتها وفي عام 1306هـ أصبح إبراهيم أدهم مديرًا للمطبعة، وذكر رشدي ملحس أن هاشم النقشبندي كان من بين الذين تعاقبوا على إدارة المطبعة.

تولت المطبعة في بدايتها طباعة التقويم الرسمي لولاية الحجاز (حجاز ولايتي سالنامه سي)، وصدر عدده الأول عام 1301هـ، كما طبعت بعض مؤلفات علماء الحرم المكي الذين كانوا يطبعون مؤلفاتهم في مصر من قبل.

ومن أهم مطبوعاتها طبع أول جريدة أسبوعية تصدر في ولاية الحجاز (حجاز) التي صدرت في 8/10/1326هـ 1908م وحجبت عن الصدور بعد حوالي سبع سنوات.

كما طبعت أيضًا جريدة (شمس الحقيقة) الأسبوعية في 1909م وطبعت نسختها التركية المسماة (شمس حقيقت).

وقد نشر غلاف كتاب (نزهة الناظر للسيد جعفر البرزنجي)، وقد طبع في مطبعة الولاية عام 1303هـ.

وقد طبعت إلى جانب الجرائد الكثير من الأعمال الأدبية والدينية والتراثية باللغات العربية والتركية والجاوية والملايوية والأردية.

وقد أورد الدكتور طاشكندي قائمة بأوائل المطبوعات التي تولت المطبعة الميرية طباعتها خلال الحقبة العثمانية عام 1300هـ 1882م ونورد فيما يلي قائمة بمطبوعات المطبعة الميرية خلال الحقبة العثمانية 1300هـ 1882م.

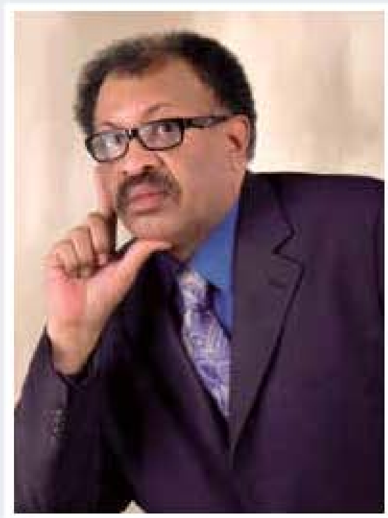
وقد تغير اسم المطبعة الميرية بعد دخول الملك عبدالعزيز الحجاز ففي عام 1343هـ (1924م)، فأصبح اسمها (مطبعة أم القرى) وقامت بدورها الطباعي بإصدار الجريدة الرسمية للمملكة (جريدة أم القرى)، وتكليفها بطباعة المطبوعات الرسمية.

كما أسس الشيخ محمد ماجد كردي مطبعة الترقي الماجدية عام 1327هـ 1909م بعد أن اشتراها من جريدة شمس الحقيقة، وأول مطبعة تأسست في جدة في مطبعة الإصلاح عام 1327هـ 1909م وقد أنشئت هذه المطبعة اليدوية بتمويل أهلي من بعض الشركاء من أهالي جدة منهم راغب مصطفى توكل ومحمد حسين نصيف وغيرهم بغرض تأسيس جريدة الإصلاح ومطبعتها، وتولت المطبعة إصدار مجلة (الإصلاح الحجازي)، والتي لم تعمر إذ توقفت بعد ستة شهور.

وقال عنها رشدي ملحس: إن الذي كان يديرها اسمه رمزي أفندي وتغير اسم المطبعة من الإصلاح إلى المطبعة الشرقية وتولت طباعة جريدة (بريد الحجاز) التي صدرت في جدة ابتداء من ربيع الثاني عام 1343هـ (1924م).

وأول مطبعة أنشئت في المدينة المنورة هي المطبعة العلمية عام 1329هـ (1911م) حين استحضر الشيخ كامل الخجا وهو من كبار تجار المدينة المنورة مطبعة صغيرة تدار بالرجل وتولى إدارتها الشيخ عبدالقادر توفيق الشلبي وهو أحد علماء المدينة، كما أسست مطابع أخرى باسم (الحجاز) أسسها كما يذكر رشدي ملحس فخري باشا قائد حامية المدينة إبان الحرب العامة (الحرب العالمية الأولى).

المعرفة والمعرفة المعلبة



د. أمير تاج السر

كاتب وروائي سوداني

خلال محاولاتي المستمرة لمتابعة الشأن الكتابي والقرائي معًا، على مدى سنوات طويلة، انتبهت إلى أن هناك قراء كثيرين لا يمكن تصنيفهم على أنهم قراء يداومون على قراءة القصص أو الروايات، أو الكتب الإبداعية عامة، لأن بعضهم يعترف صراحة بأنه لم يقرأ كتابًا إبداعيًّا من قبل، واعدًا بأنه سيحاول فعل ذلك مستقبلاً.

لكن بالرغم من ذلك تجد هؤلاء القراء يتحدثون كثيرًا عن القصة والرواية، عن التجارب الأولى والحديثة للكتاب، وأسماء أهم الكتاب عالميًّا وعربيًّا وما أنتجوا، وتكتشف بعد ذلك أنهم متابعون لتلك الكتب التي تهتم بالتنظير الكتابي، سواء كان تنظيرًا أكاديميًّا يسطره أساتذة جامعيون بعد أبحاث جادة تستغرق وقتًا، أو تنظيرًا ناتجًا من تجارب إبداعية كبرى عمد أصحابها إلى صناعة حوار مواز بينهم وبين القراء، في شكل كتب مختلفة الأحجام، تخبر القارئ المهتم عن بعض المحطات المهمة التي يمر بها الكاتب قبل أن ينضج وينتشر، وبعض العقبات الكبرى والصغرى للكتابة التي قد يواجهها.

وأيضًا ربما يوجد ثمة مطبخ إبداعي، يتم عرض خاماته التي تستخدم، وناره السريعة أو الهادئة التي سيتم بها إنضاج النصوص.

تجربة ذاتية

من تلك الكتب المتداولة، والتي يهواها الكثيرون كما قلت، ويتخذون منها متكأ معرفيًّا يختالون به وسط موقدي الثقافة، ومستهلكيها على حد سواء: كتاب لغابرييل غارسيا ماركيز يتحدث فيه عن كيفية كتابة رواية.

الكتاب - بلا شك- ينطلق من تجربة كبيرة وراسخة ورائدة أيضًا في فن الواقعية السحرية، لكن العنوان يبدو لي خادعًا، فلا أحد في الواقع يستطيع أن يعرف كيف تُكتب الرواية، إذا لم يتذوق كل الكتب التي تدعي تلقينه ذلك، ويمشي بنفسه في الدرب، رافعًا رأسه الإبداعي، ورافعًا عصا من الإرادة الحرة يهش بها كل المعوقات.

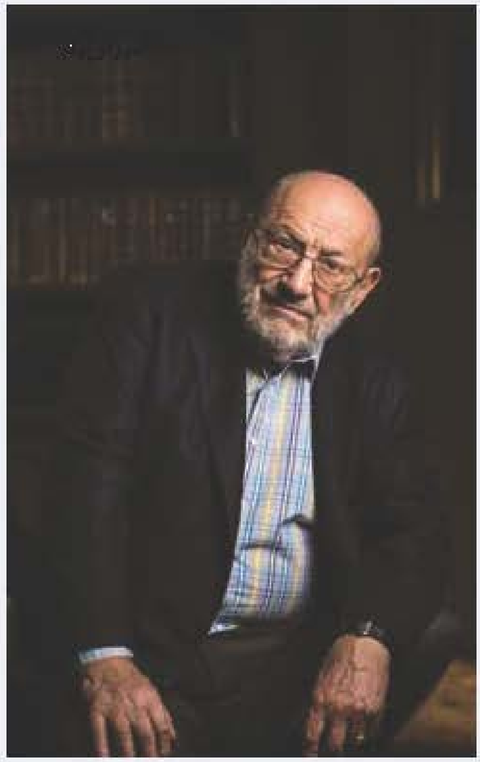
أيضًا يوجد كتاب في هذا الشأن لماريو فارغاس يوسا كما أذكر، وهو عن تجاربه الأولى أيام كان يافعًا في العمر والتجربة، وربما يجد فيه القارئ ضوءًا ما أو إشارة ما، أو لمحات ممتعة عن الكتابة وشجونها، لكنه لن يكون معلمًا جيدًا لمن أراد أن يكتب شيئًا، وينتظر بحماس أن يتعلم من ذلك الكتاب.

كما أعتقد أن الإيطالي الكبير أمبرتو إيكو كتب أيضًا كتابًا مثل هذا، وكتب التركي أورهان باموق مقالات كثيرة جمعت في كتابه السيري "ألوان أخرى"، وكانت عن أجوائه وطقوسه، وأهم المحطات التي استزادفيها بالمعرفة، ومن أين رضعت تجربته حتى استوى عودها وأوصلته إلى نوبل، وهناك أيضًا من كتب في الآداب العربية لمحات من تجربته مثل جمال الغيطاني، وهناك من يكتب مقالات منتظمة عن الكتابة، ذاكرًا فيها خيرها وشرها، متى تشرق؟ ومتى تغيب؟ وهكذا.

يحاول القارئ الذي يتداول هذه الكتب التي تكتب غالبًا بسلاسة وبلا أي تعقيد أدبي أو فلسفي، التفاعل مع قرّاء الروايات ولا يملك صبرًا أو مزاجًا لقراءة الروايات، فيجد مداخل يتحدث بها، بعد استعارتها من هذه الكتب، أو من مقالات لكاتب ما، ويبدو وسط الجميع ملمًّا بكل شيء.

الكتابة ونظرياتها

هذا القارئ الذي ذكرته يبدو - في الغالب- هو نفسه



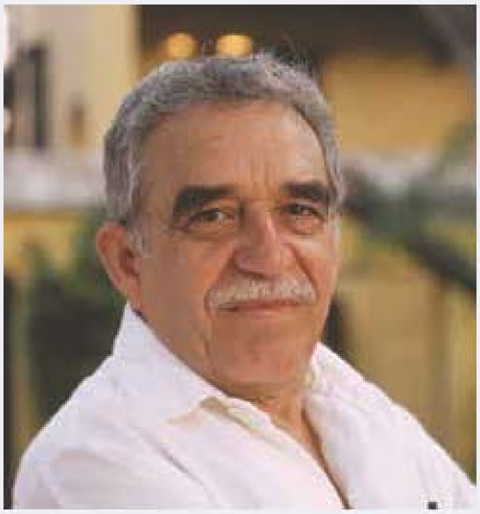
لو كتب، ولا يلوح له أي مدخل للكتابة، ويظن خيرًا في كتاب ألفه واحد من المبدعين يرصد فيه تجربة أو يضع حلولاً لمحاولي الكتابة، كي يقتفوا أثرها كما فعل غارسيا ماركيز، ولا أظنها كانت لفتة بارعة من صاحب اللفتات البارعة أبدًا.

فالذي تعلمه ماركيز كثير جدًّا، ومقلق جدًّا، لو أراد أحد آخر أن يتعلمه أو يفتح وعيه ويتلقاه من ذلك الكتاب، فأفضل ما في المعرفة كما أعتقد دائمًا هو أن تتلقاها من دون أن تدري أنها معرفة، أي أن تقرأ روايات من كتبوا روايات في كل الأجيال، أن تقرأ القصائد بكل مدارسها وأطيافها، أن تقرأ كتب الطب والحكمة والتاريخ والتراث، أن تقرأ ماركيز مبدعا في "الحب في زمن الكوليرا"، لا منظرًا في كتابه التنظيري، وفارغاس يوسا مبدعًا في "حفلة التيس"، لا منظرًا يهندس تجربته، ولن يُسمح للآخرين بهندسة تجاربهم مثلها.

وهكذا يُفضّل أن تقرأ أدونيس شاعرًا لا صاحب نظريات في الشعر، وأن تقرأ الكتب التنظيرية بإحساس من يقرأ عملاً أدبيًا كاملاً، وأن لا تترك مجالاً للاحتكاك بذوي التجارب الجيدة والناجحة إلا توغلت فيه.

وبالإضافة لموهبة الكتابة، تتشكل في اللاوعي دروب مضاءة بعنف، تستطيع أن تمضي فيها وأنت مغمض العينين، نحو نجاح أكيد.

لقد سألني أحد الزملاء مرة عن رأيي في تلك المقولات التي يتناقلها الناس عن كتاب وفلاسفة وشعراء، ويزينون بها حوائطهم في مواقع التواصل، أو يتخذونها مقدمات لنصوصهم الإبداعية، فقلت له إنني لا أعترض على



غابرييل غارسيا ماركيز



ماريو فارغاس يوسا

صاحب تجربة أن يدون لمحات من تجربته في عبارات مقتضبة، لكن في النهاية هذه العبارات تخص من يطلقها ولا يمكن اعتبارها عظات للآخرين ولا فوانيس أو شموعًا في ليالي الآخرين المظلمة.

من يشبّه الكتابة بالمجرة البعيدة، والقلم بالضوء الباهر، والمرآة بالصندوق السحري الغامض، أو العنكبوت، يفعل ذلك بتجاربه الذاتية ولن يلزمني باتباع شيء أو بأخذ عبارته ووضعها على الصفحة الأولى لكتابي كمفتتح له.

إذن وبعيدًا عن اصطياد المعرفة المعلبة أو الجاهزة من مطابخ الآخرين، دعونا نستلهم معرفتنا مما أنتجه هؤلاء المبدعون وغيرهم من العلماء والفلاسفة، وحتى المجتهدون في الدين، وإن قرأنا كتبهم المعلّبة، فنقرأها بعيون وأنفاس تتذوق الإبداع.

”لا أحد في الواقع يستطيع أن يعرف كيف تُكتب الرواية، إنما لم يغلق كل الكتب التي تدعي تلقينه ذلك، ويمشي بنفسه في الدرب رافعًا رأسه الإبداعي ورافعا عصا من الإرادة الحرة يهش بها كل المعوقات“

”فالذي تعلمه ماركيز كثير جدًّا، ومقلق جدًّا، لو أراد أحد آخر أن يتعلمه أو يفتح وعيه ويتلقاه من ذلك الكتاب، فأفضل ما في المعرفة كما أعتقد دائمًا هو أن تتلقاها من دون أن تدري أنها معرفة“

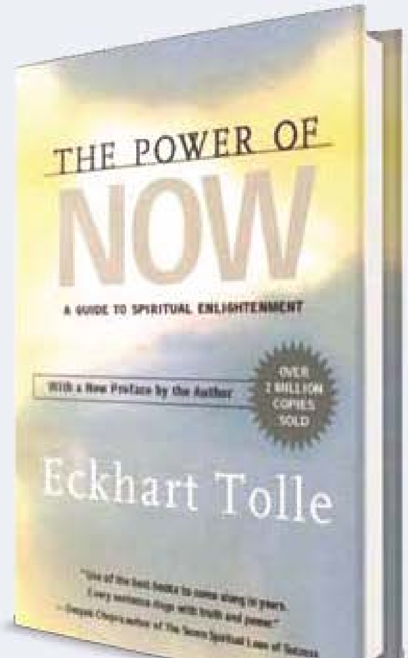


الأنا والزمن



د. وليد فتيحي
جدة

في رحلتي بحثا عن الذات سألت نفسي: هل هناك علاقة بين الزمن وبين الأنا والذات؟ بدأت أنظر حولي أبحث عن الإجابة في طريقة تفاعل وتعامل الناس مع الزمن، وأخذت أرقب هذا التفاعل في كل مكان أذهب إليه فوجدت الإجابة في الأماكن العامة التي يكون فيها انتظار، واكتشفت أن الناس يتفاعلون مع الزمن بطريقتين مختلفتين تماما.. فريق يتوقف الزمن بالنسبة له حين يكون في انتظار شيء، كانتظار نداء فتح باب صعود الطائرة أو وصول القطار الذي سيستقله أو دوره في إنهاء معاملة له.. عند هذا الفريق فإن لحظات الانتظار تصبح مجرد لحظات انتظار للوصول إلى هدف وغاية، أما الفريق الآخر فإنهم يشغلون لحظات الانتظار بأعمال بناءة في قراءة كتاب أو أعمال يدوية أو ذهنية.. رأيتهم لا يبالون إن طال الانتظار فهم منهمكون بتلك الأعمال، فلحظات الانتظار لم تعد لحظات انتظار بالنسبة لهم، بل أصبح لكل لحظة من هذه اللحظات قيمة ذاتية يجد كل واحد منهم نفسه فيها، لم تتوقف حياتهم انتظارا لحدث معين قادم، تخيلتهم كأنهم يحملون ساعة داخلية عقاربها دائما تشير إلى قراءة واحدة (الآن).. تذكرت كتابا كنت قد ضممته لمكتبتي منذ أعوام، لكني لم أقرؤه وظل اسمه عالقا في ذاكرتي.. (قوة الآن)، عدت إلى مكتبتي أبحث عنه فوجدته بين أكوام الكتب المتراكمة في زوايا مكتبتي (قوة الآن) لإيكارت توللي وبدأت أقرأ فيه ولم أجد نفسي إلا وقد غصت معه في رحلة عميقة مع الزمن.





إيكارت توللي

يقول إيكارت توللي: لا شيء يحدث في الماضي، وإنما يحدث دائمًا في لحظة تسمى اللحظة الراهنة أو الآن، وما الماضي إلا ذكرى للحظة من لحظات الآن التي مرت وقضت وانتهت، وبذلك فالماضي ليس له في الحقيقة وجود إلا في ذكرى له تنشأ في مخيلتنا وعقولنا وتحدث كذلك في لحظة الآن.

وكذلك لا شيء يحدث في المستقبل، فالمستقبل هو صورة ذهنية تخيلية لما يمكن أن يحدث في لحظة من لحظات الآن المستقبلية التي عندما تأتي ستكون دائماً بصورة واحدة فقط تسمى (الآن)، وبذلك فإن الماضي والمستقبل ما هما إلا انعكاس لحقيقة واحدة، ألا وهي حقيقة اللحظة الراهنة، حقيقة لحظة الآن، لا شيء يوجد خارج الآن، فالماضي والمستقبل يمكن تشبيههما بالقمر الذي ليس له ضوء بذاته وإنما هو انعكاس لضوء الشمس، الآن هي ضوء حقيقة حياتك الوحيدة.

توقفت وتساءلت في نفسي: ولكن للماضي فوائد عظيمة، فمنه نتعلم من أخطائنا وبه تصقل تجاربنا.. أكملت قراءتي لأجد الإجابة: نعم هناك نوعان من الماضي، ماض نستخلص منه تجارب وخبرات تعيننا على حسن استثمار لحظة الآن، وماض من نوع آخر يحمل في طياته الآلام والأحزان، وأدركت أن هذا الماضي هو الذي يرهق كاهل الإنسان عندما يعيش هذا الماضي في داخله حيًّا على شكل ذكريات فيصبح له كيان، ليحبسه في سجنه ويصبح عقل الإنسان الذي يحيي هذه الذكريات هو السجّان.

في تلك اللحظة استحضرت قول الله تعالى ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي لا تحزنوا ولا تفرحوا بالماضي.

أما المستقبل فهو كذلك نوعان، مستقبل نخطط له بعقولنا، ونستثمر وضوح رؤيتنا في التركيز على لحظة الآن، والتي بها لا بغيرها يمكن أن يتحول وهم خيال المستقبل إلى حقيقة، والتي ستأتي بصورة الآن عندما نصل إليها في يوم من الأيام.

وهناك مستقبل من نوع آخر يحمل في طياته الخوف والرهبة والترقب والهم ممَّا هو آت، وما هو في حقيقته إلا تخيل ووهم من صنع عقل الإنسان، وهذا هو المستقبل الذي يستنزف الطاقات ويفقد التركيز على الحقيقة الوحيدة في يد الإنسان وهي لحظة الآن.

توقفت.. تساءلت: وهل يهم الإنسان أكثر من رزق غد فاستحضرت الحديث القدسي (يا ابن آدم، لا تطلب مني رزق غد، لأني لم أطلبك بعمل غد)، وتذكرت حديث رسول الله (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا) وفجأة تذكرت وردي اليومي، أليس همُّ المستقبل وحزن الماضي هما اللذان استعاذ منهما رسول الله (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن).. تيقنت في تلك اللحظات أني لا أستطيع أن أجد نفسي بالعودة إلى الماضي، ولا أستطيع أن أجد نفسي في تخيل المستقبل، نعم لا يستطيع الإنسان أن يجد نفسه إلا بحضوره وتواصله مع لحظة الآن، هذا الحضور هو الوعي الذي يعي ويدرك ويرى ويراقب الأفكار والمشاعر التي يمر بها الإنسان، فلا يسمح للصوت الذي برأسه والأفكار الشاردة أن تسرق منه لحظة الآن.

معظم الناس يعيشون في الماضي أو المستقبل ولم أكن إلا واحدًا منهم أعيش في الماضي بأحزانه أو أفراحه أو هم وتخيل ما يمكن أن يحدث في المستقبل من محزن أو مبهج.

"فالمستقبل هو صورة ذهنية تخيلية لما يمكن أن يحدث في لحظة من لحظات الآن المستقبلية التي عندما تأتي، ستكون دائماً بصورة واحدة فقط تسمى (الآن)، وبذلك فإن الماضي والمستقبل ما هما إلا انعكاس لحقيقة واحدة، ألا وهي حقيقة اللحظة الراهنة، حقيقة لحظة الآن"

"معظم الناس يعيشون في الماضي أو المستقبل ولم أكن إلا واحدًا منهم، أعيش في الماضي بأحزانه أو أفراحه أو هم وتخيل ما يمكن أن يحدث في المستقبل من محزن أو مبهج، وبذلك كنت أتنكر دون أن أشعر بنعمة لحظة الآن، وأحرم نفسي من الحقيقة الوحيدة في حياتي، والتي بها لا بغيرها يمكن أن يتغير الإنسان"

وبذلك كنت أتنكر دون أن أشعر بنعمة لحظة الآن، وأحرم نفسي من الحقيقة الوحيدة في حياتي والتي بها لا بغيرها يمكن أن يتغير الإنسان.

ولكن لماذا فعلت أنا ولماذا يفعل الناس ذلك؟ إنها الأنا هي التي تفعل ذلك، إنها الأنا التي تستخدم الأفكار المتكررة المستمرة لتعيش بها في الماضي أو المستقبل وتهمل لحظة الآن.. إنه اللاوعي الذي تعيشه معظم البشرية. الأنا تريد أن تهرب من لحظة الآن إلى ماض أو مستقبل، لأن وعيي بلحظة الآن يعني الحضور ويعني السكون ويعني الكينونة، يعني أن أترك مساحة كافية للوعي فيَّ أن يستيقظ، أن أسمح لذاتي الحقيقية أن تعي وأن تراقب أفكاري ومشاعري. هذا الوعي معناه أني قد بدأت في سبر أغوار أعماق نفسي وأن أقترب من المصدر، من الروح التي فيَّ وهي من نفخة الرحمن.. ومن هنا يستقى الإلهام منبع كل إبداع، فالإبداع يأتي من عالم الإلهام، عالم آخر ليس من هذا العالم، ومن خلال بحثي وجدت أن هذا ما يؤكده جل العلماء والباحثين والمخترعين، فكل الاختراعات والابتكارات كان منبعها إلهام في ساعة صفاء ذهن وحضور نفس وسكون، لا ساعة صخب أو تفكير في مستقبل أو ماض.

تيقنت أن الوعي والحضور والسكون فيها علاج الأنا التي فيَّ، الأنا لا تستطيع أن تعيش فينا دون شرود الأفكار للماضي أو المستقبل، قد تظهر الأنا في صورة قصتي الحزينة التي أحملها معي أينما ذهبت من أحزان الماضي وإخفاقات الماضي وحسرات الماضي، وهي تحمل معها طاقة سلبية تلوث نظرتي للحظة الآن، فأراها بعين أحزان الماضي، فألبس اللحظة من الأحزان ما ليس فيها، وبذلك يتزايد حمل تراكمات العبء النفسي للماضي الحزين، وقد تظهر الأنا في صورة وهمية وخيال من صنع عقلي لحدث معين سيحدث لي في المستقبل، وعندها ستبدأ حياتي الحقيقية، أو هكذا أظن، وعندها فقط سأحصل على الهناء والسعادة والأمان والراحة، وكلها صور من الأنا تحرمني نعمة لحظة الآن، فعندما تغيب الذات الحقيقية فإن حالة اللاوعي تجعل الأنا تسيطر علينا والأفكار تسرح بنا بين الماضي والمستقبل.

الأنا تريدني أن أدمن على الأفكار المستمرة المتكررة التي تعيش في الماضي أو المستقبل لتصبح هويتي هي ما حدث لي في الماضي أو ما أنتظره في المستقبل، وكلاهما بعيد كل البعد عن هويتي وذاتي الحقيقية.

أليس هذا هو عمل الصلاة عندما نؤديها حق أدائها فنخرج من الدنيا إليها، فنتصل بها مع خالقنا من خلال الروح في لحظة (الآن)، فنقتل بها وفيها صوت الأفكار الشاردة، نقتل بها وهم (الأنا) المتمثلة في الصور والأشكال والأفكار، وبذلك نفرغ وعاءنا من تلك (الأنا) التي كانت تملؤه وكانت تحول بيننا وبين ذواتنا الحقيقية أن تكون، وبطرد وقتل (الأنا) التي فينا في الصلاة يمتلئ الوعاء بالروح فيحدث فرح الكينونة ونذوق طعم أفراح الروح.

هوية الأنا تعيش في تأنيب وحسرة وألم ومعاناة الماضي أو خوف وترقب وقلق على المستقبل، وعلى قدر ما أعطي الماضي من أهمية، على قدر ما أمده من طاقة ليصبح الماضي هو أنا وأُعرِّف نفسي من خلاله لأصبح أسيره.

كم من الناس يعيشون وهم يحملون على ظهورهم العبء النفسي الثقيل لأحزان الماضي، وكم من الأمراض والأسقام جلبت هذه الأحمال النفسية الثقيلة على حامليها وحرمتهم السعادة والهناء والسكينة والحب والسلام، وكل ذلك من صنع أيدينا عندما تركنا الأنا تتمكن منا دون رقيب من ذات واعية.

وفي أثناء بحثي وجدت دراسة قام بها باحثون من جامعة غرناطة "University of Granada" وشارك فيها خمسون رجلاً وامرأة قدمت لهم جملة من الأسئلة تتضمن مشاعرهم تجاه الماضي أو المستقبل وعن صحتهم الجسدية والنفسية ونوعية وجودة الحياة التي يعيشونها، مثل: كم عدد المرات التي يفكرون فيها عن أشياء في الماضي كان يجب أن يفعلوها بطريقة غير التي فعلوها؟.. وهل يعيشون حياتهم يومًا بيوم أم أنهم قلقون على المستقبل؟ وقد أظهر تحليل الإجابات أن الأشخاص الذين يسهبون في التفكير في الأمور السيئة التي حدثت لهم في الماضي وينظرون لأحداث الماضي بعين الحسرة والندم على فرص أضاعوها أو مرارة طريقة تعامل الناس معهم، هم أسوأ صحة وأكثر عرضة للإصابة بالأمراض، وكذلك هم أكثر قابلية للإحساس بالألم، وبشكل عام فإنهم يعيشون نوعية وطبيعة حياة سيئة.

وقد وجدت الدراسة أن أهم عامل للصحة هو طريقة النظر للماضي، وأن الذين ينظرون إلى الماضي نظرة سلبية ينظرون كذلك لأحداث الحاضر بسلبية أي أن نظرتهم السلبية للماضي تحرمهم من أن يروا إيجابيات الحاضر، بل هم أقل قدرة على القيام بالمجهود الجسدي في نشاطهم اليومي.

ووجد أن تركيز الأشخاص على المستقبل لا يؤثر سلبًا على الصحة ولكنه يحرمهم من الاستمتاع بما يملكون في حاضرهم، وتبين الدراسة أن أكثر المشاركين سعادة وصحة هم أولئك الذين يملكون القدرة على الاستمتاع باللحظة الراهنة ويقدرونها، وفي نفس الوقت هم قادرون على التعلم من الماضي والتخطيط للمستقبل، وقد نشرت الدراسة في مجلة "Universitas Psychologica" في 24 مارس 2012م.

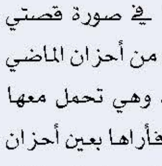
إن إزالة أعباء الزمن من وعيي معناه إزالة الأنا، إزالة هم المستقبل وحزن الماضي، وهما اللذان استعاذ منهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن" وبذلك يصفو تركيزي على لحظة الآن التي بين يدي والتي فيها خلاصي ونجاتي وفوزي وفلاحي.

أخذت كتاب (قوة الآن) بين يدي وابتسمت في قلبي وقلت: "ما أحرى أن يكتب الدعاء الذي علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقدمة هذا الكتاب.

هذه اللحظة التي بين يدي هي الحقيقة الوحيدة التي كانت وسوف تكون، فاقتنعت وقررت ألا أضيع حاضري بين ماض قد مضى لن يعود إلا كذاكرة هي أشبه بحلم قد انتهى، أو هم وهم مستقبل لا يأتي حين يأتي إلا بصورة الآن. أدركت أن لحظة الآن هي أجلُّ نعم الله عليَّ.. فقررت أن آخذها بقوة وأن أستثمرها خير استثمار، فهي أغلى ما أملك، وهنا فهمت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا قَامَت السّاعَةُ وَفِي يَد أَحَدكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِن اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا" فله بذلك أجر.

إنها اللحظة.. إنها الآن.. إنها حقيقتي وحقيقتك.. وإنها حياتي وحياتك، فعزمت أن أحسن استثمار لحظتي وأن أحسن غرسي فيها، فقد تكون آخر لحظة في حياتي..

فـ (دقات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثوان).



لمشاهدة ومحياي (الأنا والزمن)
اضغط هنا

آدم جديد

خالد محمد عثمان

السودان

آتيك في اليوم الذي خَطَ
الغرامُ به
حلمًا بدار الشمس
يا نشوةَ الألقِ المقرقرِ
في افترارِ الهمسِ

يا بعضَ "تاجوج" لا تفرزي
حكايةَ الذي أمضّه الغرامْ
بين شعرة وشعرة
يرفضُ الفطامْ

لا تصدمي الرياحَ
لحظةَ الشقاءِ والتعب
لا تجهشي، زمانُ إرثنا
في الموت والشغبْ
زمانُ آدمٍ جديد

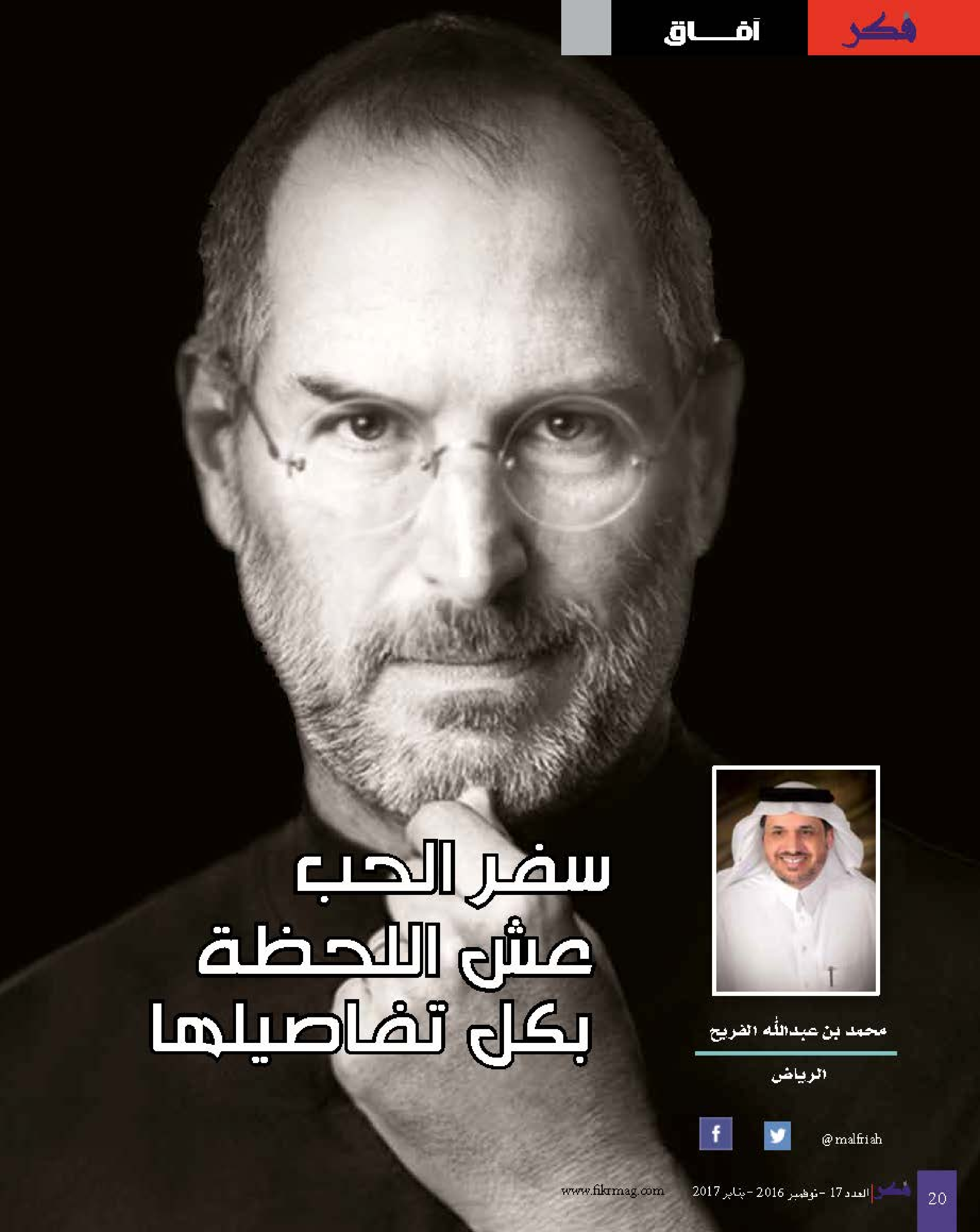
يرفعُ الأكفَ كي يفل
ما يفله الحديد
لكنه يُمْتَصُ كالحساء
في يومِه البليد

الشغب
التعب
والرحيقْ
"يا جدولاً غنائنا العميقْ
يا خليل، يا رضي"
يمدُ ليلُنا حكايةَ الغريب
للغريبِ خصلةٌ
وخصلةٌ ينامُ في عيونها القمر

يمدُّ إرثَنا
وكلما انحنَى
في مطارفِ النزوعِ
والشقاءِ
والدموعِ
والسفرِ
أنّ (أورغن):
- "يا أم أحمد دقي المحلب"

هوامش:

بيت الشعر بين قوسين للشاعر السوداني النور عثمان أبكر. والخليل والرضي من الشعراء المغنيين الذين عاصروا الحركة الوطنية في السودان وغنوا لها.
- المحلب، نوع من الحبوب العطرية تدق عادة وتخلط في الأفراح كختان الأبناء والأعراس.



سفر الحب
عش اللحظة
بكل تفاصيلها

محمد بن عبدالله الفريح

الرياض

@malfriah

توفي "ستيف جوبز" مؤسس شركة (أبل) للبرمجيات، بعد صراع طويل مع مرض السرطان وترك وراءه عند رحيله شركة بلغت قيمتها السوقية 700 مليار دولار أمريكي وهي أغلى شركة في التاريخ.

إقرأ ما كتبه "ستيف جوبز" وهو على فراش المرض قبل وفاته بأيام.

"لقد وصلتُ لقمّة النجاح في الأعمال التجارية.. في عيون الآخرين، حياتي كانت رمزًا للنجاح، ومع ذلك، وبصرف النظر عن العمل، كان لدي القليل من الوقت للفرح. وأخيرًا، في النهاية ثروتي هي مجرد حقيقة أنا معتاد عليها.

في هذا الوقت، وأنا ممدد على سريري في المستشفى أتذكر حياتي الطويلة، أدرك أن جميع الجوائز والثروات التي كنت فخورًا جدًّا بها أصبحت ضئيلة و غير ذات معنىً مع اقتراب الموت الوشيك.

في هذا الظلام، وعندما أنظر إلى الأضواء الخضراء لمعدات التنفس الاصطناعي وأنصت لأصواتها الميكانيكية، أشعر بِنَفَس الموت يقترب مني.

الآن فقط أفهم بعد أن أمضيت حياةً محاولاً جمع ما يكفي من المال لبقية حياتي، أن لدينا ما يكفي من الوقت لتحقيق أهداف لا تتعلق بالثروة فقط.

يجب أن تكون أهدافنا أكثر أهمية، على سبيل المثال، قصص الحب، والفن، وأحلام الطفولة. عدم التوقف عن ملاحقة ثروة يمكن أن يجعل منك مجرد شخص منهك أو كائن آلي.

نحن كائنات يمكن أن تشعر بالحب. الحب كامن في قلب كل واحد منا، ومصيرنا يجب أن لا يكون فقط الجري وراء الأوهام التي تبنيها الشهرة أو المال الذي أفنيت من أجلهما حياتي، ولا يمكنني أن آخذهما معي الآن.

لا يمكنني أن آخذ معي إلا الذكريات التي تَعَزَّزَتْ بالحب.

هذه هي الثروة الحقيقية التي سوف تتبعك. وسوف ترافقك، وستعطيك القوة والضوء للمضي قدمًا وإلى الأمام.

الحب يمكن أن يسافر آلاف الأميال وهكذا تصبح الحياة لا حدود لها.

انتقل إلى حيث تريد أن تذهب. إسْعَ للوصول للأهداف التي تريد تحقيقها. كل شيء كامن في قلبك ويديك.

ما هو أغلى سرير في العالم؟

إنه سرير المستشفى.

إذا كان لديك المال، يمكنك استئجار شخص لقيادة سيارتك، ولكن لا يمكنك استئجار شخص لِحَمْلِ مرضك وآلامك بدلاً عنك.

يمكن العثور على الأشياء المادية المفقودة مَهْمَا غَلَى ثمنها. ولكن هناك شيء واحد لا يمكنك أن تجده أبدًا عندما ستفقده: إنه "الحياة".

مهما كانت المرحلة التي نعيشها من مراحل حياتنا، سَنَضْطَرُّ في النهاية لمواجهة اليوم الذي سيسدل فيه الستار.

إجمع كنزك من حب عائلتك، من حب زوجتكَ أو زوجكِ، من حب أصدقائك. اعتنِ بنفسك جيدًا واهتم بأقربائك. كن عطوفًا وكريمًا وحليمًا مع الآخرين، فلا تدري كم من الوقت بقي لك.

تذكرت وأنا أقراء هذه القصة قول الحق تبارك وتعالى:

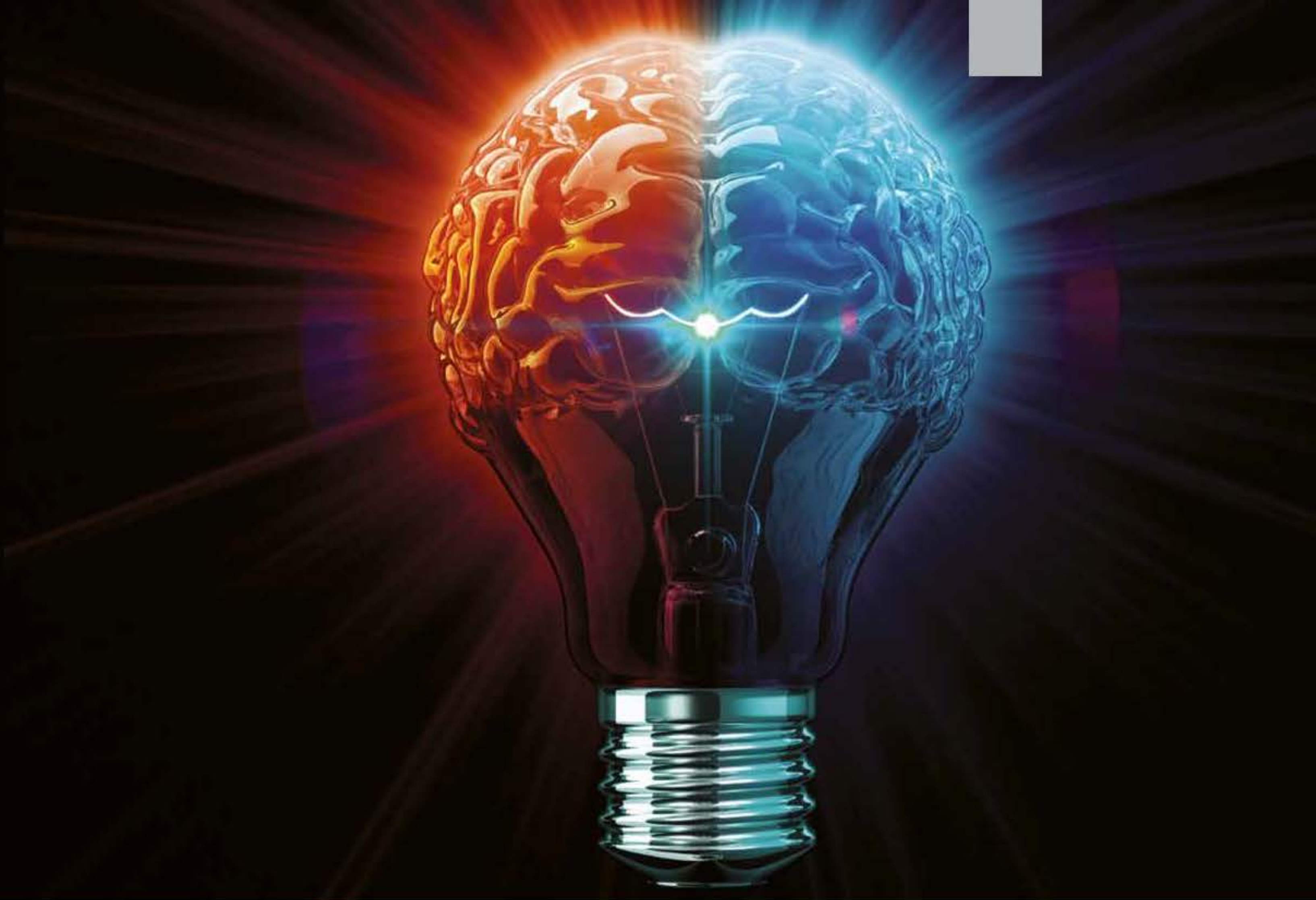
﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (20) سورة الحديد.

وتذكرت أيضًا حديث الدنيا الذي يرويه الصحابي الجليل عبد اللّٰه بن مَسْعُود رضي اللّٰه عنه، قال: نَامَ رسولُ اللّٰه صَلّى اللّٰه عَلَيْه وسَلَّم على حَصير فقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ في جَنْبِه ، قُلْنَا: يا رَسُولَ الّه لو اتَّخَذْنَا لكَ وِطَاءً. فقال: «مَا لي وَلِلدُّنْيَا ؟ مَا نَا في الدُّنْيَا إلاّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح

وكذلك المقولة الشهيرة لعبد اللّٰه بن المقفع (طالب الدنيا كشارب ماء البحر، كلما زاد شرباً ازداد عطشًا).

> "في هذا الوقت، وأنا ممدد على سريري في المستشفى أتذكر حياتي الطويلة، أدرك أن جميع الجوائز والثروات التي كنت فخورًا جدًّا بها أصبحت ضئيلة و غير ذات معنىً مع اقتراب الموت الوشيك"

> "الآن فقط أفهم بعد أن أمضيت حياةً محاولاً جمع ما يكفي من المال لبقية حياتي، أن لدينا ما يكفي من الوقت لتحقيق أهداف لا تتعلق بالثروة فقط"



ثورة الأفكار العظيمة



ناصر بن محمد الزمل

رئيس التحرير @nalzumal

"الأفكار العظيمة غالبًا ما تلقى معارضة شديدة من أصحاب العقول العادية"

ألبرت أينشتاين

هل كان يعلم العالم البريطاني تيم بيرنرزلي مبتكر الويب ماذا سيفعل ابتكاره بالبشرية؟ حينما غير هذا الابتكار الحياة البشرية، مما جعل التواصل أمرًا في غاية السهولة، وبعده جاء ستيف جوبز الذي غير مفهوم الاتصال إلى تواصل بين البشرية؛ حيث بدأت معه وسائل التواصل الاجتماعي الذي أحدث ثورة رقمية غير من عادات الناس. وقبله أكثر بمئة عام حينما طور الأخوين رايت اخترع الطائرة، وقبل الأخوين رايت حينما اخترع العالم الانجليزي هاينرش غوبيل المصباح الكهربائي وقام أديسون بتصنيعه تجاريًا الذي أضاء العتمة وأطلق التفكير.

لكن لو تساءلنا: ما الفرق بين فكرة جيدة وفكرة عظيمة؟ الأفكار الجيدة تأتي جنبًا إلى جنب في كل وقت، وتساعد الناس على حل المشاكلات البسيطة في العمل والحياة اليومية. لكن الأفكار العظيمة تظهر بأقل كثيرًا وتتطلب المزيد من العمل القليل لتنفيذه.

الأفكار العظيمة ليست بالضرورة نتيجة مؤسسات الفكر والرأي الذين يتقاضون أجورًا مرتفعة، لكنها في كثير من الأحيان تأتي في لحظات غير متوقعة إلهام تساعد على الإبداع.

في مناطق ثلاث متباعدة نسبيًا في العالم تتحدد ببقعة من شرق آسيا وفي المنطقة المسماة بالهلال الخصيب أو بلاد ما بين النهرين وفي وادي النيل توصّل البشر إلى عدة اختراعات خلال حقبة زمنية قصيرة جدًا.

إن الكتابة والحساب والتنظيم الاجتماعي والسياسي وتأسيس المدن وما شهدته من نشاط تجاري كبير، كانت كلها اختراعات حاسمة ولّدت الثقافات الإنسانية النشيطة.

إن ما نعرفه الآن بشكل واضح هو أن الأفكار الإبداعية لا تراودنا تلقائيًا من لحظة لأخرى، على الرغم من أن هذا ما يبدو لنا. إن عقولنا تبني هذه الأفكار من سلسلة من العلاقات والصلات، أحيانًا يستغرق تكوينها مدة كبيرة من الزمن. عندما نتفحص العملية الإبداعية بتفصيل أكثر، سنكتشف أن التفكير الإبداعي عادة ما يبنى على لمحات مضيئة -أو سلسلة من اللمحات- من موقف أو مشكلة تلهم العقل لإحداث قفزة أو عدة قفزات غير متوقعة. وينتج عن هذا تشكيل جديد تمامًا من الأفكار الموجودة مسبقًا. هذه التوليفة الطازجة من الأفكار التي تتفاعل فيها عدة مفاهيم -غير متصلة ببعضها- لتكون فكرة كبيرة أو حلًا إبداعيًا. وهذه هي اللحظة المشهور بلحظة "وجدتها" عندما يبدو كأنما أضاء مصباح ما في رؤوسنا.

وقد اتفق المفكرون والعلماء بأن الأفكار لها تأثير قوي في تغيير حياة البشرية نحو الأفضل، وكل ما نراه اليوم في حياتنا من أشياء مميزة لم تكن سوى فكرة في عقول أصحابها. ومن الأمثلة في القرن العشرين على قوة الأفكار في تغيير حياتنا بصورة أجمل، نجد العالم الإنجليزي آلان تورينج الذي ولد تقريبا منذ 100 عام، ساهمت أفكاره في الرياضيات التي قدمها في كسر الشفرة السرية التي استعملتها قوات البحرية الألمانية في الحرب العالمية الثانية، كذلك ساهمت أبحاثه وأفكاره في تطوير الحواسيب.

ومن الأمثلة كذلك عالم الرياضيات الهنغاري بول إيردوش، الذي تأثر في بداية حياته من صعوبة ظروفه إلا من ثراء الأفكار التي كان يحملها في دماغه، و تضامن بعض أصدقائه، ما جعل منه أحد علماء الرياضيات الأكثر تأثيرًا في القرن العشرين. كما نجد عالم الفيزياء الهنغاري ليو سيلار - الذي كان أول من اقترح فكرة استعمال الطاقة النووية في الحرب سنة 1933.

هنا تتضح لنا قوة تأثير الأفكار العظيمة على عالمنا، جميع المؤسسات البحثية عبر العالم يتم قياس مدى تأثيرها عبر الأفكار الجديدة التي تقدمها على شكل أوراق بحثية. ولكن كيف نشأت تلك الأفكار العظيمة؟

ونرى اليوم العديد من المخترعين الذين أطلقوا أفكارهم التي بدت صغيرة آنذاك إلا أنها اليوم من الأفكار العظيمة والكبيرة أيضًا لكنها بدأت محاولة ومغامرة.

وهكذا هي الأفكار العظيمة تبدأ بفكرة وقد تنتهي بنسق حياة، السيارة الطائرة، الكهرباء، التكييف، علاج الأمراض المستعصية، وكل الابتكارات التي أصبحت تسير الحياة، وتنظم مجرياتها، وآخرها البرامج الإلكترونية التي صارت أساسية نتعاطاها كما نتعاطى الماء بين دقيقة وأخرى.

ولا تخلو الفنون التي تعد من الأفكار الإبداعية التي عرفها المتذوق ففي أوروبا نجد لوحات جوهانز فيرمير ووليام تورنر وكلود مونيه وفانسان فان غوغ ورسومات ليوناردو دوفنشي وتماثيل مايكل انجلو.

ومن "الأفكار العظيمة" كان البحث عن طريقة بسيطة لتوزيع النصوص المكتوبة باليد على أكبر عدد ممكن من البشر وراء ولوج المسالك المعرفية التي أدت إلى اختراع المطبعة.

> "اتفق المفكرون والعلماء بأن الأفكار لها تأثير قوي في تغيير حياة البشرية نحو الأفضل، وكل ما نراه اليوم في حياتنا من أشياء مميزة لم تكن سوى فكرة في عقول أصحابها"

هكذا كان عمل "غوتنبرغ" هو المحطة الكبرى التي توّجت أفكارًا كانت تجول في ذهن الكثير من المغمورين الذين لا يسمع بهم أحد اليوم. وبالتأكيد في هذا السياق أن المخترعين الكبار هم ثمرة "جهد جماعي".

ومن الأفكار العظيمة التي أدت إلى انقلاب ثوري في حياة البشرية التسلسل المعرفي والبحث حول اكتشافات ومخترعات متنوعة مثل اختراع الكهرباء وسبل التواصل والمواصلات الجديدة وأسرار "الغرفة المظلمة" وتقنيات التصوير.

الأفكار العظيمة تأتي من أي مكان وليست بالضرورة محتكرة على بلد ما أو شعب ما، ما حدث للعالم الفيزيائي الهندي سوبرا هامانيانر شاندر اسيخار.

في عام 1935، عندما تحدى هذا العالم الهندي، وهو يبلغ من العمر 26 عامًا، الفكر التقليدي السائد باقتراح نظرية ثورية تنطوي على إحداث تغيير جوهري تثبت وجود ثقوب سوداء. فقد طرح فكرته أمام الجمعية الفلكية الملكية في المملكة المتحدة، التي وجد أعضاؤها صعوبة بالغة في الإيمان بالدليل الذي قدمه.

هل كان ذلك لأنه صغير السن؟ هل لأنه من الهند؟ هل لأنه كان يتحدى الأعراف الراسخة؟ أم لأن البعض، لأسباب تتعلق به، لم يتمكن من الإقرار بأن الأفكار الجيدة يمكن أن تأتي من مصادر غير متوقعة؟ ولم يتم الاعتراف بإسهاماته فيما يتعلق بأهمية العمليات الفيزيائية في بنية وتحور النجوم سوى عام 1983 (E)، حيث حصل في ذلك العام على جائزة نوبل في الفيزياء.

يقول عالم الرياضيات هنري بوانكري عن كيفية إلهامه ونشأة فكرة مبرهنة عظيمة في دماغه كنت مشمئزًا من إخفاقاتي المتوالية، لذلك قررت أن أنسى كل شيء وأقوم بقضاء بعض الأيام في شاطئ البحر، وأن أفكر في أشياء غير أبحاثي.. وفي يوم ما و أنا أقوم بالتنزه في جرف أتتني الفكرة بطابع من البساطة الفهم والدقة المتناهية.



ندوب

في أدب الخلاف



د. علي بن محمد العطيف

أستاذ الحديث والدراسات العليا

بجامعة الملك خالد

قال الجرجاني الخلاف "منازعة تجري من المتعارضَيْن لتحقيق حق أو إبطال باطل".
وَالمقصود بعلم الخلاف: العلم بالمسائل التي يَجري فيها الاجتهاد، بغض النظر عن الصواب والخطأ، أو الشذوذ، في الرأي المعروض.

وأما أوجه الخلل والقصور في أثناء الخلاف

أ/ قلة الإخلاص:

وَذلك بأن يدخل المرء في حوار لا يريد به وجه الله، ولا الوصول إلى معرفة الحق والعمل به، وإنما يريد أن يظهر براعته ويبرز مقدرته ويبز أقرانه ويمتلك إعجاب الآخرين.

عن الحسين الكرابيسي يقول: سمعتُ الشَّافعي يَقولُ: "ما ناظرت أحدًا قط، إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما ناظرت أحدًا إلا ولم أبال بين الله الحق على لساني أو لسانه"[2].

قَالَ حُسين الزَّعفراني، معلقًا على كلام الشَّافعي ولقد رأيت المناظرين في قديم الزمان وحديثه فما رأيت ولا حدثت، ولا بلغني أن مختلفين تناظرا في شيء فقلجت حجة أحدهما، وظهر صوابه، وأخطأ الآخر، وظهر خطاه، فرجع المخطئ عن خطئه، ولا صبا إلى صواب صاحبه، ولا افترقا إلا على الاختلاف والمباينة، وكل واحد منهما متمسك بما كان عليه، ولربما علم أنه على الخطأ، فاجتهد في نصرته، وهذه أخلاق كلها تخالف الكتاب والسنة، وما كان عليه السلف الصالح من علماء الأمة[3].

ب/ الغضب:

الغضب محله القلب، ومعناه: غليان دم القلب بطلب الانتقام، وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها وإلى التشفي والانتباه بعد وقوعها.

فكثير من المحاورين إذا ظهر رأي أو مشورة أو بادرة كلام قابلة للأخذ والرَّد والصح والخطأ، ثم عارضه صاحبه ولم يوافقه عليها غضب لذلك أشد الغضب، وهذا مما لا يحسن بالمحاور لما له من آثار خطيرة وسيئة بدءًا من توقد القلب والحقد والحسد وانتهاءً بالسب والشتم والهجر والمقاطعة والمقاتلة.

قَالَ الْهَيْتَمِيُّ في الزَّوَاجِر: "قد مر أن ثمرات الغضب: الحقد والحسد، وبيانه: أن الغضب إذا لزم كظمه لعجزه عن التشفي حالاً رجع إلى الباطن، واحتقن فيه، فصار حقدًا و حسدًا، وحينئذ يلزم قلبه استثقاله وبغضه دائمًا فهذا هو الحقد.

ومن ثمراته أن تحسده بأن تتمنى زوال نعمته عنه، وتفرح بمصيبته، وأن تشمت ببليته وتهجره وتقاطعه، وتطلق لسانك فيه بما لا يحل، وتهزأ به، وتسخر منه، وتؤذيه، وتمنعه حقه... وكل ذلك شديدُ الإثم والتحريم...)[4].

قَالَ ابْنُ عَبدالبَرّ: "وقد كان بَيْنَ أصحاب رَسُول الله صلى الله عليه وسلم وَجِلَّة العلماء عند الغضب كلام هو أكثر من هذا... ولكن أهل العلم والميزان لا يلتفتون إلى ذلك لأنهم بشر يغضبون ويرضون، والقول في الرضا غير القول في الغضب، ولقد أحسن القائل: لا يعرف الحلم إلا ساعة الغضب"[5].

فإذا ما ضبط الإنسان نفسه عند الغضب، وكبح جماحها عند اشتداد ثورته، فإنه يحفظ على نفسه عزتها وكرامتها، وينأى بها عن مذمة الانتقام ومغبة الندم وذل الاعتذار.

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ، قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، أوصني، فقال: «لا تغضب» فردد مرارًا، قال «لا تغضب»[6].

وَعَنْهُ أَيْضًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ"[7].

ج/ الدُّخُولُ في النِّيَاتِ:

إنَّ من القواعد المهمة والآداب الراقية التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم عند حواره مع الآخرين: حُسْنُ الظن بهم، وحملُ أمرهم على السَّلامة والسَّتر ما لم يأته ما يغلبه، وعدم أخذهم بلازم أقوالهم دون أن يلتزموا به وذلك لما يلي:

1/ أَنَّ هذا المنهج هو الذي توافرت على تقريره النُّصوص الشَّرعية:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾[8].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا"[9].

وقد حث الصحابة والتابعون الأمة على اتباع هذا المنهج الرفيع: فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "لا تظن كلمة خرجت من أخيك شرًّا وأنت تجد لها في الخير محملا"[10].

وقال أبو قلابة الجرمي: "إذا بلغك عن أخيك شيئًا تكرهه فالتمس له عذرًا جهدك، فإن لم تجد له عذرًا فقل: لعل لأخي عذرًا لا أعلمه"[11].

وبسلوك هذا المنهج القويم وصلوا رحمهم الله إلى سلامة الصَّدر، والتي كانت منقبة لهم، يَتَمَدَّحون من اتصف بها، ويحمدون الله تعالى على بلوغها.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: "لم يدرك من أدرك من هذه الأمة بكثرة صلاة ولا صيام، وإنما أدرك ذلك بسخاء النفس، وسلامة الصدر والنصح للأمة"[12].

2/ أَنَّ هذا المنهج هو الذي سار عليه السلف الصالح في حياتهم العملية راسمين لمن بعدهم صورًا مشرقة في حوارهم وتعاملهم مع الآخرين، ومن ذلك:

أن الربيع بن سليمان دخل على الشافعي ذات يوم يعوده من مرض ألم به، فقال له: "قوى الله ضعفك، فقال الشافعي: لو قوي ضعفي لقتلني.

فقال الربيع: والله ما أردتُ إلا الخير، فقال الشافعي: أعلم أنك لو شتمتني لم ترد إلا الخير..".

وهكذا ينبغي أن يكون النَّظر لأهل الفضل والخير، وهذا من فقه المقاصد والنيات الذي يجهله كثير من الناس عندما يحكمون على الآخرين بالنظر إلى الخطأ مجردًا

"فكثير من المحاورين إذا ظهر رأي أو مشورة أو بادرة كلام قابلة للأخذ والرَّد والصح والخطأ، ثم عارضه صاحبه ولم يوافقه عليها غضب لذلك أشد الغضب، وهذا مما لا يحسن بالمحاور لما له من آثار خطيرة وسيئة بدءًا من توقد القلب والحقد والحسد وانتهاءً بالسب والشتم والهجر والمقاطعة والمقاتلة"

"فتذكر ذلك جيدًا وأنت تحاور، فليست المشكلة أن نختلف، وإنما المشكلة ألا نعرف كيف نختلف وليس الحل بألا نختلف أبدًا، فهذا غير ممكن ولا متصور، وإنما هو: ألا نُصَعِّدَ الخلاف، وألا نسعى إلى إذكائه، وأن نعرف كيف نتحاور وكيف نختلف كما نعرف كيف نتفق"

عن حال الشخص ونيته ومقصده، فربما تكون زَلَّة لسان ولا يقصد المعنى الفاسد لها، كما بين ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى، حيث قال: "والكلمة الواحدة يقولها اثنان، يريد بها أحدهما أعظم الباطل، ويريد بها الآخر محض الحق، والاعتبار بطريقة القائل وسيرته ومذهبه، وما يدعو إليه ويناظر عنه"[13].

ولهذا لم يحكم بالكفر على الذي أخطأ من شدة الفرح، فقال: "اللهم أنت عبدي وأنا ربك"[14]. لأنه لم يقصد تأليه نفسه.

ورحم الله القلاعي إذ يقول: (فقد يوحش اللفظ وكله ودّ، ويكره الشيء وليس من فعله بدّ، هذه العرب تقول: لا أبا لك في الأمر إذا هم، وقاتله الله ولا يريدون الذمّ، وويل أمه للأمر إذا تمّ، ومن الدُّعاء تربت يَمينك، ولذوي الألباب أن ينظروا في القول إلى قائله، فإن كان وليًّا فهو الولاء وإن خَشُنَ، وإن كان عدواً فهو البلاء وإن حَسُن)[15].

د/ الهجر والصَّرْم:

إنَّ المحاورة والمناقشة تؤثر – في غالب الأحيان – على القلوب، وتكدر الخواطر، فتذكر ذلك جيدًا وأنت تحاور، فليست المشكلة أن نختلف، وإنما المشكلة ألا نعرف كيف نختلف، وليس الحل بألا نختلف أبدًا، فهذا غير ممكن ولا متصور، وإنما هو: ألا نُصَعِّدَ الخلاف، وألا نسعى إلى إذكائه، وأن نعرف كيف نتحاور، وكيف نختلف، كما نعرف كيف نتفق.

ولقد كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين مثالاً رائعًا يحتذى به في حال الوفاق وحال الخلاف، فمع أن الخلاف وقع بينهم في العديد من المسائل إلا أن قلوبهم كانت متوادة متقاربة متآلفة، وبرغم ما حصل بينهم من قتال وفتنة، إلا أن روح العدل والإنصاف والورع والتقوى كان قائمًا فيهم، فلم يُكَفِّر بعضهم بعضًا، ولم يُبَدِّع بعضهم بعضًا، بل كانوا يأخذون العلم من بعض ويلتمسون المعاذير لبعض، بل كانوا يثنون على بعض، ويترحمون على بعض.

هـ/ قلة الإنصاف:

إنَّ قلة الإنصاف من الأخلاق الذَّميمة، لأنها تورث الظُّلم والبعد عن العدل، بل وتؤدي إلى الهجر والصرم والقطيعة، قال الحكيم العربي:

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة
بين الرِّجال وإن كانوا ذوي رحم

ولئن كان الإنصاف جميلاً، فهو مع الأقران أجمل وأجمل، ذلك أن الرجل يسهل عليه أن ينصف من هو أكبر منه سنًّا أكثر مما يسهل عليه أن ينصف قرينه، ذلك لهو أكبر عائق عن الإنصاف هو التحاسد.

وقد يسهل عليه أن ينصف أقرانه أكثر مما يسهل عليه أن ينصف من هو أحدث سنًّا، منه وهذا ما يقرره ويوضحه الإمام المعلمي، حيث قال رحمه الله تعالى:

".. وبالجملة فمسالكُ الهوى أكثر من أن تُحصى، وقد جربتُ نفسي أنني رُبَّمَا أنظر في القَضية زَاعِمًا أنه لا هوى لي، فيلوح لي فيها معنى، فأجدني أتبرم بذلك الخادش، وتنازعني نفسي إلى تكلف الجواب عنه، وغض النظر عن مناقشة ذلك الجواب، وإنما هذا لأني لما قررت ذاك المعنى أولاً تقريرًا أعجبني صرت أهوى صحته، هذا مع أنه لم يعلم بذلك أحد من الناس، فكيف إذا كنت قد أذعته في الناس ثم لاح لي الخدش؟ فكيف لو لم يلح لي الخدش، ولكن رجلاً آخر اعترض عليَّ به؟ فكيف لو كان المعترض ممن أكرهه؟...أهـ.

.. ثم قال.. هذا ولم يُكلَّف العَالم بأَن لا يكون له هَوى، فإن هذا خارج عن الوسع، وإنما الواجب على العالم أن يفتش نفسه عن هواها، حتى يعرفه ثم يحترز منه، ويمعن النظر في الحق من حيث هو حق، فإن بان له أنه مخالف لهواه آثر الحق على هواه.."[16].

عن عمرو بن سعيد عن أمه قالت: "قَدِمَ ابن عمر مكة فسألوه فقال: أتجمعون لي يا أهل مكة المسائل وفيكم ابن أبي رباح – يعني عطاء –"[17].

فابن عمر رضي الله عنه كان صحابيًّا، وعطاء بن أبي رباح رحمه الله كان تابعيًّا، ومع ذلك أنصفه ابن عمر، ولم يغمطه حقه.

ومن الإنصاف الذي يدل على الرسوخ في الفضيلة أن يتحدث الرجل عن خصمه فينسب إليه ما يعرفه له من فضل.

وإن جماع الخير والإنصاف كله، في حب المرء لإخوانه ما يحبه لنفسه.

وفي الحديث الصحيح عند البخاري ومسلم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه)[18].

و/ قلَّة العلم بمادة الحوار:

فقد يحاور المرء بدون علم ولا فهم، وهذا يوقع في الحرج، فالعلم بموضوع الحوار وتفاصيله مما يمكن من الوقوف على أرض ثابتة.

وخير ما يستعين به المحاور عند إرادته الحوار في موضوع ما: أن يجمع أطراف الموضوع، ويتصور جميع احتمالاته، ووجوهه، وأن يطلع على ما كتب فيه سواء من المؤيدين أو المعارضين، وأن يحيط علمًا بكلام العلماء الأجلاء من هيئة كبار العلماء وغيرهم سواء كان ذلك على شكل فتوى أو رسالة أو مؤلف مستقل، وأن يكون ذا نظر ثاقب، وخبرة عالية بظروف المكان والزمان، وتطورات العلوم والمعارف وطبائع النفوس ونزواتها.

فهذه الأخطاء من الأمور التي تخل بالحوار الهادف وتصل به إلى هوى النفس ونزغات الشيطان وتنقل الخلاف السائغ إلى خلاف مذموم مقيت.

المراجع

1 - التعريفات (ص135).
2 - حلية الأولياء(118/9)، وصفة الصفوة (2/167)، والفقيه والمتفقه للخطيب (242/2)، (665).
3 - أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (209/2)، (699).
4 - (82/1).
5 - جامع بيان العلم وفضله (413/3)، برقم (11173).
6 - أخرجه البخاري في صحيحه،10 / 519 رقم 6116.
7 - أخرجه البخاري في صحيحه،10 / 518 رقم 6114، ومسلم في صحيحه، 4 / 2014 رقم 2609 .
8 - سورة الحجرات، الآية 12.
9 - أخرجه البخاري في صحيحه 10 / 481 رقم 6064 . ومسلم في صحيحه، 4 / 19865 رقم 2563.
10 - أخرجه أبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه، ص189 رقم157.
11 - انظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم (285/2).
12 - غربة الإسلام لابن رجب، ص87.
13 - مدارج السالكين (3/521).
14 - رواه مسلم في صحيحه برقم(2747).
15 - أحكام صفة الكلام للقلاعي، ص79.
16 - انظر: القائد إلى تصحيح العقائد 32.
17 - أخرجه يعقوب في المعرفة والتاريخ (172/1)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (381/40)، وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة143/2، والمزي في تهذيب الكمال (77/20).
18 - أخرجه البخاري في صحيحه (14/1) برقم (13)، ومسلم في صحيحه (67/1)، (45/71).



الشرق والغرب في التاريخ القديم تعايش أم تصادم ؟؟

د. حياة المتدين

المغرب

ترجع العلاقات الأولى بين الشرق والغرب إلى أيام الكنعانيين، حيث اتخذت طابعًا تجاريًا، فقد كانت مدن الساحل الكنعاني تقيم علاقات تجارية وثقافية، وكذلك علاقات مصاهرة مع الإغريق، وقد تم التعبير عن مثل هذه العلاقات السلمية حينًا والعنيفة أحيانًا، في "القصص الهوميرية"[1] والأساطير المتأخرة، كتلك التي تحدثت عن اختطاف "أوروبا" ابنة ملك صور من قبل" زيوس" كبير آلهة الإغريق، أو تلك التي روت قصة" قدموس" ابن ملك صور الذي ذهب إلى بلاد الإغريق باحثًا عن أخته ومستفيدًا من سفرته لنشر الأبجدية فيها[2].

غير أن علاقات الشرق بالغرب تطورت بشكل خاص في الألف الأولى ق.م لاسيما في أيام ازدهار الفرس. فبعد أن اتسعت رقعة الدولة الفارسية، بحيث امتدت من حوض نهر السند إلى آسيا الصغرى، نشبت حروب طاحنة بينها وبين الإغريق، دامت طيلة النصف الأول من القرن الخامس ق.م، سيطر الفرس في مرحلتها الأولى على المدن اليونانية أثينا واسبرطة، تم بعد ذلك استطاع الإغريق طرد الغزاة القادمين من الشرق، وعرفت تلك الحروب بـ "الحروب الميدية".

بعد هذه الحروب رغب الإغريق في التعرف على هذا العدو، فكان أول باحث استقرأ هذه الظروف والأحوال وسجلها، المؤرخ اليوناني" هيرودوت"[3] الذي جمع معلومات كثيرة وأوصاف عن الأماكن التي زارها، ويدور موضوع كتابه الأساسي حول تاريخ الحروب والوقائع بين اليونانيين والفرس، وقد وصف قومه بأنهم" أبطال نبلاء استطاعوا بفضل شجاعتهم وتأييد آلهتهم أن ينتصروا على أعدائهم، وينقذوا وطنهم من الاستعباد والإذلال، وقومه هم أهل الحضارة والرقي والتقدم، وغيرهم أقل منهم، بل هم في نظره برابرة غير متحضرين أو متمدنين، وبطولة قومه وشجاعتهم هي التي يسرت لهم النصر، كما أن الآلهة والنبوءات غالبًا ما تبشر بانتصار اليونانيين."[4] .

في مقابل هذا الإطراء والاعتزاز بالذات اليونانية، نجده يصور الفرس أعداء اليونان التقليديين بأنهم" برابرة متخلفون لا يملكون من الحضارة إلا النزر اليسير، تسيرهم أهواءهم، وتحكمهم نزواتهم التي في النهاية أودت بهم في مهاوي الهزائم. بل إن أعظم ملوك الفرس عنده تغلب عليهم شهواتهم، فهم من ثم خاضعون لها، لا يستطيعون الفكاك منها، وفي سبيلها يرتكبون الفظائع والجرائم، وقادة الفرس تبع لملوكهم، فهم سفاكو دماء، قليلو الخبرة والدراسة، كثيرو النزق والحماقة."[5].

والواقع أن هيرودوت قد بالغ في هذه الصفات التي لا وجود لها، وهو في ذلك يتحدث بلسان قومه، كما أن كتابه، مع أهميته، إلا أنه يعتمد على الكثير من الروايات التي أخذها عن الأجانب، فقد كان جاهلاً بلغات الشعوب التي كتب عنها تاريخها، كما يروي عددًا من الخرافات والأوهام والنبوءات، ويضم عددًا من الأخطاء والمبالغات، شأنه في ذلك شأن كل من كان على شاكلته من المؤرخين والكتاب.

أما على مستوى العلاقات العربية اليونانية، فإن أقدم من سجل اسمه من اليونان هو الإسكندر الكبير(356 -323 ق.م)، فبعد أن أسس إمبراطورية قوية شاسعة الأرجاء ذات منافذ على البحر الأحمر والخليج العربي، وبعد أن تمت له الغلبة على مصر والهلال الخصيب،[6] فكر في احتلال الجزيرة العربية، فأرسل لذلك بعثات استطلاعية تتقصى له المعلومات اللازمة لإرسال أسطول كبير يستولي على سواحل الجزيرة.

ويرى" جواد علي" في المفصل في تاريخ العرب أن فتوحات الإسكندر الكبير التي قذفت بالإغريق إلى مساحات واسعة من آسية" لم تكن حدثًا سياسيًا فحسب، إنما هي فصل من فصول كتاب التاريخ البشري، نقرأ فيه أخبار التقاء العالمين الشرقي والغربي وجهًا لوجه على مساحات واسعة من وجه هذه المسكونة، ونزعة الغرب في السيطرة على الشرق، وتأثر الحضارات والثقافات بعضها ببعض، وحصول علمـاء اليونان والرومان على معارف مباشرة عن أحـوال أمم كانوا يسمعـون أخبارها من أفواه التجار والسيـاح والملاحيـن، وصارت الإسكندرية وبعض مدن بلاد الشام، ملتقى الثقافات الشرقية والثقافات الغربية."[7]

أما" سيد أحمد علي الناصري" فيعتقد أن فتح الإسكندر لمصر قد غير وجه التاريخ عامة، وتاريخ وادي النيل خاصة: "إذ قامت على ضفاف النيل لأول مرة مملكة هللينية، قدر لها أن تكون أكثر الممالك الهللينية، ثباتًا ورسوخًا، بل إن الحضارة الإغريقية ظلت تترعرع على ضفاف النيل ما يقرب من ألف عام تقريبًا، كما أن تأسيس الإسكندرية أحدث ثورة في طرق التجارة القديمة، وخلق طريقًا جديدًا يجمع القارات الثلاث التي تلتقي في مصر."[8]

ومع أن الإغريق كانوا ينظرون إلى الشرقيين نظرة الاحتقار، ويعتبرونهم

في درجة العبيد، فإن الإسكندر الأكبر بعقليته الجديدة حاول أن يملأ الهوة بين الهليني والبربري الشرقي، "لأنه كان يهدف إلى إنشاء إمبراطورية تزاوج بين الشرق والغرب على أساس الوئام والسلام، وعلى أساس أن يحكم العنصرين بالمساواة، ضاربًا عرض الحائط بعقدة الإغريق العنصرية، واستنكار المقدونيين المتطرف لتعاطفه مع الشرقيين."[9]

وقد نتج عن هذا الاحتكاك والتواصل تأثير متبادل بين الشرق والغرب، حيث انتشرت الفلسفة اليونانية في مدن الشرق، في المقابل أعجب الإغريق بآلهة الشرق فعبدوها، وهو ما يؤكده ول ديورانت في قصة الحضارة بقوله:

> ”
> في القـرن الـرابـع المـيـلادي شجع البيزنطيون (الرومان الشرقيون) الأحباش (بعد اعتناقهم المسيحية) على غزو بلاد العرب، "وقد استطاع الأحباش بعد إتمام حملتهم العسكرية عام 522 م واحتلالهم اليمن، أن يبسطوا سيطرتهم على الطريق البحري الحيوي، وعلى التجارة مع الهند... وكانت تجارة التوابل القديمة التي كان معظمها يمر عبر اليمن والحجاز واقعة بأسرها في يد الأحباش
> “

> ”
> ومن يقرأ تاريخ الرومان منذ ظهورهم حتى سقوط الإمبراطورية يتعجب كل العجب فيجد صراعات على السلطة، ومن يصبح إمبراطورًا باستخدام كل وسائل القتل والنهب، فالأخ يقتل أخاه، والجنود يقتلون رؤساؤهم، والقواد يقتلون قائدهم، ومجلس الشيوخ الروماني يتآمر كل فرد منه على الآخر
> “

"وقصارى القول: إن اليونان عرضوا على الشرق الفلسفة، وأن الشرق عرض على اليونان الدين، كانت الغلبة للدين، لأن الفلسفة كانت ترفًا يقدم للأقلية الضئيلة، أما الدين فكان سلوى للكثيرين... وقد سر العالم الذي زالت عن أعينه غشاوة الخداع، العالم المستقل الذي سئم الحروب، سر هذا العالم أن يعود إليه الإيمان والأمل، وكانت أعمق فتوح الإسكندر أثرًا، نتيجة أبعد ما تكون عن العقول، ألا وهي اصطباغ الروح الأوروبية بالصبغة الشرقية."[10]

لقد كان غزو الإسكندر الأكبر للشرق هو بداية لتطلع الغرب لخيرات الشرق واحتلاله، وكان الحل المثالي لمشكلة تزايد عدد السكان وقلة الموارد التي أرهقتها الحروب الكثيرة، فما أن فتح الإسكندر الشرق، حتى تدفقت جموع الإغريق نحو الشرق، محملين بعقدة الاستعلاء والعنصرية، فقد "نظروا إلى المصريين نظرة احتقار باعتبارهم من المتبربرين."[11]

ويرى "اندريه إيمار" في تاريخ حضارات العالم" أن استهواء النفوذ والاستقلال، أي هذه الرغبة في امتلاك ما نريد أن نحرم منه الغير، هو إحدى الميزات الرئيسية في سياسة المدن اليونانية، وإحدى الميزات التي طبعت إلى حد بعيد حضارة هذه المدن

في القرنين الخامس والرابع (ق.م)، كانت النتيجة المحتومة حروبًا متعددة دائمة، فمنذ مستهل القرن الخامس حتى السنة 338 ق.م، قضت أثينا أكثر من 120 سنة في الحرب من أصل 164، أي أكثر من سنتين من أصل ثلاث، ولم تعرف خلال هذا المدة فترة سلم تعدت العشر سنوات." [12].

من جهة أخرى ظهرت العلاقات الرومانية –القرطاجية بداية بصفته صراعًا تجاريًا ما فتئ أن أخذ أبعادًا عسكرية، وكان أول احتكاك بين الطرفين عندما احتل الرومان جزيرة صقلية عام 264ق م، واعتبر القرطاجيون هذا الغزو مساسًا بمصالحهم الاقتصادية والسياسية، وكانت هذه الواقعة البداية الأولى للحرب الطويلة بين الرومان والقرطاجيين، والتي استمرت إلى عام 241ق.م، وسميت بالحروب البونيقية الأولى، و قد بلغ الصراع بين القرطاجيين والرومان أوجه للسيطرة على البحر المتوسط في عهد الأميرال القرطاجي "ما جو"، ومن بعده "حبسكو"، ثم "أزرو بعل"، "وهملقار"، والد "هنيبعل". "ثم استأنف هنيبعل الحرب ضد الرومان، وهو أعظم قادة القرطاجيين على الإطلاق، ففي عام 218 ق م هاجم بلاد الرومان في عقر ديارهم، فقاد جيشه وأفياله نحو إيطاليا تحقيقًا لحلم كان يدغدغ خياله منذ عهد الشباب.... فانقض على شمال إيطاليا .... ثم انتصر انتصارًا ساحقًا في معركة تريبيا Trebia، ثم زحف على روما"[13]، وفي سنة 202 ق.م، شنت روما هجومًا على قرطاج، إلا أن جنود هنيبعل حديثي العهد بالقتال فروا من ساحة المعركة تاركين الجنود المتمرسين يواجهون الرومان بمفردهم، فأبيد عدد كبير معهم، واستسلمت قرطاج، لتنتهي بذلك الحرب البونيقية الثانية." وفي عام 46 ق م أمر "يوليوس قيصر" بإعادة بناءها شريطة أن تكون مدينة رومانية، وأصبح اسم قرطاج في عالم النسيان، ودخل هذا المكان إلى حظيرة أملاك الإمبراطورية الرومانية تحت اسم ولاية إفريقيا، عندئذ أصبحت روما سيدة البحر المتوسط بلا منازع."[14]

إثر الانتهاء من درء الخطر القرطاجي، اتجهت أنظار الرومان شرقًا، فشنوا سلسلة من المعارك التي انتهت باحتلال كامل للأراضي المقدونية في الشرق، وتمت السيطرة على بلاد الإغريق، وبعد هذه الانتصارات، أصبحت الدولة الرومانية دولة عظمى تتحكم بمقدرات العالم القديم الغربي والشرقي.

ويصف "الفرد بتلر" الحكم الروماني في مصر بقوله: "إن حكومة مصر (الرومية) لم يكن لها إلا غرض واحد، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية، أو ترفيه حال الناس والعلو بهم في الحياة، أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء، لا يعتمد إلا على القوة، ولا يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم."[15]

بدأ العد العكسي في حياة الدولة الرومانية اعتبارًا من عام 235م، فقد شهد ذلك العام ازديادًا خطيرًا في الاضطرابات السياسية والاجتماعية، وتصاعدت فيه الهجمات الخارجية وخصوصًا من القبائل الجرمانية، وعودة نفوذ الإمبراطورية الفارسية، فكان أن قسم "ثيودوسيوس الأول" الإمبراطورية الرومانية لولديه "أركاديوس" إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية، مع عاصمة بلاده في القسطنطينية، و"هونوريوس" في الإمبراطورية الغربية مع عاصمة بلاده في ميلانو.

ويرى "جورج قرم" في كتابه "شرق وغرب: الشرخ الأسطوري"[16] أن هذا التقسيم كواقع سياسي، هو الذي أنشأ ثنائية الشرق والغرب، وهو الذي مهد السبيل لانقسامات القرون الوسطى عندما تأججت الخلافات العقائدية والتنظيمية بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما، حيث رفض بطريرك القسطنطينية الخضوع لهيمنة بابا روما، معتبرًا أن مراكز السلطة الكنسية يجب أن تبقى على قدم المساواة ،ومن ثم قامت هوة بين الشرق الأرثوذكسي والغرب الكاثوليكي على إثر انقسام العالم القديم إلى كتل متنافسة. وهو ما ذهب إليه "جراهام. م.أي فولر" حيث يقول : "والحق أن التمييز بين أوروبا والأراضي الواقعة ناحية الشرق منها كأساس للتحليل السياسي والإستراتيجي هو تمييز يسبق تاريخيًا ظهور الإسلام على المسرح العالمي، وفيما يعد، باختلاف الآراء، من أول التقديرات الجيوبوليتيكية وأكثرها دوامًا، طور الإغريق حسًا قويًا بالتمييز الجغرافي والثقافي بين أوروبا وآسيا، ومن تم رأوا أشد منافسيهم الإستراتيجيين قوة هم الفرس "الآسيويين"، وبعد ذلك كان ظهور الإمبراطورية البيزنطية، ثم انقسامها إلى إمبراطوريتين شرقية وغربية، داخل الإمبراطورية الرومانية والمسيحية، وهو الأمر الذي أدى إلى ترسيخ صورة الحدود الحضارية."[17] مما يعني أن المنبع الأساسي لثنائية شرق/غرب قد انفجر في قلب الديانة الواحدة "المسيحية"، والحضارة الواحدة "روما".

في القرن الرابع الميلادي شجع البيزنطيون (الرومان الشرقيون) الأحباش (بعد اعتناقهم المسيحية) على غزو بلاد العرب، "وقد استطاع الأحباش بعد إتمام حملتهم العسكرية عام 522 م واحتلالهم اليمن، أن يبسطوا سيطرتهم على الطريق البحري الحيوي، وعلى التجارة مع الهند... وكانت تجارة التوابل القديمة التي كان معظمها يمر عبر اليمن والحجاز واقعة بأسرها في يد الأحباش." [18]

وقد حاول أبرهة (عامل النجاشي على اليمن) جعل صنعاء منافسة لمكة، فقام ببناء كنيسة فخمة كي تجتذب الحجيج من العرب، وما لبث أن دفع بجيشه – واضعًا بين صفوفه الفيلة – في الطريق إلى مكة، محاولاً تدميرها سنة 570م، لكنه مني بالهزيمة، الأمر الذي أدى إلى إضعاف شوكة الأحباش في اليمن.

وقد تطلع المسيحيون العرب إلى الرومان لمساعدتهم على تحرير اليمن، لكنهم رفضوا مساعدتهم ضد الأحباش الذين كانت تجمعهم علاقات صداقة. فتوجه العرب إلى الفرس لمساعدتهم، وهكذا "وحوالي عام 575 للميلاد، في عهد أنوشروان الحاكم الساساني لبلاد فارس، تم إرسال قوة عسكرية بقيادة فهريس wahris، فأطاحت بالأحباش بقيادة ماروك (مسرود) آخر حاكم من سلالة أبرهة، وأخضعت اليمن للحكم الفارسي." [19]

وهكذا يتبين من خلال تتبع هذه المحطات التاريخية، أن علاقة الشرق بالغرب هي علاقة قديمة، وأنها كانت قائمة على تفاعل حضاري وتبادل تجاري، وتطورت إلى أن أصبحت علاقات قائمة على أطماع ومصالح اقتصادية، وصراعات وحروب، تتخللها فترات سلم وتعاون، لكنها فترات قصيرة.

إلا أن هذه النتيجة لا يجوز اعتمادها بمعزل عن بقية الأحداث التاريخية التي عرفتها المنطقة، ذلك أن التاريخ في ضوء المعايير الثقافية هو أبعد من أن يكون مجرد سجل للأحداث التي وقعت، فعندما تعيد الشعوب النظر إلى ميراثها الثقافي والسياسي، فان جوانب انتقائية من الماضي غالبًا ما تحظى باهتمام أكثر من غيرها، ويتم التركيز على أحداث وتجاهل أخرى، وهكذا تعاد كتابة

التاريخ دائمًا وفقًا لحاجات الشعوب وتصوراتهم. وهو ما نحاول الابتعاد عنه في هذه الدراسة.

إن من شأن إدراج مجموعة من الأحداث والشخصيات التاريخية في سياق تتابعي معين، أن يحيل القارئ إلى نتيجة واحدة وفكرة معينة، ومن ثم فإبراز نصوص معينة وإخفاء أخرى - وبغض النظر عن النوايا السيئة – فيه تحريف متعمد للتاريخ والأحداث. كأن نشير، في بحثنا عن علاقة الشرق بالغرب، إلى الانتصار البحري الذي أحرزه الإغريق على الفرس في القرنين الخامس والرابع ق.م، ثم فتوحات الإسكندر المقدوني وحروبه في الشرق، ومن بعده الرومان في إبادتهم لمدينة قرطاجة واكتساحهم للشرق...إلخ

فهذه الأحداث تحيل بالضرورة إلى فكرة واحدة، وهي حصر علاقة الشرق بالغرب في الصراع والصدام، وتصويرهما كعدوين تاريخيين .

إن تفادي الأخطاء الناجمة عن القراءات المتحيزة للأحداث التاريخية، والتي تعتمد سوء التأويل، وإغفال بعض الأحداث، وإبراز أخرى، هو ما سنحاول الالتزام به في هذه الدراسة عبر رؤية موضوعية، تحاول قراءة التاريخ في صورته الكلية دون تحيز أو انتقاء أو طمس للبعد التاريخي للأحداث وتسلسلها، وعلاقاتها السببية.

إن دعم الأفكار النمطية عبر القراءة الخاطئة والمغلوطة والمتحيزة للتاريخ، كما الحال في تأكيد علاقة الصراع والصدام التاريخية بين الشرق والغرب، ضاعف من سوء الفهم المتبادل، فزادت الأزمة بينهما عمقًا، والهوة اتساعًا.

ومن ثم، نطمح من خلال هذا البحث، تحرير الشرق والغرب من الأفكار النمطية الموروثة، والتي تشكل عائقًا نحو قيام علاقات حضارية وثقافية وإنسانية متوازنة.

ففي التاريخ، صفحات كثيرة، تحكي قصص أخرى، وتوجد شواهد عديدة تثبت أنه لم يكن يومًا كل الغرب عدوًا لكل الشرق، فقد كانت الحروب والصراعات تحركها الأطماع الاقتصادية والرغبة في التوسع، بغض النظر عن كون العدو شرقي أم غربي.

"فقد ذكر بعض المؤرخين أن الجنود المصريين حاربوا إلى جوار إغريق آسيا وليديا عندما اجتاحها قورش الأكبر في النصف الثاني من القرن السادس، وعندما هاجم قمبيز مصر عام 525ق م، قاوم الجنود الإغريق المرتزقة مع المصريين لصد هذا الاحتلال الفارسي."[20]

كما أن الإسكندر المقدوني في اجتياحه للشرق، وقضائه على الحكم الفارسي عام 333 ق م، أخذت المدن الفينيقية الواحدة تلو الأخرى تفتح له أبوابها-باستثناء صور البحرية – وتستقبله استقبال المحررين، وتضع سفنها بتصرفه، وتزوده بالمؤن والإمدادات، فيما كان مستمرًا في اجتياح الشرق. وحنبعل القرطاجي في حربه ضد روما تحالف مع الملك المقدوني فيليب الخامس الذي تعهد بتقديم الدعم له ولجيشه، "وكان فيليب ملك مقدونيا منذ انتصار الرومانيين عليه لا يألو جهدًا في الاستعداد لمحاربتهم والانتقام منهم، وقد حمله بغضه الشديد لهم على قتل ابنه الأصغر، الذي كان يحبهم ويثني عليهم جهرًا وفي كل مكان"[21]، كما تحالف حنبعل مع ملك سرقوسة ضد الرومان، وأعلنت تارانتو ولاءها له.

"ومن يقرأ تاريخ الرومان منذ ظهورهم حتى سقوط الإمبراطورية يتعجب كل العجب فيجد صراعات على السلطة، ومن يصبح إمبراطورًا باستخدام كل وسائل القتل والنهب، فالأخ يقتل أخاه، والجنود يقتلون رؤساءهم، والقواد يقتلون قائدهم، ومجلس الشيوخ الروماني يتآمر كل فرد منه على الآخر."[22]

و حرب طروادة، كانت في القرن الثاني عشر ق.م بين الإغريق والطرواديين، استمرت عشر سنوات، وفي السنة الأخيرة دمرت مدينة طروادة بالكامل [23].

فهذه أمثلة قليلة من تاريخ حافل بمثل هذه الأحداث، كما هو حافل بغيرها، لتحكي الصورة في شموليتها أن الصراع بين الشرق والغرب لم يكن حالة خاصة ولا حدثًا فريدًا خصت به العلاقة بين الشرق والغرب، بل إن النزاعات والحروب حصلت على مر تاريخ البشر ولا زالت مستمرة، وكانت - ولا زالت - الأطماع الاقتصادية والنزوات السياسية والرغبة في التوسع الدافع الأساسي وراءها والمحرك القوي لها.

المراجع

1 – هوميروس، الأوديسة، ترجمة دريني خشبة، مكتبة نهضة مصر. وهوميروس، الإلياذة، ترجمة ممدوح عدوان، المجمع الثقافي، 2002 م.

2 – انظر هيرودوت، تاريخ هيرودوت. ترجمة عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، 2001م، ص 30. وأيضًا حسن نعمة، موسوعة الأديان السماوية والوضعية، ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت،1994م، ص 164.

3 – هيرودوت، تاريخ هيرودوت ،مرجع سابق.

4 – حمد محمد بن صراي، في مقدمة لكتاب تاريخ هيرودوت ،مرجع سابق، ص 23.

5 – المرجع السابق، ص 24.

6 – أطلق مصطلح "الهلال الخصيب" على منطقة حوض نهري دجلة والفرات والجزء الساحلي من بلاد الشام.

7 – جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، ط 2 ،1993م، ج 2، ص 11.

8 – سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، من حضارة كريت حتى قيام إمبراطورية الإسكندر الأكبر، دار النهضة العربية، ط2 ، ص 531-532

9 – المرجع السابق، ص 541.

10 – ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة حياة اليونان، ترجمة محمد بدران، دار الجيل ،1988م، ج 3 من المجلد 2، ص 47 .

11 – أيدرس بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، دراسة في انتشار الحضارة الهيلينية واضمحلالها، ترجمة عبداللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية ،1973م، ص51.

12 – أندريه إيمار، تاريخ الحضارات العام، الشرق واليونان القديمة ، ترجمة فريدم داغر وفؤاد أبو ريحان، ط2 ،1986م، ص349

13 – نجيب زبيب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، دار الأمير للثقافة والعلوم، ط 1، 1995 م، ج1، ص 165.164

14 – محمود إبراهيم السعدني، حضارة الرومان منذ نشأتها وحتى نهاية القرن الأول الميلادي. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط 1، 1998م، ص 124.

15 – ألفرد .ج. بتلر ،فتح العرب لمصر ، ترجمة محمدفريد أبو حديد بك، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص 47.

16 – جورج قرم، شرق وغرب الشرخ الأسطوري، دار الساقي، ط1. 2003 م.

17 – جراهام. م .إي هولر وإيان. أو. ليستر، الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة، ترجمة شوقي جلال، مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1996م، ص 26.

18 – عبدالله عبدالمحسن السلطان، البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، 1988م، ص 44 .

19 – المرجع السابق، ص 46.

20 – سيد أحمد علي الناصري، مرجع سابق، ص 52 .

21 – نجيب إبراهيم طراد، تاريخ الرومان، مكتبة ومطبعة الغد، 1997م، ص 157

22 – المرجع السابق، ص 5.

23 – القصة كاملة في الإلياذة، مرجع سابق.



ثقافة المجتمع والسلوك الإبداعي



د. عبدالرحمن بن سليمان النملة

عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام

محمد بن سعود الإسلامية

يشار الآن في الأوساط العلمية المهتمة بدراسة النمو العقلي-المعرفي وبشكل مكثف إلى الدور الرئيسي الذي تلعبه العوامل الاجتماعية-الثقافية في نمو وتشكل العمليات العقلية العليا. هذا الدور يتمثل في أنه لم يعد ينظر إلى ثقافة مجتمع ما على أنها تمثل فقط خلفية أو عاملاً مستقلاً لتفسير الأداء العقلي والسلوكيات المعرفية الأخرى لأفراده في المواقف المختلفة، بل بات ينظر إلى العمل العقلي على أساس أنه سلوك مكتسب، يحدث نتاجًا لسلسلة ممتدة من الممارسات الاجتماعية-الثقافية الضاربة في التاريخ الإنساني لأي مجتمع. هذه الطريقة الاجتماعية-الثقافية Sociocultural Approach المفسرة للنمو العقلي ترى أن هنالك عمليات عقلية دنيا أو أساسية Elementary Mental Processes وعمليات عقلية عليا Higher Mental Processes. فالعمليات العقلية الدنيا مثل التعرف والانتباه التلقائي والذاكرة التلقائية العرضية، وغير ذلك من العمليات والأفعال الانعكاسية ذات الطابع الحسي، ينظر إليها على أنها تمثل الخط الطبيعي أو البيولوجي للنمو Natural Line of Development. وعندما يبدأ الإنسان بممارسة العمل القصدي في الأداء العقلي مثل الانتباه الإرادي والتذكر القائم على توظيف إستراتيجيات مساعدة والتفكير الهادف وإلى غير ذلك من العمليات العقلية العليا، فإن ذلك يمثل الخط الثقافي للنمو Cultural Line of Development .

ويتجلى دور المعطى الثقافي لأي مجتمع في النمو والأداء العقلي لأفراده من خلال استخدام الأدوات الثقافية التي أنتجها المجتمع وتوارثتها الأجيال المتتابعة، وذلك لإضفاء القصدية على العمل العقلي أي لصياغة وتشكيل العمليات العقلية العليا. هذا الطرح يثير نقاطًا متعددة من أهمها مسألتان، الأولى تتصل بأهمية أن تكون الثقافة منتجة وغير مستهلكة، أي منتجة للأدوات الإنسانية المختلفة التي تسهل الحياة مثل التقنية بأنواعها، المسألة الثانية تتصل باللغة بوصفها من أهم الأدوات الثقافية التي يستخدمها الإنسان لنقل الموروث الحضاري من جيل إلى آخر وكذا من ثقافة إلى أخرى. والحديث هنا ليس فقط عن البعد المادي للمنتج الثقافي ولكن أيضًا عن الجانب الفكري لذات المنتج، فمثلاً الفرد في المجتمع المنتج لوسيلة حضارية مثل السيارة سوف يستخدمها وهو مدرك للتاريخ الفكري التطوري لهذا المنتج الثقافي بالإضافة إلى عامل المنفعة، بينما الفرد في المجتمع المستهلك لهذه الوسيلة سوف يستخدمها وهو يعي فقط المنفعة المادية، وليس الأساس الفكري الذي نشأ عنه هذا المنتج الحضاري. إن اختلاف التعاطي مع المقتنى الحضاري نفسه (السيارة) ما بين الثقافة المنتجة والثقافة المستهلكة يفسر وإلى حد كبير السلوكيات المتباينة في القيادة التي نراها عبر المجتمعات المختلفة.

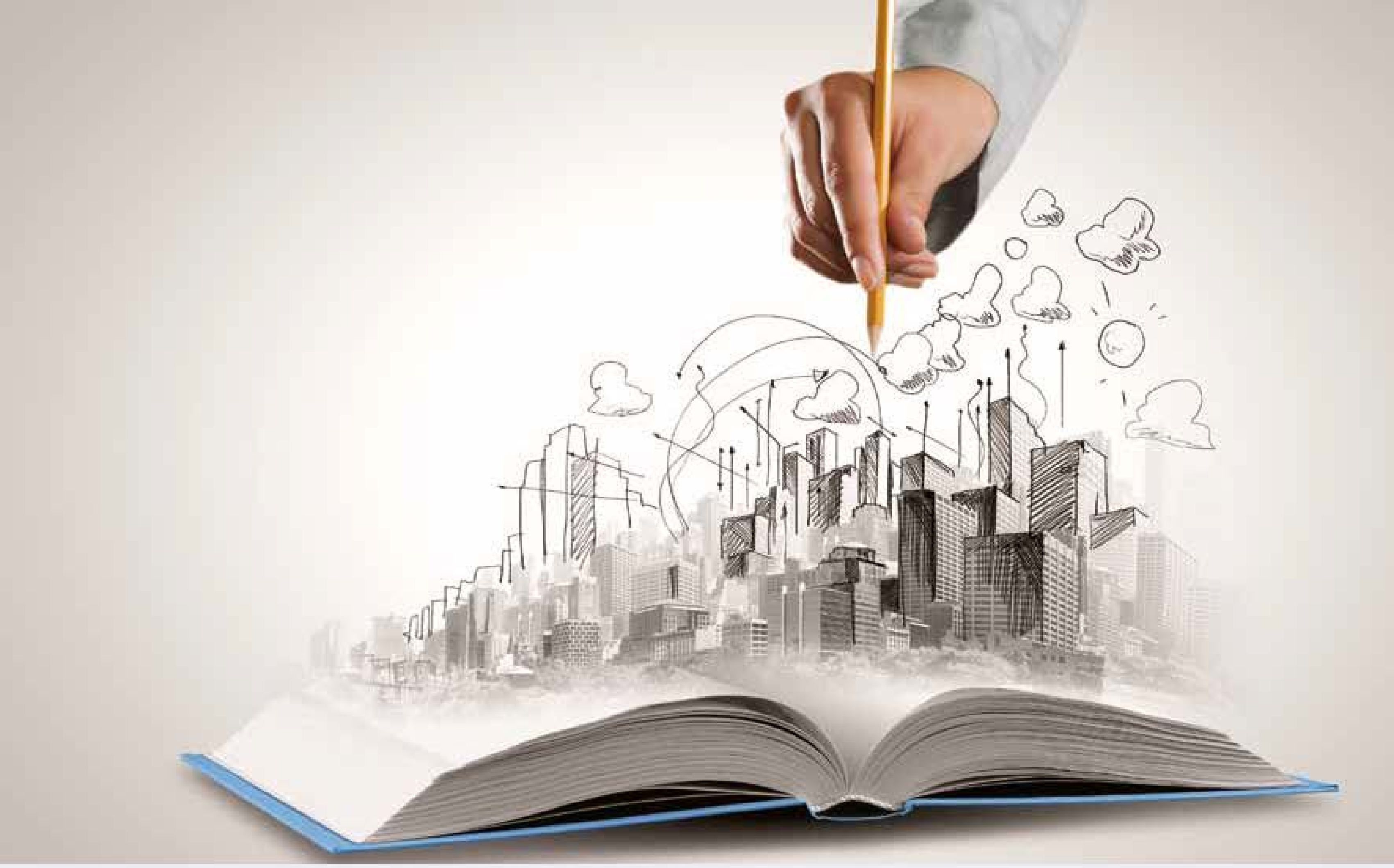
ومن خلال اللغة بوصفها وسيلة اتصال اجتماعي وبأشكالها المختلفة المنطوقة والمكتوبة وكذا لغة الإشارة والرموز يتم تشكيل الأداء العقلي. فخلال النمو العقلي يدرك الطفل أن للغة دورًا آخر هو التواصل مع الذات (التفكير) بعد أن كانت، أي اللغة، تؤدي دورًا للتواصل الاجتماعي فقط، وهذا يشير إلى أهمية اللغة كميكانيزم أو آلية لتأكيد القول بأن العمليات العقلية العليا ذات طبيعة حوارية وأساس اجتماعي، وليس أساسًا عقليًا محضًا. وعلى ذلك يمكن القول: إن الأطفال يكتسبون ثقافة مجتمعهم وبشكل رئيسي من خلال اللغة، ومع الأخذ في الاعتبار الدور النمائي للغة والمتمثل في تشكيل العمل العقلي، فإن مضمون اللغة الذي يقوم على عناصر ثقافة المجتمع هو في النهاية محتوى العمل العقلي.

هذه المقدمة تمثل وبشكل ما تحديدًا للدور النمائي للعوامل الاجتماعية-الثقافية في الأداء العقلي، وعليه يمكن القول: إن اتجاهات أفراد المجتمع نحو أمر ما هي إلا نتاج لسلسلة طويلة من نمو الفرد ونمو المجتمع عبر أجياله. والإبداع مثله مثل أي عمل عقلي آخر يعد نتاجًا لعوامل اجتماعية-ثقافية، سواء من حيث نموه وتشكله أو من حيث الاتجاه نحوه. وبعد اكتشاف الموهوب فإن من أوجه الرعاية التركيز على فحوى الاتجاه نحو الموهبة أو الإبداع سواء من ناحية فكرة المبدع عن نفسه ونظرته للآخرين أو من خلال نظرة المجتمع للإبداع والمبدعين. فإذا كان المجتمع يسعى إلى الاستثمار في المبدعين، ليكونوا روادًا في المجالات التي يختارون التخصص فيها، فإن من أوجه تربيتهم تعويدهم على المسؤولية الاجتماعية وما تتضمنه من معايير أخلاقية سواء ما يتصل بإدراك المبدعين للحدود والضوابط الأخلاقية للاكتشافات العلمية، هذا على اعتبار أن بعض الاكتشافات العلمية قد تكون ذات أبعاد خطرة أو غير مرغوبة عمومًا، ثم ما يتصل بعلاقات المبدعين الاجتماعية مع الآخرين. وبالنسبة لعلاقة المبدع مع الآخرين فإن لها شقين، الأول هو المبدع نفسه، حيث يفترض في هذا المقام أن يسعى المربي إلى تعويد المبدع على التوازن في التعامل مع الآخرين، ذلك أنه من الممكن جدًا أن يعاني المبدع شعورًا بالوحدة ناتجًا عن عدم القدرة على الاتصال السليم سواء بينه وبين أقرانه نظرًا للاختلاف بينه وبينهم في العمر العقلي، أو بينه وبين الكبار الذين يختلفون عنه في مقومات أخرى اجتماعية وعاطفية وعمرية ،،، إلخ حتى وإن اقترب منهم أو ماثلهم في العمر العقلي.

"إن الملاحظ للثقافة السعودية ومدى دعمها للإبداع قد يخرج بانطباعات مختلفة، فمثلا هنالك خصائص ثقافية يشترك فيها المجتمع السعودي مع غيره من المجتمعات الأخرى بالنسبة للنظر إلى الموهبة والإبداع. على سبيل المثال، المبدعون في المجالات الرياضية والفنية وربما الإعلامية يجدون دعمًا في كل المجتمعات البشرية تقريبًا في الوقت الحاضر، والمجتمع السعودي لا يختلف كثيرًا في هذا المقام عن غيره. من جهة أخرى فإن نصيب المبدعين في المجالات العلمية أو الأدبية من الدعم مقارنة بالفئة آنفة الذكر يعد أقل سواء عبر المجتمعات أو في المجتمع السعودي"

هذه الهوة بين المبدع والآخرين قد تقود المبدع إلى الانعزال والبعد عن المجتمع مما يستوجب أن يتم تعويده من قبل الآباء والمربين على اكتساب المهارات الاجتماعية اللازمة للتعامل في المواقف الاجتماعية المختلفة، وكذا العمل على زيادة ثقته بنفسه وقدراته، إلى غير ذلك من أوجه التربية والتدريب التي تنطلق من مفهوم التوازن في العلاقات مع الآخرين لأن الأمر قد لا يكون فقط في شعور المبدع بالعزلة الاجتماعية، إذ من الأوجه السلبية أن يميل المبدع إلى معاملة الآخرين باستعلاء وفوقية وفي كلا الحالتين التوازن مطلوب.

الشق الثاني يتمثل في نظرة المجتمع للمبدع وإذا كنا قد أشرنا إلى أن العمليات العقلية العليا ومنها الإبداع تعد ذات أصول أو جذور اجتماعية فإنه بالضرورة سيتم أخذ الإطار الاجتماعي الذي تتشكل فيه العملية العقلية بعين الاعتبار. وهذا يدعم ما تم طرحه في المقدمة أو بداية الحديث من أنه لا يفترض النظر إلى العوامل الاجتماعية-الثقافية فقط كخلفية نظرية تفسيرية للأداء العقلي بل المفترض النظر إلى العمل العقلي بوصفه جزء من النمو الاجتماعي-الثقافي للمجتمع والفرد. بناءًا على ذلك يتم عادة في الدراسات الثقافية النظر إلى أي نشاط إنساني في مجتمع ما على أنه وحدة اجتماعية-ثقافية قابلة للتحليل، مثال ذلك المواقف التعليمية، والعلاقات الأسرية، والسياسة الإعلامية، وغير ذلك من المواقف التي تنطلق من أبعاد قيمية. فلو أخذنا الموقف التعليمي في المجال التربوي على أساس أنه وحدة للتحليل، فإن التساؤل المطروح هنا هو: هل تم وما زال يتم من خلال الموقف التعليمي في مجتمعنا دعم السلوك الإبداعي



وتقديم تربية إبداعية للجميع، وليس للموهوبين فقط؟ طرح هذا التساؤل قائم على اعتبار أن الموقف التعليمي هو إطار اجتماعي ذو طبيعة تربوية، يفترض أن يكون هدفه تهيئة أرضية للتفكير الإبداعي تفيد ليس فقط في رعاية من تظهر عليهم علائم الإبداع، ولكن في تربية الجميع على دعم الإبداع، إذا كان الموقف التعليمي متضمنًا مثلاً لإستراتيجيات خاصة بتعليم التفكير والتعلم بالاكتشاف والبعد عن التلقين إلى غير ذلك من الأدوات الثقافية المستخدمة في مثل هذا المقام، فإنه سينتج أفرادًا يؤمنون بالإبداع والتفكير المنطقي السليم والآليات الصحيحة والمناسبة لإدارة الحوار حتى وإن لم يكونوا مبدعين هم أنفسهم، بمعنى آخر تم إيجاد أرضية أو إطارًا اجتماعيًا داعمًا للإبداع وناشرًا لثقافة الإبداع، لأن الجيل بأكمله ومن خلال مدة نمو متصلة ومستمرة قد تشرب منظومة قيمية تصب في هذا الاتجاه، والحديث هنا ينسحب على كثير من مؤسسات المجتمع التي تحوي أنشطة إنسانية تعكس ثقافته.

فإذا قلنا إن الإبداع تتم رعايته وبشكل ملموس من خلال المؤسسات الرسمية المعنية بذلك، فإن ما عنيته في الطرح السابق يتصل بأهمية التأسيس والدعم لثقافة الإبداع في المجتمع السعودي، وعكس ذلك أي إذا تم التركيز فقط على رعاية المبدعين دون التأسيس لأرضية أو إطار اجتماعي داعم لثقافة الإبداع، فإن هنالك سلوكيات غير مستحبة سوف تظهر من خلال تعامل المجتمع مع الإبداع والمبدعين، من ذلك مثلاً النظرة السلبية وربما الإقصاء من قبل الآخرين للمبدع، والتي قد تقوده إلى الشعور بالحرج الاجتماعي كونه مبدعًا ومن ثم محاولة قمع أو إخفاء الموهبة سعيا لتحقيق مستوى من المرغوبية الاجتماعية.

إن الملاحظ للثقافة السعودية ومدى دعمها للإبداع قد يخرج بانطباعات مختلفة، فمثلاً هنالك خصائص ثقافية يشترك فيها المجتمع السعودي مع غيره من المجتمعات الأخرى بالنسبة للنظر إلى الموهبة والإبداع، على سبيل المثال، المبدعون في المجالات الرياضية والفنية وربما الإعلامية يجدون دعمًا في كل المجتمعات البشرية تقريبًا في الوقت الحاضر، والمجتمع السعودي لا يختلف كثيرًا في هذا المقام عن غيره، من جهة أخرى فإن نصيب المبدعين في المجالات العلمية أو الأدبية من الدعم مقارنة بالفئة آنفة الذكر يعتبر أقل سواء عبر المجتمعات أو في المجتمع السعودي، لكن الراصد للفوارق الثقافية في دعم الإبداع عبر المجتمعات المختلفة، وإن انطلق من مسألة تساوي المجتمعات في تشجيع الإبداع بنسب متفاوتة تأسيسًا على المجال الذي توجد فيه الموهبة أو الإبداع، فإنه لابد وأن يلاحظ أن هنالك مجتمعات تسعى للاستثمار في الإبداع من خلال التأسيس الراسخ لثقافة إنسانية لا تشجع وتدعم الإبداع فقط بل تنتجه، والشواهد أمامنا ماثلة فالدول المتقدمة تقنيًا انطلقت وتطورت عبر حقب تاريخية طويلة من ممارسات ثقافية تحترم وتدعم النتاج العقلي الإنساني، سواء في المنتج المادي الذي أضفى على الحياة سهولة أو المنتج الأدبي من خلال الرواج الكبير للأعمال الأدبية والمتمثل في نسب التوزيع العالية للكتب والمؤلفات عموما بأقنيتها المختلفة.

إن عدم التأسيس لثقافة إنسانية تنتج وتدعم وتشجع الإبداع قد يجعلنا ننظر إلى الأمور بسطحية ونعتبر أن احتفاليتنا بوجود موهوب في الأسرة أو المدرسة وفخرنا بذلك، وإن كان في الطريق الصحيح، يعد دعمًا للإبداع، ولا يفوتني أن أقول: إن الموضوع أي ثقافة المجتمع والإبداع بحاجة إلى دراسة علمية متعمقة ومتأنية للكشف عن العوامل الداعمة أو المثبطة للإبداع في المجتمع السعودي، وكذا الاستقراء الدقيق للممارسات الثقافية بكل ما تشمله من الناتج الكمي والكيفي للإنسان السعودي في ميادين المعرفة والفن والخلق والقوانين والأنظمة والعادات الاجتماعية وغير ذلك من مقومات الثقافة مع ربط الماضي بالحاضر عبر سلسلة ثنائية اجتماعية-ثقافية، إن عملاً مثل هذا سوف يكون له دور في تسليط الضوء على موقع الثقافة السعودية على خارطة الإبداع الإنساني، وكذا المساعدة على الانطلاق بخطى راسخة نحو التأسيس لثقافة اجتماعية منتجة ومشجعة للإبداع.



قصة قصيرة

محطة ما

أمينة الزّاوي

تونس

محطة القطار مثل جسد منهك جاثم على قارعة الوقت. تتعاقب الأحداث بسرعة. يسطع الضوء ثمّ يموت تدريجيًّا بتواتر. تتسارع الحركات. يعلو الضجيج فجأة ثم سرعان ما يخمد مع بداية كلّ رحلة جديدة .

الحياة تشبه محطة القطار كثيرًا.

كنت وحيدًا في إحدى المحطات الغربية. ربما لم أعد أذكر تحديدًا سبب وجودي هناك. سوف أعود إذن للحديث عن القطارات مجددًا. القطارات تحمل في جوفها الكثير من الحكايات، تعلن بدايات جديدة، وقد تكون سبيل الهروب في بعض النهايات أحيانًا ..

تلك المحطة لم تكن مهجورة كما قد يظن البعض. الوقت بعيد الفجر. ضوء خافت يصلبه عمود الكهرباء على الرصيف المبلل برذاذ المطر. لابدّ أن غيمة ما مرّت من هنا.

كنت أنفض رماد آخر سيجارة تبقت بحوزتي عن معطفي البالي حين ابتسمت لي فتاة. لم تكن تبدو جميلة تمامًا. مراهقة ترتدي ملابس رياضية. نثرت على وجهها بثور مثيرة للاشمئزاز. تعتمر قبعة صوفية سوداء، تسلل البعض من شعرها الطويل الأشعث خارجها أطرافه المبللة، وبقايا الكحل المنساب حول حدقتيها، أكدت لي مرور تلك الغيمة الماطرة منذ حين. أحمر الشفاه الفاقع اللون الذي كانت تضعه كان يبدو شاذًا عن المشهد. كانت تسند ظهرها على الحائط. جسدها المكتنز محشور في معطف أخضر. أنا لا أحبّ غريبي الأطوار هواة الموسيقى الصاخبة ومتتبعي الموضة الصارخة. عبثًا حدجتها بنظرات حادة علّها تتوقف عن إرسال تلك الابتسامات الكريهة ونظرات الغزل المشفرة. لا شكّ أنها لم تكن البلهاء الوحيدة ضمن جميع المسافرين، الذين ينتظرون القطار في تلك الساعة، فلا ريب أن فتاة سوية المدارك لم تكن لتعجب برجل شاحب الحضور مثلي.

فجأة، رأيت شجرة وارفة أينعت على حافة الطريق .. تفرعت أغصانها حتى تداخل بعضها والتصقت بسور المحطة. بينما أطل غصن ما من الشباك ليحتل بذلك حيزًا من قاعة الانتظار.. لا بد أنّ مشغلي السابق كان ليقبل متثاقلاً ببطنه المنتفخ ووجهه المتجهم، ليجتهد بدوره في تشذيب ذلك الغصن وطرده. ما زال صدى صوته يتردد على مسامعي، وهو يردد جملاً طويلة مسترسلة من الكلام البذيء .. كان لا بد أن يتخلص منه بسرعة، مثلما قام بطردي من تلك المجلة المغمورة. منعني من مواصلة تحرير ركن "نوافذ على المجتمع"، لأنه لم يكن يريد أن تتسلل أفكار أمثالي من المجانين حسب تعبيره إلى شبابيك النقاد، لتقوم الرقابة بدورها بتهديده بإيقاف عمل المجلة .. مازلت أذكر جيدًا أنه طردني دون أن يمكنني من مستحقاتي فقط، لأنني تحدثت بإسهاب في مقالي الأخير عن إفرازات الثورة، وما نتج عنها من ظواهر اجتماعية دفينة طفحت على السطح، حتى ظنني ذلك المعتوه خطرًا محدقًا عبثًا حاول الحدّ منه، حتى تيقن أخيرًا أن عليه اجتثاث الجذور حين لا يجدي التقليم ..

احتل تفكيري حوار باطني مقيت.

فجأة، تسارعت حركات المسافرين. تفاقم صخبهم. أقبل القطار. رأيت صاحبة المعطف الأخضر يساعدها شاب ما، سرعان ما تبين لي أنه كان يقف خلفي، في حمل حقائبها الثقيلة. سوف تحظى برفقته طيلة ساعات الرحلة الطويلة.

لابدّ أنني سأفرح قريبًا، هذا ما فكرت فيه حين تذكرت ما قالته لي بائعة العلكة العجوز، وهي تدعو لي حين اشتريت الكثير من بضاعتها بما تبقى في حوزتي من مال فابتسمت ..

كان لا بد أن أحاسب نفسي. يجب ألاّ أضيع تذكرة القطار مجددًا، ثمّ أوهم نفسي في كلّ مرة أنه قد يذهب إلى وجهة لا أريدها.. صوت صافرة القطار يبتعد ببطء. يبتلعه الأفق البعيد. يمضي إلى وجهة لا أعلمها. لوحت بيدي عاليًا. ودعت ركابه بابتسامة مبهمة. مضيت أجر حقيبتي الصغيرة وجسدي الثقيل كتمثال حجري. دلفت إلى قاعة الاستقبال، ثمّ جلست بهدوء على أحد المقاعد الشاغرة لم يكن هناك مسافرون لأراقب حركاتهم وأصغي لصخب الأصوات التي يحدثونها.



معادلة شارل بودلير

د. بدر الدين مصطفى

أستاذ علم الجمال- آداب جامعة القاهرة

في أوائل الستينيات من القرن العشرين، نشر ليونارد ماير L.Mayer دراسته الشهيرة "نهاية عصر النهضة" التي قال: فيها إن مفهومًا جديدًا للجمال يولد آنئذ، هذا المفهوم يتنكر لمبدأ الغائية، ويكرس فنًّا لا يهدف إلى شيء. وفي علم الجمال الجديد، حسب ماير، لم يعد الإنسان هو المعيار الذي تقاس به الأشياء والموجودات، لأنه ببساطة لم يعد مركز الكون، كما ذهب فلاسفة الحداثة، ولهذا فإن علينا أن نستعيد إحساسنا بالأشياء من خلال إعادة اكتشاف الواقع والإنصات الجيد للحياة. الاستمتاع بالصوت كما هو، واللون كما هو، والوجود والموجودات كما هي. وبشّر بولادة فن ديموقراطي جديد بوسعه أن يذيب الجدر الغليظة بين الثقافة العليا high culture وثقافة الجماهير mass culture، وبوسعه تفكيك الاستعلائية النخبوية للحداثة. وفي السياق نفسه أيضًا يقول رايموند ويليامز R. Williams "في أواخر القرن العشرين، كان من الضروري للمرء أن يلحظ مدى بعد الشقة بيننا وبين أهم حقب الفن الحديث.

ما يدعو إليه ماير- وآخرون- هنا يشير إلى تغير كلي في مفهوم الفن وفي تصور الجمال، تغير تجسده عبارة بيوز Beuys "إن مجرد إزالة قشرة البطاطس يمكن أن يكون عملاً فنيًّا لو اتسم بالوعي". كيف حدث هذا التحول؟ وما هي طبيعته وأسبابه؟

وفقًا لمؤرخي الفن ثمة تحولان رئيسيان مرّ بهما الفن خلال المرحلة الحديثة. الأول، الانتقال من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، في حين تمثل الثاني في الانتقال من مرحلة الفن الحديث إلى ما بعد الحديث. سنسعى في هذا المقال إلى تسليط الضوء على طبيعة التحول في المرحلة الأولى وأسبابه، في حين نخصص مقالتنا في العدد القادم لمناقشة المرحلة الثانية.

الفن في العصر الوسيط

كان الفن في العصور الوسطى جزءًا لا يتجزأ من كل يحتويه. فكان تعبيرًا عن الروح الدينية التي كانت تهيمن على هذا العصر. وتظهر تجليات هذه الروح في كل نواحي الحياة، في السياسة والعلم والفلسفة... إلخ. لذا فإن الفن آنذاك كان فنًّا دينيًّا art sacré. ولم يكن العمل الفني عملاً بالمعنى المفهوم، بل كان حرفة أكثر منه أي شيء آخر، ولم يكن أسلوب الإنتاج فرديًّا، فلم يكن الفنان ينظر إلى نفسه بوصفها ذاتًا مستقلة مبدعة، بل جزءًا من فريق يهدف لإتمام سقف كنيسة ما أو لوحة جدارية أو ترنيمة كنسية. وكما كان أسلوب الإنتاج يغلب عليه الطابع الجماعي، كان أسلوب التلقي أيضًا يتم بصورة جماعية، فمشاهدو هذا الفن أو مستمعوه كانوا مجموعة من رواد الكنيسة الذين يستهدفونها لأداء صلواتهم. أما الأدب والمسرح فلم يختلفا كثيرًا عن باقي الفنون، فكانت المسرحيات ذات الصبغة الوعظية morality plays، وتلك التي تقوم على فكرتي "اللغز" و"السر" mystery plays-، والتي تستمد جوهرها من حكايات من الكتاب المقدس- هي المنتشرة آنذاك، أما الشعر فقد كان يستمد موضوعاته كذلك من التراث نفسه ويظهر ذلك في ملحمة حكايات كانتربري Canterbury Tales للشاعر الإنجليزي جيفري شوسر Geoffrey Chaucer (1343 . 1400)، وبعض الأشعار الأخرى الأقل أهمية لشعراء آخرين. ومن هذا الفن، انبثق نوع آخر. وهو فن البلاط الملكي courtly art. وقد استبدل هذا الفن موضوعات أخرى بالموضوعات الدينية، وهي تمثل حياة البلاط الملكي وعظمة الأمير أو الملك وحياة الحاشية المحيطة به. تحول الفن إلى جزء من حياة الطبقة الارستقراطية ورواد البلاط الملكي. وعلى الرغم من أن الفن- برغم تغير موضوعاته- ظل مرتبطًا بمفهوم الوظيفة، إلا أن هذه النقلة في طبيعة الموضوعات المتمثلة، انعكست على رؤية الفنان لذاته، إذ لم يعد الفنان "حرفيًّا" يؤدي وظيفة" بل أصبح "فنانًا" يتصف بصفة الإبداع. وقد ظهر هذا التغير بقوة مع مايكل أنجلو (1475-1564) Michael Angelo. الذي على الرغم من أن نحوتاته ظلت مخلصة للموضوعات الدينية المستمدة من قصص الكتاب المقدس، إلا أن وعيه الذاتي بكونه فنانًا، قد تجسد عبر توقيعه على أعماله. مما يعني أن إحساس الفنان بذاته، وبقيمة ما يقدمه، قد بدأ بالفعل في التغير.

إرهاصات التحول

سرعان ما بدأت مكانة الإنسان "الفرد" في الرسوخ مع عصر النهضة، الذي يعد بحق عصر النزعة الإنسية، والعودة لكل ثقافة مركزها الإنسان. فلقد شيد الفن في عصر النهضة ذاته على فكرة العودة للماضي اليوناني والروماني، في محاولة لإبطال مفعول التوجهات الدينية لكل مناحي الحياة، والبحث عن مصدر أكثر ثراء لحياة الإنسان، ولكنه في عودته تلك كانت عينه على المستقبل الذي يصير فيه الإنسان مركز العالم وبؤرته. وعلى الرغم من بقاء الموضوعات الدينية في برنامج الأعمال الفنية (أعمال Bach يوهن باخ (1685 - 1750)، على سبيل المثال)، إلا أنه بدأ مع عصر النهضة النزوع للخروج إلى تصوير الطبيعة واتخاذها موضوعًا للفن، وكذلك العمل على معالجة الموضوعات الحياتية الأخرى. ولم يكن هذا التحول ممكنًا، إلا من خلال الافتراض المسبق بأنه من وراء الذات والموضوع تقبع مجموعة من القوانين العامة لنظام كوني راسخ، والصالحة بشكل غير مشروط، حين تستقي منها كل قاعدة فنية، ومن ثم يُعدُّ يعتبر فهم هذه القواعد والشروط والقوانين من صلب النظرية الفنية في عصر النهضة. وقد كان النزوع نحو الدراسة المتأنية للطبيعة، بوصفها مقدمة ضرورية لتحقيق الصدق الفني؛ أن يعطي المشروعية لفناني هذا العصر بحيث يصير إبداعهم مؤسسًا على الدراسة والعلم، إلى جانب الملكة الإبداعية والخيال الحر المبدع، حتى لا يصير الفن مجرد صيغة أو حرفة، يمكن لأي أحد أن يمتهنها، أو مجرد نتاج لشطحات ميتافيزيقية لا يمكن الوقوف فيها على محددات تمكننا من فهم الفن على نحو إنساني محض.

ومع ظهور كتاب ألكسندر بومجارتن A.G.Baumgarten "في لاستطيقا" Ästhetik في منتصف القرن الثامن عشر، ستبدأ الجماليات تخطو خطواتها الأولى نحو الاستقلال. وحين استبدل جان جاك روسو Rousseau "أنا أشعر" Je me sens بـ"أنا أفكر"، فهو "إنما يؤشر إلى تحول حاسم من إستراتيجية عقلانية خالصة إلى استراتيجية جمالية أكثر وعيًا في تحقيق أهداف التنوير". وفي الفترة نفسها تقريبًا (1790) كان كانط Kant يعرف بدقة الحكم الجمالي، ويميزه بوضوح عن الحكم العقلي والحكم العملي، ويجعله جسرًا ضروريًا، وإن بدا إشكاليًّا، بين الاثنين. كان اكتشاف الجماليات كحقل معرفي متميز منفصل هو الإنجاز الأكبر للقرن الثامن عشر. وإذا أضفنا إلى ذلك تنامي "الذاتية" و"الفردية"، والتطورات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية التي كانت تتصاعد وتيرتها على شكل طفرات، فإن آثار هذا كله مجتمعًا قد

"كان الفن في العصور الوسطى جزءًا لا يتجزأ من كل يحتويه. فكان تعبيرًا عن الروح الدينية التي كانت تهيمن على هذا العصر. وتظهر تجليات هذه الروح في كل نواحي الحياة، في السياسة والعلم والفلسفة... إلخ. لذا فإن الفن آنذاك كان فنًّا دينيًّا art sacré. ولم يكن العمل الفني عملاً بالمعنى المفهوم، بل كان حرفة أكثر منه أي شيء آخر، ولم يكن أسلوب الإنتاج فردي"

أحدث تغيرات عديدة على مفهوم الفن، وعلى الممارسة الفنية، وعلى تصور الفنان لذاته ولفنه.

الفن = الخالد

نستطيع أن نرقب هذه التحولات في تعريف بودلير C. Baudelaire للحداثة في مقالته المهمة "رسام الحياة الحديثة" Le Peintre de la vie moderne الصادرة عام 1863 يقول: "إن الحداثة هي المؤقت، وسريع الزوال، والجائز، هي نصف الفن، بينما الأبدي والثابت هو النصف الآخر". فالفن وفقًا لبودلير هو استخلاص السرمدي من العابر والزائل. هذا الزائل أو العابر لا يمكن للفنان أن يتجاوزه "هذا العنصر العابر والمنفلت، والذي تكون تحولاته جد متواترة. ليس من حقك ازدراؤه أو الاستغناء عنه. إنك بإلغائه ستسقط لا محالة في تجريد جمالي، مستعصى عن التحديد.. كجمال المرأة الوحيدة قبل الخطيئة الأولى". ومثلما كان بودلير سريعًا في رؤية ما إذا كان الدفق والتغيير، والتشتت والتشظي، قد شكلا القاعدة المادية للحياة الحديثة، فإن تعريفه السابق للفن الحداثي قد استند أيضًا، وعلى نحو حاسم، إلى موقع الفنان في هذه العملية. ففي وسع الفنان الفرد تحدي الصيرورة تلك، أو التعايش معها، أن يحاول السيطرة عليها، أو السباحة في مياهها، إلا أنه لا يستطيع، في كل الأحوال، تجاهلها. وإذا عدنا إلى صياغة بودلير، فإننا نجده يعرض الفنان كشخص قادر على تركيز رؤيته على الموضوعات العادية للحياة المعاصرة، وعلى فهم خصائصها المتغيرة، ويستطيع مع ذلك أن يستخرج من اللحظة العابرة كل عناصر الخلود الكامنة فيها. كان الفنان الحداثي الناضج، وفقًا لبودلير، هو ذلك الذي يستطيع العثور على الكلي الدائم، وأن "يقطر طعم خمر الحياة المر" من "أشكال الجمال العابر والزائل في حياتنا اليومية". وبمقدار ما ينجح الفن الحداثي في ذلك، فهو يصبح فنًا لنا، إذ إنه وبدقة "الفن الذي يستجيب لسيناريو فوضانا".

إن الحداثة في نظر بودلير -ووفقًا لهابرماس- تستهدف الاعتراف باللحظة الانتقالية كماض أصيل لحاضر سيأتي. لذا يأخذ بودلير على فناني عصره حنينهم الدائم للماضي دون الالتفات لما هو راهن "إننا إذا ألقينا نظرة سريعة على ما نشاهده في معارضنا من لوحات حديثة، فإن ما سوف يصدمنا هو نزعة الفنانين العامة إلى إلباس جميع الشخوص ثيابًا قديمة".

كانت المواجهة بين الخالد والعابر حاضرة في كل النقاشات، التي تدور حول الموقف من الحداثة. وتبدو حالة بودلير هنا نابعة من موقف يسعى للدفاع أكثر عن استقلالية الجمالي وعدم تبعيته"، وهو موقف نابع في الأساس من كانط. التبعية التي نعنيها هنا، كانت نابعة من داخل تلك النزعات التي كانت حاضرة بقوة على الساحة الفنية في القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن الـ19، أهمها النزعة الرومانسية، التي رأت في العودة إلى الماضي أو تمثيل الطبيعة موضوعات شائقة للأعمال الفنية. كما كانت نابعة أيضًا من اتجاهات ترى أن للفن وظيفة تتجاوز إنتاجه الجمالي، وقد ذهب ماثيو أرنولد (1822 ـ 1888) Matthew Arnold إلى "أن الفن في العصر الحديث يمكن أن يشغل المكانة التي كان الدين يشغلها في العصور الوسطى، لذا فهو منوط به وظيفة توفير رؤية كلية للحياة الإنسانية، توضح موقف الإنسان في الحياة، وترسم له صورة ذاتية، وتضفي الطابع النظامي على العالم والتجربة الإنسانية". ومن المنطلق نفسه يقول T. S. Eliot ت. س إليوت (1888-1965) "كان الناقد يتعامل مع الأدب دائمًا على أنه وسيلة لاستخلاص الحقيقة أو اكتساب المعرفة، وإذا ما كان الناقد يتمتع بعقلية فلسفية أو دينية، فسوف يبحث عن تلك اللمحات الفلسفية أو الدينية في أعمال الكاتب الذي ينتقده". في مقابل ذلك يدعو بودلير إلى تخلي الفن عن أي وضع متعال، أي يرفض كل وضع يخرج به من حيز إنتاج الجمال إلى أي مسئولية فلسفية أو أخلاقية. ولذا فالفن لن يضطلع سوى بوظيفته الداخلية immanent- ألا وهي إنتاج الجمال- وهذا سوف يؤدى بالضرورة إلى فرض معايير جديدة للحكم على الفن، وهذه المعايير سوف تكون معايير داخلية (استطيقية)، لا علاقة لها بالأخلاق أو بوضع الفن في المجتمع.

ذلك الوضع الملتبس موضوعيًا هو ما يتيح فهم الحداثة التي انتهى إليها بودلير: محاولة تحويل اليومي (الزائل) إلى الرمزي (الخالد). ومن خلال ذلك العمل على تعميم التجريد في بقية أشكال التعبير (الرسم، النحت، الموسيقى،...)، ورفض النزعة الواقعية التي يصفها بودلير "إنها إهانة مقززة ألقيت في وجه كل المحللين، إنها كلمة غامضة وزئبقية لا تعني بالنسبة للإنسان وصفًا دقيقًا للأمور".

لا أنسنة الفن

في هذا الطريق الممهد لاغتراب الإنسان والطبيعة عن الفن، سار الشاعر ت.س.إليوت. لقد أكد إليوت على "أن القصيدة لا تقول شيئًا ما وإنما هي الشيء نفسه"، وهو يتتبع تطور الشعر، واستقبال القراء للشعر، على أنه تطور مستمر نحو زيادة إدراك القارئ بالرمز. وهذه المرحلة من التقدم هي ما يعده إليوت الحداثة التي بلغها الشعراء الرمزيون الفرنسيون من بودلير إلى فاليرى Valéry مرورًا بمالارميه Mallarmé. فالحداثة هنا تتميز بالاهتمام بالرمز، في مقابل الاهتمام الأقل بالموضوع الذي يصبح مجرد وسيلة لنقل الهدف أو بلوغه، والهدف بالطبع الجمال في حد ذاته. وهذا هو ما يطلق عليه كل من إليوت والفيلسوف الأسبانى Ortega Y Gasset أورتيجا إي جاسيت (1883-1955) "الشعر النقي" poesía pura، أو الفن الخالص arte puro. فإذا كان الجمال جوهر الفن، وإذا ما كان الشكل هو مصدر الجمال، فسيهتم الفن الحداثي بالشكل اهتمامًا تامًا ويحاول تنقيته من الموضوع الذي صار دخيلاً عليه لأنه ليس مصدر الجمال. وهذا هو جوهر الحداثة الذي يميزه جاسيت في موسيقى ديبوس Dubosc ولوحات بيكاسو Picasso وشعر مالارميه وفاليرى Valery "هناك بلا شك توجه نحو تنقية الفن، وهذا التوجه سوف يؤدى إلى عملية محو متزايدة للعناصر الآدمية السائدة في النتاج الفني الرومانسي والطبيعي naturalistic. وفي هذه العملية، يمكن الوصول إلى نقطة يصبح "المضمون" الإنساني ضئيلاً جدًا لدرجة يمكن تجاهلها".

ما يقصده جاست "بلا أنسنة الفن" La Deshumanización del Arte هو محو أي أثر لفكرة تقديم أو تمثيل الحياة representation . فالفن ليس محاكاة mimesis ولا تقديمًا للحياة، وإنما هو نتاج عقلي يهدف إلى الإمتاع. وإذا ما كان الجمال عنصرًا ذاتيًا وشكليًا، لا موضوعيًا، أي لا علاقة له بالموضوع، يتحول اهتمام الفن الحداثي عن المحاكاة التي تهتم بموضوع الفن، لا شكله، إلى الاهتمام بالشكل الخالص، أي يتحول الفن الحداثي إلى رفض صريح وقاطع للواقعية.

نستطيع هنا أن نستنتج أن تنامي الاتجاه الرمزي والشكلي في هذه المدة قد أدى إلى صعوبة لغة الفن وعدم قدرة الكثيرين على فهمه، لذا أصبح الفن الحداثي فنًا لا يتميز بالشعبية، بل تحول إلى فن الصفوة Lélitisme وهي القلة القليلة المختارة التي لديها الثقافة الكافية، والوعي بتاريخ الفن وتطوره.

وإذا عدنا إلى تحديد بودلير من جديد للفن الحداثي بأنه "التقاط الثابت من المتحول" فإننا نلاحظ أن الفن الحداثي لم يتخل عن البحث عن الثبات أبدًا. يتضح هذا من تحليل الأعمال الشهيرة التي صدرت آنذاك، فإذا ما كانت "الأرض الخراب" The Waste Land نموذجًا للتشظي، نجد إليوت يعلق على عناصر الوحدة في القصيدة قائلاً: إن كل الرجال هم رجل واحد، وكذلك كل النساء، وكل الرجال والنساء يلتقون في شخصية تيريلياس الذي يمثل الراوي، والمتحدث السائد في القصيدة، والممثل لوحدة الخبرة الإنسانية. أما بروست Proust "فهو يستجمع ما لا يمكن تصويره من خلال لغة لا تتبدل في نحوها وألفاظها، ومن خلال كتابة لا تزال تنتمى في معظمها إلى جنس السرد الروائي". وإذا ما كانت رواية "اوليسيس" Ulysses لجويس Joyce تصور الشتات والفوضى المعاصرة، فإن الفن يضفي شكلاً أو نوعًا ما من أشكال النظام على هذه الحياة، وهذا ما يقوم به الشكل الأسطوري للرواية.

بين ظلين ومنفى

حكمت العاصي

سوريا

(1)

بينَ ظلّينِ ومنفى
أختارُ لنفسي خيمةَ لاجئٍ
وأنسى شكلَ روحي ..
مُبلّلٌ بالوجعِ .. أنا
لا أرضَ أسكنُها – يا أبي –
إلا وتمطرُها العواصفُ بالدموعِ
أجلسُ على صخرةِ الأحداثِ
عندَ كلِّ موت
أراقبُ الحربَ من بعيد
أصبغُ أفكاريَ الثوريةَ بالحياد
وأنسجُ لجرحي العميقِ شالاً
.. شالاً لأمي
أمي التي تحاكي بخوفِها هذا الوطن ..

(2)

بينَ ظلّينِ ومنفى
رفاقُ السلاحِ يكسرونَ إيقاعَ النحيبِ
بالرصاص
ويرقصونَ على إيقاعِ الكمنجا –
الفاجعة
يرقصونَ بانتباه ..
أمْ تنازعَ بينَ لونينِ على النقيضِ
الأسودُ
إلهُ الحزنِ
ربيبُ ذاتِ الدمعِ
يعربدُ في طقوسِ الجنازةِ .. ماجنًا
وينتشي ..
والأبيضُ رديفُ عرسِنا المفقود
يذرُّ نتفَ الثلجِ
على طولِ المسافةِ بينَ صرختينِ ..
بينَ صيحةِ الميلادِ الأولى
وآخرِ خيطِ أحكمَ نسجَ الكفن ..

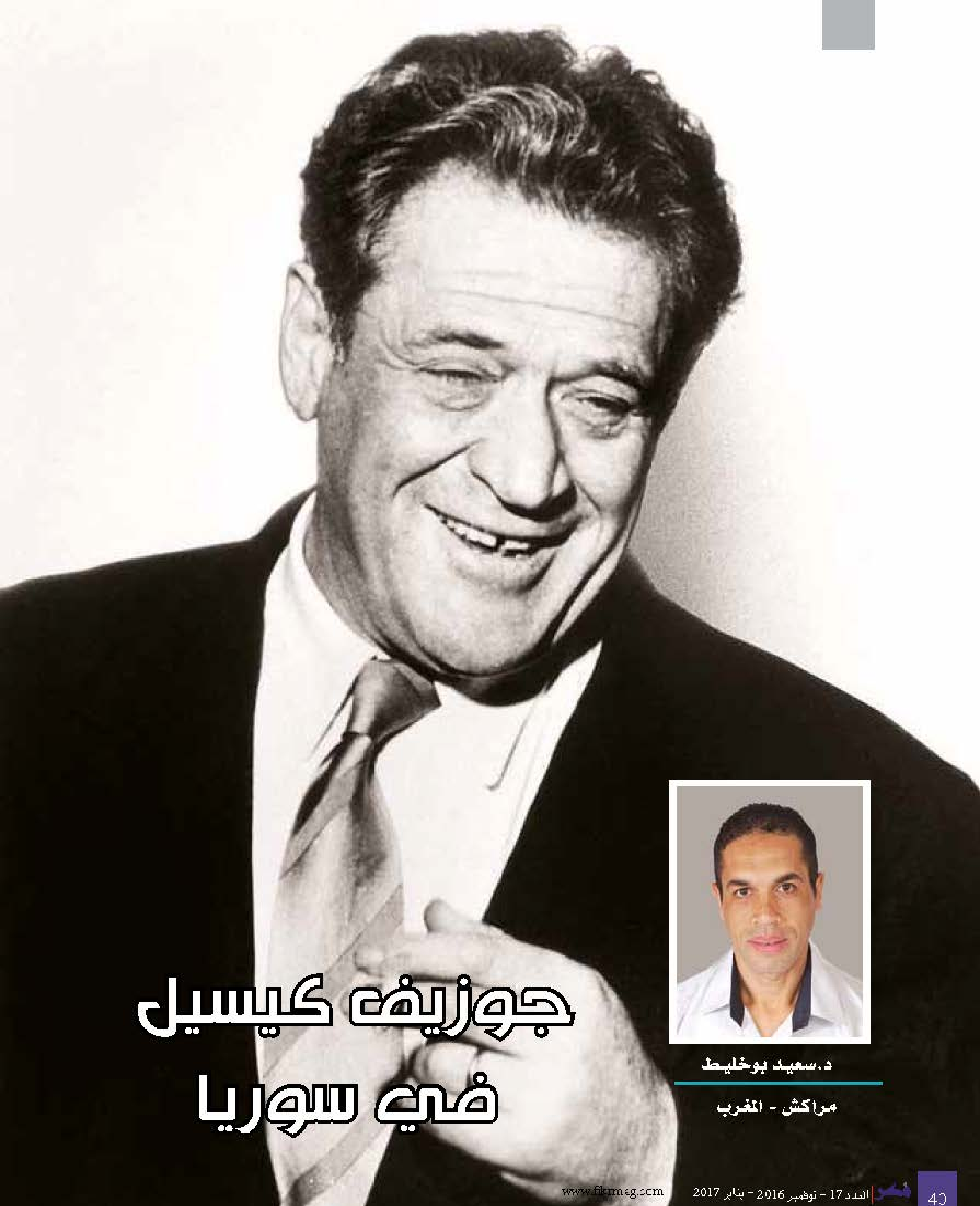
(3)

بينَ ظلّينِ ومنفى
يمضي السوريُّ إلى حتفِهِ بكبرياء

وكأيِّ مدعوٍ إلى كرنفال
يصافحُ العطرَ .. ويمضي
نحنُ
نحنُ لا نشبهُ الموتى الآخرين
نموتُ جماعاتٍ لنحيا
ويموتونَ فرادى وهم على قيدِ الحياة
لم نعدْ نهابُ الموتَ .. أكيد
نزعنا عنهُ أشواكَ رهبتِهِ
ومتْنا ضاحكين ..
يا موتُ
أيها الماردُ الجبّار
ساذجٌ فينا من يسلِّمُكَ زمامَ عمرِهِ
ألا ترانا نموتُ كالجبالِ شامخين

(4)

بينَ ظلّينِ ومنفى
وحدنا ..
" نموتُ – كالأشجارِ – واقفين "



جوزيف كيسيل في سوريا

د.سعيد بوخليط

مراكش - المغرب

جوزيف كيسيل J. Kessel، الكاتب الفرنسي المزداد في الأرجنتين. هو الواحد المتعدد، ثم المتعدد الذي وجد ضالته في الواحد: الروائي طبعًا، الرحالة، المغامر، الصحافي، الطيار، الذي شارك إلى جانب السلاح الجوي خلال الحرب العالمية الثانية، ثم المتخصص في الريبورتاجات.

أغنى التراث الإنساني، بمنجز فكري هائل، قارب سبعين رواية، إضافة إلى دراسات مختلفة تهم مجالات إبداعية متعددة. مع كل ذلك، لازال حتى الآن، فقط عنوان رئيسي أشار ويحيل باستمرار على كيسيل، مقارنة مع باقي كتاباته.

يتعلق الأمر بروايته "الأسد" (1958) التي دارت أحداثها في منتزه ملكي بكينيا، وتروي تفاصيل علاقة جد مدهشة تتجاوز حدود التصور، بين باتريسيا الفتاة الصغيرة ذات العشر سنوات، وأسد. إذن، كلما ذكر اسم جوزيف كيسيل، اتجه التفكير مباشرة نحو تلك الرواية.

بين ثنايا بيبليوغرافيا زاخرة ومستفيضة، يندرج كتيب صغير، ربما لم يكن ليثير اهتمامي حقًّا، لولا انبجاس التراجيدية السورية. نص: في سوريا، الذي كتبه كيسيل سنة 1927، موثقًا من خلال فصوله العشرة وقائع ما عاشه في أثناء رحلته لسوريا. غير أنه عمل، تجاوز مستوى الانطباعات والارتسامات الشخصية، المنقادة وراء التقاط محايد لمتواليات رحلة عادية، مرتقيًا حقيقة غاية التقييم الموضوعي الحاذق لجوانب من سياق المرحلة، المعروفة تاريخيًّا بالانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان (1920–1946)، وما انطوى عليه من منزلقات سياسية وجغرافية وثقافية وإثنية وعسكرية، استمرت وامتدت تراكماتها البنيوية حتى الزمن الراهن.

ومن ثم، يعتبر ما يحدث اليوم في سوريا مجرد نتيجة طبيعية، من نواحي كثيرة، لما أرسته صياغات المرحلة التي يؤرخ لها كتاب كيسيل.

بالتأكيد، كما أقرت مختلف اجتهادات المؤرخين، يصعب عمومًا استيعاب الحاضر دون إحاطة بالماضي ،فالمآلات الجنائزية التي يهرول نحوها العالم العربي، سياسيًّا وثقافيًّا ومعه سوريا، تعود بأصولها إلى جرائم المنظومة الاستعمارية في حق عقل وجسد وروح وشعور وطموح شعوب المنطقة.

غير أن ما جسّد بامتياز هذه المعادلة في التحقيق الصحفي ل كيسيل عن سوريا، الذي يعود كما قلت إلى سنة1926 ، وأضفى على خلاصاته سمة كهنوتية تخمينية جعلت فقرات عمله أقرب إلى إشراقات العرافين والمتنبئين، كونه استحضر منذئذ رؤى ألغت تقريبًا كل هذه المسافة الزمانية الممتدة إلى تسعة عقود، وبدا الراهن كالأمس تمامًا. المشهد العام نفسه، ثابت لم يتبدل، فقط تغيرت التفاصيل الصغيرة. تفسير هذه المسألة في غاية البساطة: مبدع بحجم كيسيل، يمتلك ما يكفي من الذكاء والعمق والموسوعية والبصيرة والخبرة الحياتية والحس الإنساني، لا يمكنه حتمًا سوى أن يكون صاحب حدس مبشر ونذير.

لكن خاصة دافع العشق، والتعلق الحميمي بالموضوع، يجعل الأفكار شفافة وصادقة .كيسيل عاشق لجغرافية مكان رحلته، أي الشرق. شرق، تحسس سلفًا أولى عطوره وهو طفل في سن الثامنة على ضفاف الأورال، مترقبًا بشغف عبور قوافل بخارى وفارس، يقودها القيرغيزيون: «أعشق الشرق، هو ليس بعذري الوحيد للرغبة في التكلم عنه، لأني لا أعرفه جيدًا.إننا لا نذهب إليه، وينبغي أن يأتي إليكم، مهما يقتضي وقتًا. والحال، أني قضيت خلال مرتين، ما بين ثلاث إلى أربعة أسابيع، في سوريا. هذا، كل شيء.ثم، ابتغيت أن أعيش التجربة بصفتي صحافيًّا، بمعنى قضاء أغلب يومياتي مع جنرالات وموظفين كبار» (ص– 10).

لقاءات هنا وهناك، أثمرت بورتريهات رصدها كيسيل، بدقة محترف الكتابة، القابض على زمام الحلقة المفقودة، الفالتة بين الواقع والخيال، بمعنى ثان، التأرجح بين البعد التقريري للغة الصحافة ثم الحس الفني المحلق لأفق الروائي، الأكثر تكثيفًا وزخمًا ورحابةً.

سنقف على وجهات نظر، ونتابع بعضًا من يوميات شخصية عسكرية ومدنية، تصنع الحدث في المنطقة: الأمير عبد المجيد، القسّ، القائد كولي الصغير، بوشيد، لابان، القائد موليز، مزود، دحّام، الدروز، الشركس. مثلما، أننا سنكتشف منذئذ، الأمكنة التي تدمن حاليًا فواجعها كل حين، حد الهستيريا: دمشق، درعة، السويداء، حلب، دير الزور، تدمر.

سوريا جغرافية في غاية الجمال والثراء والعطاء، منبع الحضارات. لكن أيضا بنية طائفية وإثنية معقدة، تَعكّر صفوها زيادة، واستفحل أمرها، بسبب مساوئ إدارة الانتداب الفرنسي وتبعاته، فأضحت جحيمًا للنعرات عوض أن تكون رحمة للاختلاف. جعلها لبنة للحرب الدموية التي تدور رحاها اليوم.

يقول كيسيل: «سوريا، مهد الحضارات ومكان العبور المختار منذ الأزل، أثر ثراءها وجمالها، دون تدخل، في كثير من الشعوب. هذه الأرض، حيث تنمو بقوة ملتهبة، الاعتقادات الأولى، وكذا الهرطقة، التي تضلل وتخلط. أعترف بتواضع، أني لم أستوعب خلال أولى أيام إقامتي في بيروت، شيئًا بخصوص ما يتداول أمامي من أحاديث. العلويون، الهاشميون، الموارنة، السنة، الشيعة، اليونان الأرثوذوكسيون، الطائفة السورية–الفلسطينية، قطاع الطرق، المتمردون وكذا دروز الجبل ودروز حوران، اللبنانيون والسوريون والدمشقيون، إلخ، فكيف يعترف بعضهم ببعض؟ تحوي سوريا، سبعة وعشرين ديانة، تمثل كل واحدة منها قومية، وتلتمس هذا السديم التأثيرات الأكثر تنوعًا، روحيًّا وماديًّا. مع ذلك، بعد انقضاء أيام قليلة، بدأت أتمكن من قراءة كتاب الطلاسم هذا، الذي يبدو مستعصيًا على الفهم. تتبدى الخطوط الكبرى، بلا شك، بالتبسيط لا يمكن أن نعرض كل المشهد، لكنه الوسيلة الوحيدة لكي أفهم وأعبر عمًّا فهمت؟» (ص– 14).

ذهب كيسيل إلى سوريا، مفتقدًا لأي مرشد نظري، أو مرجعية قبلية، قد ترسم له خريطة طريق: «سوريا؟ ماذا نعرف عنها؟ لنعترف بالأمر، دون كبرياء مزيف: فقط بعض الوقائع التاريخية المبهمة، حول الحروب الصليبية، ثم بعض الصفحات الشهيرة، والأسماء الجميلة لدمشق وتدمر والفرات. ذاك، كل زادي بالنسبة لبلد كبير وخصب، يعيش تحت الانتداب الفرنسي. لكن، من يبين أهمية هذا الانتداب؟ ثم بوسعه أن يرسم– اللهم إلا مختصين قليلين– المظهر السياسي لهذا البلد؟ من يفسر لماذا نُقتل ومن يقتل؟. في الحقيقة، إذا كان من عذر لافتقاد المعلومة، فبوسعنا البحث عنها ضمن التعقيد المرعب الذي يسود سوريا» (ص13–-14).

لكنه، عندما عاين وخبِر ولامس على أرض الواقع، صحبة الجنود حيثيات المعارك وجوهر الصراعات السياسية، تحول بعمله هذا من مستوى الريبورتاج التسجيلي العادي، وكذا الرحلة العابرة، إلى التقييم النقدي لنظام الانتداب، وتحميله في الأخير ساسة فرنسا، مسؤولية الأخطاء المرتكبة التي كرسها الزمان وتماهى معها المكان.

> ”ذهب كيسيل إلى سوريا، مفتقدًا لأي مرشد نظري، أو مرجعية قبلية، قد ترسم له خريطة طريق: «سوريا؟ ماذا نعرف عنها؟لنعترف بالأمر،دون كبرياء مزيف: فقط بعض الوقائع التاريخية المبهمة، حول الحروب الصليبية، ثم بعض الصفحات الشهيرة، والأسماء الجميلة لدمشق وتدمر والفرات. ذاك، كل زادي بالنسبة لبلد كبير وخصب، يعيش تحت الانتداب الفرنسي“

Joseph Kessel : En Syrie ;Gallimard ;Succession Kessel ;2014.

في الإصلاح السياسي والديني





ثابت الأحمدي

الرياض

منذ غابر الزمن ومسألة الإصلاح السياسي والديني محل جدل واهتمام النخب الاجتماعية والثقافية، بصرف النظر عن الأولوية التي يراها البعض لهذا الجانب أو لذاك. وفي تقديري فإن عملية الإصلاح الديني والثقافي في أي مجتمع تأتي من حيث الأهمية قبل عملية الإصلاح السياسي، وأعتقد أن هذا هو رأي جمال الدين الأفغاني المؤسس الأول للحركات الإصلاحية في التاريخ الحديث؛ وهو عكس ما ارتآه تلميذه محمد عبده الذي ركز على التربية أولاً بصورة أكبر، ثم السياسة ثانية، متأثرًا ربما برفاعة الطهطاوي أحد أعلام التجديد في هذا المنحى؛ ذلك لأن السياسة والمشهد السياسي لأي بلد من البلدان هو في النهاية انعكاس مباشر للمشهد الثقافي فيه، وهو الصورة المعبرة عنه. وقد أثبتت الشواهد التاريخية أنه لا ثبات ولا استقرار لأي نظام سياسي إلا بولاء المثقفين ورجالات النخبة أنفسهم؛ ففي السابق كان الكهنة أو رجالات الدين ـ وهم مثقفو عصورهم ـ يحوطون السلطة إحاطة السوار بالمعصم، وفي العصر الحديث أضيف إليهم بعض المثقفين، أدباء وشعراء وإعلاميين، وغيرهم؛ ولذا عادة ما تذهب كثير من السلطات ـ خاصة في البلدان غير الديمقراطية ـ إلى شراء ولاءات المثقفين والكتاب وصناع الرأي، ضمانًا لبقاء سلطاتها وديمومتها؛ خاصة في أوقات استقرارها السياسي الذي يخلو من العنف في غالبه؛ إذ يكون العنف في فترتي البداية والنهاية، كما يشير إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته: أن الدولة تبدأ بالسيف وتنتهي بالسيف!

قبل أن تصل أوربا إلى هذا المستوى من الرشد السياسي والنضج الحضاري كانت الثورة الثقافية أولاً قبل الثورة الصناعية، وقبل الإصلاح السياسي، التي أشعل شرارتها الأولى الراهب الألماني "مارتن لوثر كنج" 10 نوفمبر 1483 – 18 فبراير 1546م، بالتمرد على الكنيسة، معلنًا مصفوفة الإصلاحات الكنسية الجديدة، في خمسة وتسعين نقطة أو بندًا، بوصفها مبادئ عامة للإصلاح الديني، داعيًا إلى فهم الكتاب المقدس من الكتاب المقدس نفسه، لا عن طريق الكهنة أو الإكليروس "رجال الدين" بوصفهم واسطة بين الناس وبين الله، رافضًا الاتجار بالصكوك الدينية، من قبل رجال الدين الذين مارسوا أبشع أنواع الاستبداد الديني في أرذل تحالف بينهم وبين النبلاء من الحكام، لم يعرف له التاريخ مثيلاً، على الرغم من كل الاعتراضات التي جُوبه بها وتبنتها الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وقد تتالت المدارس الإصلاحية الدينية عقب هذه الصيحة الأولية مباشرة في أنحاء أوربا؛ حيث كانت الكالفينية "نسبة إلى جون كالفن" أولاً في فرنسا، التي أضافت للمسألة القدرية إلى ذات الإصلاحات السابقة، وأيضًا حق تنظيم كل كنيسة لنفسها، بعيدًا عن سلطة المركز المقدس وعن طريق الانتخاب. وإلى جانب الكالفينية الفرنسية كانت أيضًا المدرسة الإنجيليكانية البريطانية، وإن اختلفت في بعض تفاصيلها عن المدرستين الأوليين من حيث ارتباطها بالسلطة السياسية؛ إذ بقي الملك على رأس الكنيسة بدلاً عن البابا.

هذه الثورة الثقافية/ الدينية التي أشعل فتيلها مارتن لوثر كينج كانت نقطة البداية لتوجه جديد في السياسة والاقتصاد وكافة مناحي الحياة العامة، بما في ذلك المنحى المفاهيمي والسلوكي؛ حيث بدأت تنتشر مفاهيم أخلاقية جديدة أفضت

بعد ذلك إلى ما أسموه "نظرية الأخلاق" التي تحترم الإنسان لإنسانيته أولاً وآخرًا، بدلاً عن المعايير القديمة ومفاهيمها الكلاسيكية، وانتصر لهذا الاتجاه الإنساني كل أو أغلب فلاسفة تلك المرحلة فما تلاها، أمثال ديكارت وسبينوزا وجان جاك روسو وجون لوك وايمانويل كانط، وغيرهم. فكان الإنسان - فردًا أو في إطار الجماعة - قيمة تنتهي عندها كل القيم! فتخلصت أوربا من داء العنصرية المقيت، وتصالح الكل مع الدولة الوطنية التي أساسها الجغرافيا، ورابطها المصلحة، وقليلاً قليلاً وصلوا إلى ما أسماه جودت سعيد "الرشد السياسي" بتأسيس السوق الأوربية المشتركة على الرغم من حربين عالميين قامتا، وعلى الرغم من الدماء التي سالت أنهارًا، والجماجم التي تكومت تلالاً، لكن القضية تكمن في أن الإنسان كان واعيًا، ولم يتم تدمير العقل، تدمرت البنى والممتلكات ولم يتدمر العقل، بدليل أن ألمانيا التي خرجت مهزومة في الحرب العالمية الثانية ومدمرة بما نسبته 75% من بنيتها التحتية؛ لكنها شاركت بعد عشر سنوات في أكبر معرض عالمي لصناعة السيارات في العالم!

ووفقًا لما سبق فإننا في العالم الإسلامي والعربي منه على وجه التحديد في أمس حاجة لما يمكن أن نسميه "لوثرية إسلامية" لكن من هو لوثر العربي أو المسلم الذي سيكسر الصنم؟ وقبل هذا لماذا اللوثرية الإسلامية؟

أقول: بقدر ما يحفل الفقه الإسلامي - المرجعية التشريعية للمسلمين - بصور من التشريعات الحية والمسائل الاجتهادية في قضايا كثيرة، بقدر ما يحمل أيضًا من المسائل الأخرى التي جعلته يبدو كخرافة أمام تشريعات اليوم وقوانين العصر التي أعادت للإنسان اعتباره، فثمة "ألغام فقهية" هي إلى اليوم مرجعية تشريعية لدى بعض فقهاء العصر من البائعين نقدًا ودَينًا، وعليها مدارات تصرفاتهم وتبريرات مسلكياتهم، جلبت لنا الويلات والدمار في كل أنحاء الوطن العربي. والمتابع لأدبيات كل الجماعات السياسية المتناحرة - وكلها متناحرة تقريبًا - يجدها تنطلق من جذر واحد أو من منبع واحد، هو النص الديني الذي تفسره كل جماعة على هواها، أو من منطلق التفسيرات التاريخية لكل منهم، وربما وجدت بعض الجماعات في أدبيات الجماعة الأخرى المناوئة لها ما يفسر رؤيتها أو يقوي حجتها، كما هو الشأن لدى الشيعة القائلين بالبطنين في الولاية، إذ يحاجون أهل السنة بأن أدبياتهم الفقهية أيضًا تشترط القرشية في الولاية، وإذا كانت القُرشية شرطًا لديهم فمن باب أولى البطنين، مع أن الشرط لدى أهل السنة في أدبياتهم الفقهية شرط تفضيل لا شرط وجوب؛ على العكس مما هو عليه لدى الشيعة الاثناعشرية، إذ يعتبرونه شرط وجوب، وأصلاً من أصول العقائد..!

ومن جهة ثانية لم يمارس أي طاغية أي فساد سياسي إلا وكان له سند ديني من رجالات الدين أنفسهم، فعلى سبيل المثال حين ولي الخليفة الأموي يزيد بن عبدالملك الحكم شهد له أربعون فقيهًا أن ما على الخلفاء يوم القيامة حساب ولا عقاب! مضيفين حديثًا في الحال "من قام بالخلافة ثلاثة أيام لم يدخل النار"!! ثم إن كل الرؤوس التي طارت بها السيوف مذاك وإلى اليوم كانت بفتاوى دينية ومثّل الفقيه - وهو المثقف بلغة اليوم - أداة قمع وقهر لأخيه الفقيه أو المناهض لفساد الخلفاء والولاة، ناهيك عن الجمهور العريض من الناس المناوئين أو الرافضين للاستبداد الذين أشارت إليهم بعض مراجع الفقه بمصطلحات من أمثال: الدهماء، والعامة، والغوغاء وجهلة القوم؛ إذ لم يكن للجمهور العريض ذلك الاحترام اللائق بهم كبشر، ومن هنا كان الاقتصار في القضايا السياسية المتصلة بهم على من أسموهم أهل الشوكة في المجتمع.

والواقع أن النصوص الدينية حمالة أوجه كما يُنسب للإمام علي، وهي أشبه ما تكون بالمادة الخام، ويستطيع الفقيه أو المؤول التلاعب بنصوصها وتفسيرها وفقًا لما يخدم ويقرر مصلحته أو مصلحة الطاغية. من هنا كانت الدعوة إلى مأسسة الفتوى الدينية أمرًا ذا أهمية حتى لا تصبح الفتوى لعبة بأيدي أشخاص يتلاعبون بها كما هو الشأن سابقًا ولاحقًا وحتى اليوم، وقد رأينا خلال الأحداث السابقة أن لكل فريق من الفرقاء المتصارعين سياسيا فقهاءه ورجال دينه، وكل فقيه يدعي الأحقية، مدعمًا إياها بنصوص الدين!

مهما قيل عن عظمة التشريع الإسلامي - وهو بحق كذلك - إلا أن كثيرًا من القوانين والتشريعات الحقوقية المعاصرة تنقصه اليوم، وأغلب تشريعاتنا اليوم مستمدة من الإعلانات العالمية لحقوق الإنسان التي جاءت من أوربا، ومن الاتفاقيات والعهود الدولية كحقوق الطفل وحقوق المرأة وحقوق الحيوان، وغيرها من التشريعات استوردناها من الغرب، ولا ضير في ذلك؛ لكن لماذا الاستيراد من أساسه ونحن ندعي أن عندنا الأفضل؟ وأين فقهاؤنا ومشرعونا وكتابنا من هذه الحقوق وغيرها؟! ثم أين هو الأفضل في هذا المجال تحديدًا؟! مع العلم أنه إن وجد نظريًا فإنه على الصعيد العملي لا وجود له!

إن إعادة النظر في منظومة الخطاب الثقافي - ومنها الخطاب الديني اليوم - أمر من الأهمية بمكان، وهي القاعدة الأساس لانطلاقة جديدة في الشأن السياسي والاقتصادي، وفي كل مناحي الحياة؛ لأن مشكلتنا اليوم في العالم العربي لم تعد مشكلة بسيطة أو واحدة فحسب، بقدر ما أصبحت مشكلة مركبة.. أي جملة مشكلات في مشكلة واحدة، فهي ثقافية، سياسية، اجتماعية، اقتصادية، معرفية، في زمن يوصف بزمن المعرفة، وإن إعادة إنتاج خطاب ثقافي جديد هو البوابة الأولى لجملة الإصلاحات التي يتوخاها ويسعى إليها مواطن اليوم مهما عولنا على الخطاب السياسي أو حدقنا كثيرًا فيه.

يعاني عربي اليوم اغترابًا في هويته، وانقطاعًا مع حضارته، وهو انقطاع طويل كاد أن يفقد معه ذاته، ويصبح مسخًا تابعًا يقتل أخاه لا يدري لماذا قتله؟ بل لقد أصبح القتل اليوم حرفة لمن لا حرفة له، في صورة لم يشهد لها تاريخ العرب مثيلاً! لا مجال للتفكير ولا صوت للضمير، ولا حضور للمستقبل، وكل صراعاتنا جرجرة لأوهام الماضي الذي لا ينتج إلا مزيدًا من الصراع! فقضايا جوهرية وأساسية مثل التنمية.. المستقبل.. الحريات السياسية والمدنية.. حقوق الإنسان، مفردات غائبة عن ذهن مواطن اليوم، حلت محلها مفردات من قرون سحيقة ينوء بحملها الجميع بلا مبرر! وكل ذلك بسبب الأنظمة الشمولية التي جثمت على صدر هذه الأمة قرونًا، وبرر لها رجالات الدين ذلك أو على الأقل سكتوا عن مناوءتها. ونحن اليوم أمام تركة ثقيلة وتحد كبير من النهوض الذي تفرضه المرحلة، خاصة بعد أن تململت هذه الأمة مؤخرًا بعد طول سبات وبدأت تفتح عينيها على مدارات الدهشة والإبداع، الذي وصل إليه العالم اليوم، وذلك لصناعة المواطن الصالح، ولتحقيق الشهود الحضاري، وكلاهما مما أناط بهما الله هذه الأمة.

"يعاني عربي اليوم اغترابًا في هويته، وانقطاعًا مع حضارته، وهو انقطاع طويل كاد أن يفقد معه ذاته، ويصبح مسخًا تابعًا يقتل أخاه لا يدري لماذا قتله؟ بل لقد أصبح القتل اليوم حرفة لمن لا حرفة له، في صورة لم يشهد لها تاريخ العرب مثيلاً! لا مجال للتفكير ولا صوت للضمير"

إن تحرير الفكر من ربقة التقليد والجمود هو أول المسير، وإن صناعة التغيير مرهون برجالات التنوير، ولو استقرأنا تاريخ أوربا قبل أربعة قرون لهالنا تلك المشاهد المزرية التي كانت عليها، ولوجدنا أنها تغيرت بفعل كسر جمود الخطاب الكنسي وصناعة خطاب فلسفي تنويري، وبفعل تراكم كمّي أفضى إلى الوجود النوعي من خلال أشخاص قلائل أمثال جاليلو جاليلي وفولتير، وكوبرنيكس، وميكافللي، وجون لوك الذي أشعل أوربا بالدعوة إلى التسامح الديني، وأيضًا كانط ومونتسكيو وروسو، وغيرهم..

إن الإنسان الشرقي اليوم في أغلب أحواله لما يصل بعد إلى الحالة التي وصل إليها أبونا آدم - عليه السلام - من حيث الاكتفاء الذاتي المرتبط أيضًا باحتياجات العصر، على الرغم من التراكم المعرفي المهول منذ تلك اللحظة وإلى اليوم؛ فآدم - عليه السلام - تحقق له ما ذكره الله تعالى في كتابه، كما أشار إلى ذلك مالك بن نبي: (إن لك فيها ألا تجوع ولا تعرى، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) وهي بمعيار اليوم: حق المأكل والمشرب والمسكن والملبس، المتسلسلة على هرم "ماسلو" بينما شرقي اليوم "الشقي" لا تزال أمنياته دون هذه الأساسيات! فمن أين تأتي المواطنة الصالحة؟ ومن أين يكتسب صفة الشهود الحضاري المنوطة به؟ بينما هي بالنسبة للإنسان الغربي أمر مفروغ منه في الغالب الأعم.

ظهرت المطبعة في أوربا وأحدثت هناك نقلة حضارية مهولة، ودخلت لدينا في الوطن العربي ولم تحدث نصف ذلك الأثر الذي أحدثته هناك، كما هو الشأن في بقية المخترعات العلمية الأخرى، والسبب يرجع إلى الفرق بين الإنسان الصانع للحضارة وبين المستورد لها!

المشكلة تكمن في العقل الغائب، والعقل الغائب مرهون حضوره بالخطاب اليقظ، والخطاب اليقظ من فعل رجل اللحظة الذي يقتنص الفرصة، وعادة لا تُبنى الدول إلا بعد أن تصل إلى مرحلة الحضيض لينشأ ما أسماه توينبي الاستجابة للتحدي، وحالنا اليوم في الحضيض غير أن رجل اللحظة لم يد بعد، وقبله لا يزال الخطاب الثقافي أسير الماضي السحيق بعيدًا، هناك.. هناك..!



القرآن الكريم وأثره في في التنظيم الفكري عند المسلمين

أمل محمد طوهري

الرياض

يعد الكاتب جيب هاملتون 1895–1971م، وهو من كبار المستشرقين المعاصرين الذين بذلوا وقتهم لدراسة التراث الإسلامي، وأسهموا في تعميق النظرة الغربية إلى المؤسسات الإسلامية، التحق بمدرسة الدراسات الشرقية عام 1919م فدرس ديوان الحماسة ومقدمة ابن خلدون والمعلقات السبع ومقامات الحريري. عمل أستاذًا للعربية في جامعة اكسفورد ومحررًا للطبعة الإنجليزية من الموسوعة الإسلامية، وهو مدير لمركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفارد، وهو عضو في مجمع اللغة العربية بالقاهرة والمجمع العربي بدمشق، وله عدد من المؤلفات من بينها: المدخل إلى تاريخ الأدب العربي، وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، وترجمة كتاب تركستان حتى الغزو المغولي لبارتولد، ورحلة ابن بطوطة، وملاحظات على المراجع العربية لتاريخ الحروب الصليبية، والنظرية الإسلامية عند ابن خلدون، وكتاب دراسات في حضارة الإسلام وهو من طباعة دار العلم للملايين، وترجمة إحسان عباس ومحمد يوسف نجم ومحمود زيد.

ناقش المؤلف في الفصل الحادي عشر من كتابه ماهية تصور المسلمين لله، وكيف يرون العلاقة بين الغيب والعالم المنظور، والمصادر التي استمدوا منها عقيدتهم.

وبناءً على ذلك فإن المؤلف فرق بين التعبير الشفوي عن الشعور الديني الذي أسماه بالحدس، وبين الصورة العقلية لهذا الشعور باستعمال مصطلح عقلي أو فلسفي، بمعنى أن ألفاظ القرآن الكريم مثلًا وتعاليمه هي المنطلق الذي ارتكز عليه هذا الشعور الديني.

وصنف مصادر الفكر الديني إلى أربعة مصادر:

1 – المواقف والمعتقدات البدائية التي ظلت حية في الأمة الإسلامية.

2 تعاليم القرآن وأثره مشفوعًا بالسنة النبوية.

3 – قيام علماء الكلام ورجال الدين بتنظيم المعتقد الإسلامي على أصول منهجية.

4 – الطرق الصوفية.

إن هجر المزارات الدينية المتعددة، واتجاه القبائل إلى مراكز دينية كبرى ولد شعورًا بسمو ديني انعكس سلبًا على الأديان القبلية، فأبرز قلة جدواها، كما يدل على أنه في بلاد العرب اعتراف بإلاه أعلى سمي بالله، وذلك راجع إلى تأثير الهجرات اليهودية أو المسيحية، وهنا ثمة حقيقة أغفلها المؤلف قبل أن يبرز سببًا ثانويًا، وهي أن أرض الجزيرة العربية أرض وحي، وما بناء البيت الحرام وتوحيد الله إلا بأمر منه، وأن الدين الإسلامي هو الدين الرئيسي منذ خلق الله البشرية، وكان كل نبي يبعث بعد فترة من الرسل لإصلاح العباد وإعادة الناس إلى الملة الحنيفية الصحيحة، ومواجهة التغير بنظم تتكافأ والوضع الراهن، وهذا يدل على أن الدعوة الإسلامية سبقت بتطور في الأفكار.

وليست فكرة الإله الأعلى في العصر الجاهلي غامضة مضطربة غير موصولة بأي حياة ثانية حقيقة مطلقة

لسببين: الأول أنه وبالنظر إلى الشعر الجاهلي ثمة ما يضاد هذا القول، فمثلًا يقول أمية بن أبي الصلت:

إلـه العالمين وكل أرض
ورب الراسيات من الجبال
وشق الأرض فانبجست عيونًا
وأنهارًا من العذب الزلال
وبارك في نواحيها وزكى
بها ما كان من حرث ومال
فكل معمر لا بد يومًا
وذي دنيا يصير إلى زوال
ويفنى بعد جدته ويبلى
سوى الباقي المقدس ذو الجلال
وسيق المجرمون وهم عراة
إلى ذات المقامع والنكال

إن هذا النص يحوي دلالات على أن العرب لم يكونوا وثنيين جملةً، بل وجد بينهم من يعبد الله ويؤمن بحياة أخرى، بل إن خديجة بنت خويلد رضي الله عنها حينما نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتعد صبرته بقولها: "كلا والله ما يخزيك الله أبدًا"[2].

وأما الثاني: فهو أن العرب كانوا يعتقدون بأن الأصنام وغيرها هي وسيلة للتقريب بينهم وبين الله، أي أن التماثيل لأشخاص صالحين يعتقدون بقربهم من الله ، بينما هم يدركون أن القوة المحركة في يد إله غائب عن الأنظار.

ومن هنا كان التغيير الذي حققه محمد صلى الله عليه وسلم هو تنزيه الله عن الشرك، وتقرير عظمته سبحانه بخلقه الكون، وأنه مجاز كل بحسب عمله، وهذا يستدعي إعادة بناء الحياة الدينية والفكر الديني لدى العرب.

ويشمل القرآن الكريم أداة لهذا التدرج في إعادة بناء الفكر الديني من جانبين: جانب يشمل استئصال الأفكار الخرافية والبدع من حيز العبادة والمعتقد وهو ما أسماه المؤلف بالملابسات النسمية، وجانب يشمل إحلال تفسير توحيدي إيجابي للكون وما فيه، وهذا الأخير يقتضي تحقيق الأول، فما دام أن الله سبحانه هو خالق الكون المسير لأموره فلم اللجوء إلى السحر لتحقيق مآرب دينية أو دنيوية؟

ومن ثم فإن محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يفرض كيانًا جديدًا من الأفكار على عقول أتباعه، إذ عمد إلى استثارة ملكاتهم الخيالية عن طريق الرموز الدينية المعروفة عندهم إلا أنه نقلها من إطار نسمي إلى إطار توحيدي، ومن ذلك إعادة تأويله لحقيقة الجن، فالقرآن لم ينفِ وجودهم أو شرورهم، ولكنهم لم يعودوا قوة مهيمنة في حقيقة ذاتها، بل هم مخلوقات أوجدها الله يمثلون لإرادته مهما تبدت أعمالهم غريبة غير قابلة للتفسير.

ومن أجل ألا يضعف هذا الإيمان كان من المهم ألا يترك أي منفذ يتسرب منه الجدل حول طبيعة القوة العليا، فنجد ذلك مبينًا في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3] ومن ثم كثرة ترديد القرآن لذم الشرك.

والإيمان بإله مهيمن يستلزم الرهبة والإجلال والإحساس بأن الله مصدر الخير والإحساس بعلاقة خاصة مع الله، وقد اجتمع ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[4].

ولأن الشعور بالرهبة والإحساس بالشكر لله مؤثرين حقيقيين في حياة المؤمن فيجب ألا يقبلا الانفصال عن تفكيره كله، ولذلك دعا القرآن إلى الذكر في كل الهيئات والظروف، ولتسهيل ذلك على الناس ربط بحركات جسمية منظمة في أوقات معينة وهي الصلوات الخمس.

وأهم مرحلة في الصلاة هي السجود، ففيه تعنو الوجوه ويغرس التواضع ويسلم الوجه للحي القيوم، مما يمهد لعلاقة خاصة مع الله، بينما يرى المؤلف أن أهم مرحلة في الصلاة هي اللحظة التي تعقب آخر سجود أي لحظة التشهد الأخير ولم يعلل ذلك، لكني ومن خلال استقرائي لأفكار المؤلف أعتقد أن المؤلف أراد أن يقول: إنه في تلك الأثناء يتجلى الشعور الإسلامي المحض، فلو تأملنا تلك اللحظات لوجدناها مضمخةً بمشاعر وأفكار راقية فيها يعم الدعاء بالسلام والخير جميع المسلمين بدءًا من الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام وعلى المصلي ذاته، هذه اللحظات إحدى معاني البر والصلة التي حظ عليها الدين الإسلامي.

والقرآن سجل لتجربة حية للألوهية تجربة متصلة بشؤون الحياة العامة ودعوة للمخلوق كي ينظم حياته، ليتمكن من الأخذ بنصيب من تلك التجربة.

فمثلًا كلمة التقوى في القرآن الكريم لعل أشمل تعريف لها هو إحكام ما بين الإنسان وخالقه وما بين الإنسان والآخرين، ولذلك تدور مشتقاتها حول نفي الإنسان الضرر عن نفسه وعن غيره، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[5]، وما يكون ذلك إلا بتحقيق ما تحمله من معان والتي يمكن تلخيصها في قوله تعالى:

•وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ •[6]، فلعظم شأنها وما تتضمنه من إيجابية اختص الله صاحبها بالرفعة عنده في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[7] ثمة عبارة لا بد أن أتوقف عندها يقول المؤلف: إن القرآن الكريم يخاطب الخيال ومن ثم بعد ذلك يخاطب العقل، هل من العقل أن نقدم الخيال، على العقل في تفنيد الكيفية التي يسوقها القرآن لبث التعاليم الإسلامية ؟! الحقيقة أن القرآن الكريم متسم بالبلاغة، والبلاغة تعني أن لكل مقام مقالًا، فعندما يكون الحديث عن شيء غيبي فهو يستعمل ما هو متعارف عليه من مصطلحات وموجودات عند البشر لتحفيز الخيال لاستشعار مضمون الآية كوصف الجنة، وما فيها من طيبات وثمار.

وحينما يستدعي المقام مخاطبة العقل يظل حاضرًا، فمثلًا حين يخاطب الله منكري البعث يورد لهم دلائل عقلية، منها خلق الكون والتذكير بمراحل خلق الفرد.

وحين يتبع المسلم تعاليم القرآن ويسعى لاستشعار ذلك بعقله وقلبه وروحه، فإنه يحاول أن يتملك شيئًا من التجربة النبوية ويعظم في عينه مغزا كل آية فيه، لإيمانه بأنه كلام الله، وهذا يتناقض مع ما ذكره المؤلف في موضع آخر وهو ومن ثم رد عليه "...فالذي يمنح القرآن قوة على تحريك قلوب الناس وتشكيل حياتهم ليس هو محتواه من مبادئ ونذر، وإنما هو سياقه اللفظي"[8]، صحيح أن القرآن معجز بفصاحته وبيانه، لأنه كلام رب العالمين إلى خلقه، فكيف لا يكون معجزًا وهو صادر من قوة عظمى! وهل يمكننا الفصل بين تعاليم القرآن وسياقه اللفظي؟ والحكم بأن أحدهما مسير لقلوب الناس؟

ولكن لما كان الناس بحاجة إلى دين ينظم حياتهم كان من الطبيعي أن تدخل إليهم تعاليمه من المدخل المحبب لهم، ولما كان العرب يحتفون بلغتهم شعرًا ونثرًا جاء الدين الإسلامي في هذا القالب الذي يشحذ بقدرته الخيال والشعور.

ولا يمكن أن نطلق على جرس الألفاظ والأحرف موسيقى إذ إن لكل حرف معنى ومخرجًا مختصًّا به. وما التلحين والتطريب إلا من البدع المستحدثة.

وتقف شخصية محمد صلى الله عليه وسلم مرتبطة بالقرآن بروابط من المشاعر الحارة التي يسبغها الحب الإنساني، فإن العلاقات الشخصية من الإعجاب والحب الذين بعثهما في نفوس صحابته ظل صداها يتردد خلال القرون، والفضل في ذلك يعود إلى رواية الحديث، فلقد كتب الشيء الكثير عن مهمات الحديث في الإيضاح والتفسير، وليس مكملًا للقرآن كما يقول المؤلف، إضافة إلى عرضه لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته، وبذلك قدم للمسلمين صورة للحياة الإنسانية كما يجب أن يحياها الفرد، بل إنه ربط بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين المسلمين اللاحقين بذات الروابط التي كانت تصله بأصحابه الأولين، وقد نمت هذه الروابط عبر القرون.

ثم ظهرت كتب السير الكثيرة وكتب في دلائل النبوة، وألفت قصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم شاعت بين العامة.

أخيرًا أحب أن أختم حديثي بهذه العبارة لمصطفى صادق الرافعي: "العقل مظهر تاريخ الأمة ولكن الخُلُق لا يكون إلا مصدر هذا التاريخ"[9].

الهوامش

1 - إن العنوان الأصلي للموضوع هو محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن، وإنما وضعت خلافه تبعًا لرؤيتي النقدية. انظر: جيب، هاملتون، (ت1971 م)، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس وآخرين، (ط2، دار العلم للملايين، 1974 م)، ص248.
2 - الصلابي، علي بن محمد، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، (ط3، مكتبة الصحابة، الإمارات، 1424 هـ) ج1، ص96.
3 - القرآن الكريم، سورة الشورى، آية 11.
4 - القرآن الكريم، سورة المدثر، آية 56.
5 - القرآن الكريم، سورة التحريم، آية 6.
6 - سورة المائدة، آية 2.
7 - القرآن الكريم، سورة الحجرات، آية 13.
8 - جيب، هاملتون، المرجع السابق، ص256.
9 - الرافعي، مصطفى صادق، (ت 1356 هـ)، إعجاز القرآن الكريم، (ط 8، دار الكتاب العربي، بيروت) ص71.



طاهر زمخشري ..
رحلة مملوءة بالشعر والعذاب

يُعد الأديب والشاعر طاهر زمخشري أحد رواد الحركة الأدبية الحديثة في الحجاز، وأحد المبدعين البارزين في مجال الأدب، لاسيما الشعر العربي الفصيح، كان إبداعه يتجلى في المملكة وفي منطقة الحجاز تحديدًا، فهو أحد الذين أسسوا حراكًا إبداعيًا من الجيل الأول، سواء في المجال الأدبي أو الإعلامي.

مولده ونشأته:

ولد الشاعر والأديب طاهر زمخشري في مكة المكرمة عام 1906م وأنهى دراسته في مدارس الفلاح عام 1349 هـ وعمل منذ 1350 هـ في الوظائف الحكومية كان أهمها المطبعة الأميرية، التي كان يرأسها حينها الأديب محمد سعيد عبد المقصود، وفيها توافرت له الصحف والمجلات والكتب التي ترد من مختلف البلاد العربية. وفيها كان يحضر النادي الثقافي الذي تنظمه المطبعة، ويختلف إليه حمزة شحاتة وعبد السلام عمر وأحمد السباعي وأحمد قنديل، وتنقل في الوظائف الحكومية حتى استقر به الحال في دار الإذاعة.

حياته في الإعلام:

في الإذاعة كان له دور كبير في تأسيسها، وقدم برامج عديدة، أشهرها برنامج "بابا طاهر" للأطفال الذي عرف به، وذلك نتيجةً لاهتمامه بأدب الأطفال، وظل الجميع ينادونه «بابا طاهر»، وعمل بالإذاعة مديرًا لقسم الإخراج والبرامج الخاصة. كما أنشأ أول مجلة أطفال سعودية حملت اسم مجلة الروضة، وكان أول عدد لها في تاريخ 17 سبتمبر 1959م، لكنها لم تستمر طويلاً إذ توقفت بعد 27 عدد بتاريخ 12 مايو 1960م. وكانت تطبع في دار الأصفهاني وشركاه للطباعة في جدة، وهي أول مجلة سعودية ثقافية مصورة للأطفال وصدر عددها الأول تحت شعار "مجلة الطفل العربي السعودي" مقدمة نفسها أنها "مجلة ثقافية مصورة .. تصدر تحت رعاية صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز وزير المعارف".

وكانت نصف صفحات "الروضة" ملونة كما ضمت إعلانات تجارية، وكان كل عدد يضم قصة مصورة بالألوان، وفي كل عدد جزءان من قصتين سرديتين مسلسلتين، كما ضمت صفحاتها الأخرى موضوعات ثقافية مختلفة تناسب عمر الأطفال.

وقد توقف الزمخشري عن تحرير مجلته "الروضة" بعد العدد الخامس بعد أن انتظم في كتابة افتتاحية الأعداد الخمس الأولى منها.

تعرضت "الروضة" للتوقف عدة مرات، فقد توقفت للمرة الأولى بعد العدد 12 الصادر في 4 / 6 / 1379هـ ولمدة 26 يومًا دون إبداء أي مبرر، ثم توقفت عن الصدور للمرة الثانية بعد العدد 24 الصادر في 20 رمضان 1379 هـ ودون إيضاح السبب أيضًا، ثم توقفت للمرة الثالثة لمدة أسبوعين بعد العدد 25، ثم توقفت نهائيًا عن الصدور بعد



من اليمين: أحمد عبد الغفور عطار وطاهر زمخشري إلى يمين خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز خلال منحه جائزة الدولة مع الأمير عبد الله الفيصل



طاهر زمخشري يحادث عبد المقصود خوجة يمين الصورة (اثنينية عبد المقصود خوجة)

العدد 27 الصادر في 17 / 11 / 1379 هـ الموافق 12 / 5 / 1960م، في حين تشير مصادر أخرى إلى أن آخر عدد صدر منها حمل الرقم 29 ثم توقفت بعد تسعة أشهر من صدورها.

ويبدو أن الزمخشري أصيب بالإحباط لعدم انتشار مجلته ورواجها، مما شكل عبئًا ماديًا قاسيًا عليه، وهو الذي وضع كل ما يملك في سبيل إصدارها، فأفلس في نهاية الأمر، وأصبح مدانًا للمطابع بمبالغ كبيرة يعجز عن سدادها، فانهارت أعصاب الإعلامي الكبير، وسافر للخارج للعلاج، وحاول محبوه أن ينتشلوا المجلة من إخفاقاتها دون جدوى مما أدى في النهاية إلى إغلاقها نهائيًا.



معالي الأستاذ أحمد الشامي، فالأستاذ أحمد عبد الغفور عطار، فالأستاذ طاهر زمخشري، فمعالي الشيخ عبد الله بلخير، فالأستاذ محمد حسين زيدان، فالدكتور صلاح الدين المنجد، فمعالي د. محمد عبده يماني (اثنينية عبد المقصود خوجة)



من اليمين: الأستاذ محمد سعيد طيب، فالدكتور عبد الله الغذامي، فالشيخ عبد المقصود خوجه، فمعالي د. محمد عبده يماني، فالدكتور صلاح الدين المنجد (اثنينية عبد المقصود خوجة)

وقد اعترف الزمخشري رحمه الله في حوار صحفي أجري معه بأنه أنفق ببذخ على مجلة "الروضة"، حيث أسس لها مكتبًا كبيرًا بديكورات مكلّفة، وأقام حفلة رسمية كلفته مبالغ طائلة، كما أحضر رسامين لرسم قصص وأغلفة المجلة برواتب سخية، وحتى طباعة المجلة تميزت كونها أول مجلة سعودية تستخدم حرف "اليونيتيب" في الطباعة.

ويتذكر الزمخشري في حواره هذا الحفل الكبير الذي أقامه لتدشين صدور المجلة، وقد حضر الحفل خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز يرحمه الله، وذلك عندما كان وزيرًا للمعارف، وحينها كان مهتمًّا ومتحمسًا لتأسيس الجامعة وكلياتها، فقال مداعبًا الزمخشري عقب انتهاء الحفل: "أنت سوّي الروضة، وأنا أسوي الكلية".

ويكشف الأستاذ الباحث محمد القشعمي أنه بحث في موجودات مكتبة الملك فهد الوطنية عن مجلة "الروضة" فلم يعثر إلا على العدد الثاني عشر الصادر يوم الجمعة 4 / 6 / 1379هـ.

الجوائز:

نال جائزة الدولة السعودية التقديرية في الأدب عام 1404هـ - 1983م، ولم يكن نجاحه منحصرًا في ثنايا المحلية فقط، بل كانت إبداعاته ونجاحاته تطال العالم العربي، فقد مُنح وسامًا رفيعًا في حفل تكريمه في الجمهورية التونسية، فلم يكن رحمه الله تعالى مستقرًا في حياته، بل كانت حياة الغربة من نصيبه، إذ أقام طويلاً في مصر، ثم انتقل إلى تونس، حيث نال التكريم أيضًا هناك.

نال وسامي الاستقلال والثقافة وجائزة الأدب ووضع اسمه ضمن رواد الحركة الأدبية الحديثة في الحجاز.

أعماله:

أعمال طاهر زمخشري عديدة ومتنوعة، لعل من أهمها ديوانه الأول "أحلام الربيع" عام 1946م إذ قيل إنه أول ديوان سعودي مطبوع على حسب ما ذكره سعد الخشرمي في صحيفة الحياة، ثم "همسات" في عام 1372هـ، و"أنفاس الربيع" في عام 1955م، و"أصداء الرابية" في عام 1957م، و"أغاريد الصحراء" المطبوع سنة 1958م، و"على الضفاف" عام 1961م، وفي ذات السنة قدم "ألحان مغترب" وبعدها بعامين قدم "عودة الغريب" ثم "في الطريق" وقد صدر عام 1382هـ، وأعمال أدبية وإعلامية أخرى لعل من أهمها:

"معازيف الأشجان" 1976م، "لبيك" 1388هـ، "حبيبي على القمر" 1389هـ، "نافذة على القمر" 1390هـ، "العين بحر" - بحث حول ما نظمه الشعراء في العين 1970م، "رباعيات صبا نجد" 1393هـ، "الشراع الرفاف" 1974م، "حقيبة الذكريات" 1397هـ، "على هامش الحياة" - قصص، "مع الأصيل" تأملات ودراسات نفسية، "إليها" شعر، و"أغاريد المذياع" شعر، و"ليالي ابن الرومي" دراسة، و"أقوال مبعثرة" شعر، و"أحلام"، و"رمضان كريم"، "عبير الذكريات" (إصدار خاص من تهامة للتوزيع)، و"من الخيام" 1389هـ، و"بكاء الزهر"، و"أوراق الزهر".

دُرس شعره في عدة جامعات، مثل جامعتي القاهرة والخرطوم، معاهد اليونسكو.

وفاة طاهر زمخشري:

بعد رحلة طويلة مع المرض توفي الأديب الشاعر طاهر بن عبد الرحمن زمخشري مخلفًا وراءه ذخيرة حية من الإبداعات الكتابية وكان ذلك في 20 تموز/يوليو عام 1987م عن عمر يناهز 81 عامًا.

يقول في إحدى قصائده :

أبكي وأضحك والحالات واحدة

أطوي عليها فؤاداً شفه الألم

فإن رأيت دموعي وهي ضاحكة

فالدمع من زحمة الآلام يبتسم

وقال في قصيدته إلى المروتين، والتي نشرت في عام 1377 هـ :

أهيم بروحي على الرابيه ... وعند المطاف وفي المروتين
وأهفو إلى ذكر غاليه ... لدى البيت والخيف والأخشبين
فيهدر دمعي بآماقيه ... ويجري لظاه على الوجنتين
ويصرخ شوقي بأعماقيه ... فأرسل من مقلتي دمعتين

***

أهيم وعبر المدى معبد ... يعلق في بابه النيرين
فإن طاف في جوفه مسهد ... وألقى على سجفه نظرتين
تراءى له شفق مجهد ... يواري سنا الفجر في بردتين
وليس له بالشجا مولد ... لمغترب غائر المقلتين

***

أهيم وقلبي نفاته ... يطير اشتياقاً إلى المسجدين
وصدري يضج بآهاته ... فيسري صداه على الضفتين
على النيل يقضي سويعاته ... يناغي الوجوم بسمع وعين
وخضر الروابي لأناته ... تردد من شجوه زفرتين

***

أهيم وحولي كؤوس المنى ... تقطر في شفتي رشفتين
فأحسب أني احتسيت الهنا ... لأسكب من عذبه غنوتين
إذا بي أليف الجوى والضنى ... أصاول في غربتي شقوتين
شقاء التياعي بخضر الربى ... وشقوة سهم رماني ببين

***

أهيم وفي خاطري التائه ... رؤى بلد مشرق الجانبين
يطوف خيالي بأنحائه ... ليقطع فيه ولو خطوتين
أمرغ خدي ببطحائه ... وألمس منه الثرى باليدين
وألقي الرحال بأفيائه ... وأطبع في أرضه قبلتين

***

أهيم وللطير في غصنه ... نواح يزغرد في المسمعين
فيشدو الفؤاد على لحنه ... ورجع الصدى يملأ الخافقين
فتجري البوادر من مزنه ... وتبقي على طرفه عبرتين
تعيد النشيد إلى أذنه ... حنيناً وشوقاً إلى المروتين



طاهر زمخشري





طوني موريسون: المُنفلتة

ترجمة : عبدالحكيم برنوص
المغرب

منذ بداية السبعينيات، تسبر هذه الأمريكية أصولها الإفريقية، وتبحث في الذاكرة الجماعية لغيرها من ذوي البشرة السوداء، وتقتفي كل أثر لشبح العبودية القديم. تتويجها بجائزة نوبل، لم يجعلها حبيسة لثنايا السلطة الأخلاقية، ولا جعلتها حريتها في الكتابة، تخضع أو تنزوي.

قلة قليلة من الكتاب، تختلج فرحًا بالإطراء والمدح، إلى درجة التماهي مع النصب التذكارية، برغم أن الإطراء قد لا يحمل إليهم السعادة التي ينشدونها.

في حال طوني موريسون، فإن جريدة "نيويورك تايمز" هي التي أسهمت بشكل كبير، في تكوين الصورة التي يحملها كثير من الأمريكيين عن هذه الكاتبة، وهو الشيء الذي يجعلها - حسب هذه الجريدة - أكثر الشخصيات "قربًا إلى الوطنية". عبارة تحمل نكهة خاصة، في حال هذه الكاتبة الثائرة: أليست هي القائلة سنة 1986 "في حياتي كلها، لم أشعر قط، كوني أمريكية" هذا القول المغرض، يحمل بين ثناياه كثيرًا من الروعة والقوة.

وُلدت طوني موريسون، بولاية أوهايو سنة 1931، واسمها الحقيقي "كلوي أنتوني ووفورد"، الكاتبة الشمّاء، الأكثر شهرة في الولايات المتحدة الأمريكية، ترفض كل محاولة للتقييد، وهي الخطوة التي جعلتها تسير عكس سير الناس.

في خريف 2006، حلت ضيفة شرف، بمتحف اللوفر الفرنسي، واختارت عنوانًا ينطبق ومبادئها، "غريب في بيته" لأنها امرأة داخل مجتمع يقوده الرجال، ولأنها سوداء (البشرة)، داخل ثقافة يسيطر عليها البيض، فقد جعلها ذلك تعرف حقًا المعنى الحقيقي لأن تكون مقصيًا، فجعلت من هذه التجربة سلاحًا، ومطلبًا حقيقيًا، وضعته - بروعة في خدمة الدور الوحيد الذي قبلت أن تلعبه طواعية: ذلك أن تكون كاتبة.

وحتى هنا، كان لا بد من قدْر من الشدة، حدّ العناد، حتى لا تبقى حبيسة المتاهات التي سطرتها النذور السابقة، حتى لا تبقى الناطق الرسمي باسم الطائفة السوداء، أو باسم المسألة النسائية، - وحتى باسم المعارضة الديمقراطية، عندما ساندت الزوجين بيل وهيلاري "كلينتون"، وآخرهم باراك أوباما سنة 2008.

سنة 1988، ستحرز جائزة "بولتزر" عن رواية "المحبوب" beloved، خمس سنوات بعد ذلك، وباستكهولم، ستتوجها الأكاديمية السويدية، لتحرز جائزة نوبل للأدب، لأنها استطاعت أن تعيد بناء تاريخ الأمريكيين ذوي الأصول الإفريقية، قطعة قطعة، و لتُعلّق صورتُها في رواق المشاهير، إلى جانب مارتن لوثر كينغ ورالف إليسون وأنجيلا ديفس.

غير أن طوني موريسون ليست كاتبة مهيبة الجانب فقط، تنال إعجاب الجميع أو يخافون شخصيتها الكاريزمية وسخريتها اللاذعة، إنها أيضا كاتبة استطاعت أن تنظر عبر شقوق الحياك، وأن تسمع أصوات الأشباح، وألا تظل حبيسة المظاهر الخداعة لمنصات التكريم.

كُتبها مرآة لشخصيتها، وحتى العبيد الذين وصفتهم في رواية "المحبوب" وفي "ترتيل موسى" (1977)، ليسوا أحرارًا، بل يلاقون مصيرًا مرعبًا، استطاعت وحدها - وأكثر من أي أحد آخر- أن تذيقهم فظاعة العبث، لكن أحلام هؤلاء العبيد ستظل حرة بدون قيود، لا أحد يستطيع تقييد أحلامهم وأرواحهم.

وللحاق بهذه الحكايات، التي لا يملك أحد حق التصرف فيها، فإن طوني موريسون تسبغ على رواياتها جزءًا لا عقلانيًا، فلا مجال هنا للواقعية، ففي كتبها مكان للواقع، ولكن ليس كل المكان.

سنسمع أصواتًا، ونلاقي أشباحًا، وسنجد أنفسنا عرضة للسحر والخرافات والأعاجيب. "الحياة تسع الحياة"، أعلنتها طوني موريسون سنة 2004 في حوار مع جريدة العالم Le monde الفرنسية، خاصة إيقاع الكتابة لديها، واختيار الكلمات (معجم يجمع بين الشهواني والروحي)، وطريقة رصفها، كل هذا يصنع حفلة فاتنة.

في رواية "المحبوب" تمثل شخصية "سيث" نموذجًا لا ينسى للانتقال من أشكال المقاومة إلى الاستلاب، حين تفضل (سيث) هذه الأمَة الآبقة خنق طفلها، مخافة أن يلاقي مصير الحديد، تفضل "سيث" إطفاء نُطف نسلها، ومعه بشاعة نظام، يَجلد فيه أطفالٌ عشر سنوات شيوخًا لمجرد التسلية.

في كتابها الثالث، ستُموضع طوني موريسون أمريكيًا من الطبقة الوسطى، رجلاً بلا ذاكرة - لن يستعيدها بعد ذلك أبدًا، إلاّ بالعودة جنوبًا، مُتّبعًا جذور أغنية قديمة، هناك سيستعيد "مانون مور" حكايته وحكاية ذويه.

حدة المشاعر والقوة الصامتة للمتعة، تؤثثان نصوصها منذ أول كتاب صدر سنة 1970، عندما كانت ما تزال ناشرة لدى دار "راندوم". وفي السنة التي ستليها، نشرت طوني موريسون "العين الأجمل"، وهي قصة فتاة في الثانية عشرة من عمرها، "بيكولا" التي تعاني الذمامة وسواد البشرة، التي تظل عاكفة تصلي ليلاً، لعل السماء تبعث لها عينين زرقاوين.

تحدث القصة في أربعينيات القرن الماضي، وفي البيت الجنب، تراقب فتاة أخرى هذا الجنون الذي سينتهي بمأساة، اسم البنت "كلاوديا"، استطاعت أن تفلت من عذاب كبير، فقط بسبب الحقد، هذه الضغينة المخبوءة ، ستتجسد (بالمعنى الحرفي لكلمة جسد) في اليوم الذي ستتلقى فيه هدية، هي عبارة عن دمية شقراء، زهرية البشرة، زرقاء العينين، "من خلال ضحكات الكبار، تقول، كنت أعرف أن هذه الدمية تمثل ما يعتقدونه أني أحبه...ماذا كان متوقعًا أن أفعله بها؟ ألعب بها؟ بالعكس، كنت أكسر الدمى البيضاء..."

هذه "العينة من الكتاب الذين يفكرون كونيًا"

تستمر المتعة (ودائمًا مأساوية) في الكتاب الرائع "جاز" (1992)، في هذا الكتاب السادس، تحمل طوني موريسون قارئها، إلى عوالم "هارلم"، في عشرينيات القرن الماضي، الشخصيتان الأساس "جو" و"فيوليت" تقدّمان من الجنوب إلى هذا المكان النابض والخطير والمثير، الحي الأسود في نيويورك، كانا متحابين فيما مضى، لكن سرعان ما خبا هذا الميول.

أحب "جو" فتاة ثانية تدعى "لوليتا"، مدمنة خمر، ستتلاعب به، أغراها بالحلوى وجوارب الحرير وقارورة كولونيا، قبل أن تبعث بهما هذه المتعة: هو إلى الجحيم، وهي إلى القبر. "فيوليت" بدورها، ستتشبث بالحياة مكابرَة، برغم أن المعاناة الكبيرة للنساء السوداوات تقع على عاتقها، كما تقع على عاتق كثير من الشخصيات النسائية المتخيلة من طرف الروائية.

هذا الكتاب الموزون والشهواني والجارح، يواصل وبطريقة نافذة، الملحمة التي بدأت برواية "المحبوب"، إنه جدارية نارية، رسمت من قِبل كاتبة، هي الأخرى متحمسة أشد الحماس "أعرفُ أني لا أستطيع تغيير المستقبل، ولكنني أستطيع تغيير الماضي".

الانفلات - كما آخرين - من الصورة الجامدة "للأسود الطيب"، التي يُحاصَر داخلها كثير من الأمريكيين من أصل أفريقي، والرفض المستميت للمهادنة، لقد أرادت أن تكون الطريق التي تأتي منها الفظاعة، صحيح أنها تستعمل الكلمات والأحاسيس بجرأة مجنونة، وفي خرق سافر لكل المواضعات، أو بالأحرى، فإنها كاتبة تحرص بقوة على تجنب الوقوع في فكرة، أن البيض يستحيلون سودًا، لمجرد قراءة كتب السود.

في روايتها "اللعب في العتمة" (1992)، وفي معرض جوابها عن الأسئلة في جامعة هارفارد، عن شخصيات السود في الرواية الأمريكية، تتساءل طوني موريسون عن المواجهة (المفترضة) بين كاتب أسود "أكثر وعيا بتمثيل عِرقه" "عرق آخر لقرّاء، يعتقدون أنفسهم كونيين أو بدون عرق".

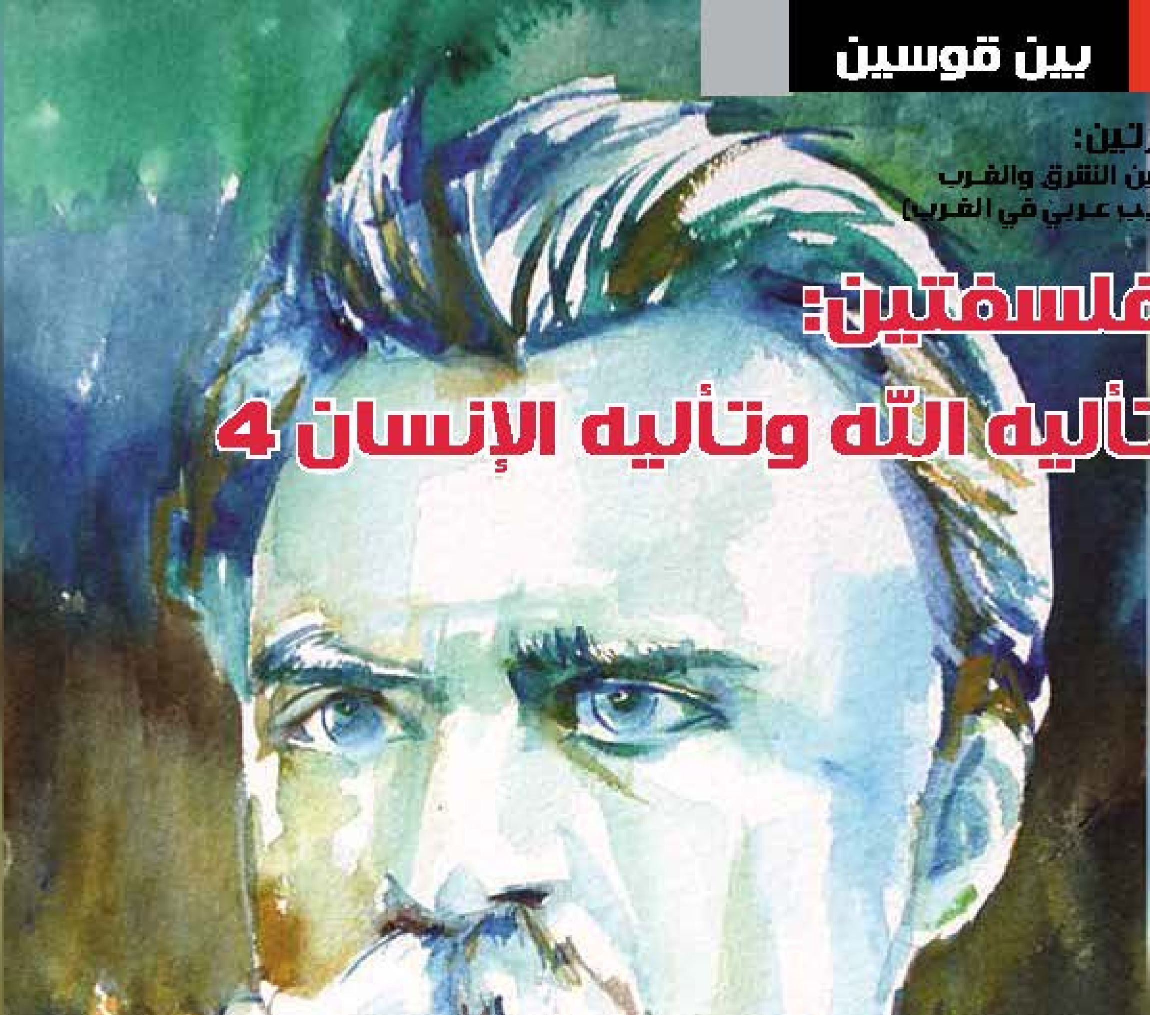
مسألة الكتابة: "سوداء أم بيضاء" لم تُحلّ، غير أن كُتب طوني موريسون تُجيب عوضًا عنها: المسألة مرفوعة، لأن كتبها، ليست بالسوداء ولا بالبيضاء، إنها في العمق، إنسانية.

رافاييل ريرول
المجلة الأدبية
عدد يونيو 2013

REROLLE Raphaelle
Le Magazine Litteraire
JUIN 2013

بين حضارتين:
مفارقات بين الشرق والغرب
(شهادة طبيب عربي في الغرب)

بين فلسفتين:
بين تأليه الله وتأليه الإنسان 4



موتُ الإله (!) ومولد الإنسان السوبرمان



أ.د. مهند الفلوجي

أستاذ الجراحة والمشرف على:
معهد تاريخ الطب والعلوم
عند العرب والمسلمين
(www.ihams.org)

لندن

أصداء أسطورة أوديب في الفكر والأدب الأوروبي:

1. تم تمثيل الأسطورة على المسارح الأوروبية بنجاح عدة مرات، منذ عصر النهضة.

2. نجح الأديب البريطاني (جون درايدن) بتحوير الأسطورة في قصته الدرامية أوديبوس، أجيزت عام 1678م.

3. قام الأديب الفرنسي (فولتير) عام 1718م بكتابة أولى مسرحياته (أوديبوس).

4. تم تمثيل أوديبوس للكاتب (باتريك مجينيس) في المسرح الوطني عام 2008م.

5. عام 1960م نشر الأديب (عمانويل فيليكوفيسكي 1895-1979م) كتابًا سمّاه (أوديبوس وأخناتون) وضع فيه مقارنة بين القصتين للبطل الأسطوري الأغريقي أوديبوس، والبطل المصري ملك طيبة أخناتون.

6. استخدم الطبيب النفساني (سيجموند فرويد) أسطورة أوديب الإغريقية، وأطلق اسم عقدة أوديب (أو أوديبوس، أي عقدة الأم) لتفسير منشأ الاضطرابات العصبية الوظيفية (العُصاب) في الأطفال، وعرّف العقدة: ميل الطفل (الذكر) اللاشعوري وحبّه المفرط لأمه، وهذا الميل يشمل الغيرة من أبيه، مع الحب اللاشعوري في موت أبيه!

ولكن أوديب، كما صورته الأسطورة، حاول المستحيل للحيلولة دون قتل أبيه والزواج من أمه، ولم يكن أصلاً يعاني من مرض العُصاب – على الأقل نحو الملكة جوكاستا ، التي عرفها عندما كان شابًا، ثم إنه حين علم بزواجه من أمه شعر بذنب شسب بفقئ عينيه وهجرته ليموت بعيدًا عن أمه التي انتحرت لشعورها بالذنب، ثم إذا كانت هناك عاطفة ما، فالواجب أن تكون موجهة نحو الملكة ميروب التي ربّته.

احتجّ فرويد بأنّ جمهور قدماء الإغريق من قرّاء القصة ومشاهدي مسرحيتها وسامعيها، عرفوا أن أوديب إنّما قتل أباه حقيقة وتزوج بأمه: وباستمرار رواية القصة حديثًا وتمثيلها مسرحيًّا تطابقت الأسطورة الخرافية لتوافق أكذوبة فرويد حول عقدة أوديب!!!

ومن ثم جاء المصطلح الطبي: "الأوديبية" ليعني إصابة العين ذاتيًا (لأن أوديب فقأ عينيه بالدبّوس وصار أعمى)، وهي حالة نادرة جدًا من الإضرار الذاتي القاسي.

اعتبر كتاب (انتحار الغرب Suicide of the West) أنّ فرويد قد قوّض تفاؤل الحضارة الغربية (ميزتها على باقي العالم)، حيث إنه برّر الإجرام والحروب في العالم (بتفسيره للأحلام والعقل الباطن على أنها طبيعية!!!)، وفي 1972 عدّ "السير بيتر مدور" (الطبيب الحاصل على جائزة نوبل) عدّ التحليل النفسي (واحدًا من أكثر كل معالم تاريخ القرن العشرين كآبة وغرابة). وقال "بيتر واتسون": (إن بحوث فرويد صارت اليوم مدحوضة).



أقوال فرويد: (اليمين) بالتقدم الذي نحرزه (لو كان) في العصور الوسطى لكانوا يحرقونني، أما الآن فهم راضون بحرق كتبي، (اليسار) يُرضي الرجل التقيّ نفسه بأحلام هي أفعال الرجل الشرير في الحياة الفعلية.

ومن أقوال فرويد الأخرى: (البشر أقل أخلاقًا مما يعتقدون، وأكثر فسوقًا مما يتخيلون!).

عُقدة إليكترا للبنات: هو مصطلح أنشأه فرويد يشير لتعلق الفتاة اللاوعي بأبيها وغيرتها من أمها وكرهها لها، واستوحى فرويد هذا المصطلح من أسطورة إليكترا اليونانية، وهو يقابل عقدة أوديب لدى الذكور. وإليكترا هي ابنة الملك الإغريقي أغاممنون من زوجته (كليتمنسترا)، وهي أخت هيلين التي قامت من أجلها حرب طروادة)، ولها أخت أكبر منها (إفيجينيا)، وأخوها الوحيد (أورستيس). كان أورستيس عزيزًا على قلب أبيه، لأنه الابن الذكر الوحيد الذي أنجبه من زوجته، ثم قدّم الملك الأب أغاممنون ابنته الكبرى (إفيجينيا) قربانًا للآلهة أرتميس، فحقدت الزوجة الأم (كليتمنسترا) على زوجها، عندما يعود الزوج من الحرب الطروادية التي استمرت عشر سنوات، كانت الزوجة قد تآمرت خلالها مع عشيقها (أيجستوس) ليقوما بقتل الملك (أغاممنون) غدرًا، وقتل غنيمة حربه وسبيّته (كساندرا كاهنة طروادة)، ويهرب ابن الملك أورستيس أو يتم تهريبه إلى خارج البلاد، أثناء الفوضى التي صاحبت مقتل أغاممنون وكساندرا، وتتخلص الأم الخائنة وعشيقها من ابنتها إليكترا بتزويجها من فلاح بسيط، حتى يضمنا أن لا تنجب نسلاً ملكيًّا قد يفكر في الانتقام منهما لمقتل أبيها الملك أغاممنون، لكن الفلاح البسيط يحترم الأميرة النبيلة ولا يدخل بها، فيبقى زواجهما صوريًّا، وتبقى إليكترا بلا زواج. يبقى أورستيس 7 سنوات خارج وطنه، ثم يكبر ويعود في السنة الثامنة إلى موطنه، ليتعرف على أخته وشقيقته إليكترا سرًّا، ومن ثم يقوم أورستيس وبمساعدة الأمير بيلادس، بقتل أمهما كليتمنسترا مع عشيقها أيجستوس انتقامًا لأبيه، وقبيل القتل تلعن (كليتمنسترا) ابنها، فتطارده آلهة العذاب عقابًا له على جريمته (من دون مطاردة إليكترا)، ويلتجأ أورستيس إلى معبد دلفي، حيث تجده إحدى الكاهنات مُلطخٌ بالدماء وأرواح الغضب تتطاير من حوله، فيغسّله بدماء خنزير لتطهيره (!)، ثم محاكمته، وبعد أن تتدخل آلهة الإغريق أثينا، تُعلن براءة أورستيس: ومن ثم تُرفع اللعنة عن البيت الملكي وأخيرًا، تقع إليكترا في غرام بيلادس (ابن الملك ستروفيوس) وتتزوجه، لقد ساعد بيلادس أخاها أورستيس في أثناء هربه وتخفيه من أمه وعشيقها، ومن ثم اشترك مع أورستيس وإليكترا في قتل (كليتمنسترا) وقتل عشيقها (أيجستوس).

صوّرت هذه الأسطورة التراجيدية الحرب الطروادية ومصير أبطالها بعد الحرب، بالقتل غدرًا وغيلةً. كما صوّرت قصة الانتقام والمؤامرة بلا عواقب دينية أو نفسية، وبأنّ انتقام أورستيس بقتل أمه كان انتقامًا عادلاً. وهذه الأساطير الإغريقية التراجيدية (التي وردت في ملاحم هوميروس وغيره)، هي التي صاغت التاريخ الغير الرسمي للعالم الغربي!!!

تعقيب: لا يوجد في قصص التاريخ الإغريقي أو الروماني حسّ للرحمة أو تفريق بين الصحّ والخطأ، فآلهة الإغريق الذكور (والإناث) تتصرف كالبشر فتفعل الخير أحيانًا، وأحيانًا ترتكب الخطايا والذنوب، وتفعل كل أفاعيل السوء(!) فهي تقتل، وتغتصب، وتزني، وتغشى المحارم (سفاح القربى كوقوع الأب على ابنته والأخ على أخته – معاذ الله)، وتخون، بل وتأكل أعداءها (من البشر أو الآلهة الأخرى) – ولا عجب إذن أن تشعر إناث الآلهة بالغيرة وحب الانتقام من أفاعيل رفاقها الذكور من الآلهة، ولقصص وأساطير التاريخ اليوناني هذه أبلغ التأثير على تصرفات وسلوك شعوب الإغريق والرومان، بل وشعوب الأنجلوساكسون والشعوب الأوروبية عمومًا، حيث يتأسى البشر بآلهة الإغريق القدوة ويتبعون أفعالهم في حياتهم.

ولكن حياة بسطاء الإغريق الأوائل لم تكن محكومة بهذه الآلهة، لأن الآلهة ذاتها محكومة بالقدر المحتوم (من الله القدير، لكن الأساطير الإغريقية لا تذكره)، ففي الأساطير اليونانية نرى النبوآت المشؤومة التراجيدية، ومن ثم قوة القدر القاهرة التي تحني الآلهة وتحني الناس لإرادة هذا القدر (الرباني)، ولا ينفع مع النبوءة وتقدير الأقدار أي عمل إرادي أو غير إرادي لمنع وقوع الابتلاء وتحقيق العقوبة (في الإسلام لا يعرف المرء أصلاً: ما هو قدره؟ ثم إنّ قدّر الله عليه شيئاً من الابتلاء الدنيوي، فإنّ الدعاء والصلاة والتوبة تنفع بتلطيف الابتلاء أو حتى رفعه). ففي قصة أوديب لم تنفع الخطط والهرب مما قُدّر عليه من قتل أبيه والتزوج بأمه (دون علمه)، ولم ينفع أخيليس غمرُ أمّه له في مياه نهر (ستايكس) لجعله بطلاً خالداً لا يموت ولا يقهر – لأن كعبه أو عرقوبه الذي مسكته أمه منه لتغمره بالمياه، هو العضو الذي لم يمسسه ماء، فكان أن قُتل أخيليس بسهم في عرقوبه.

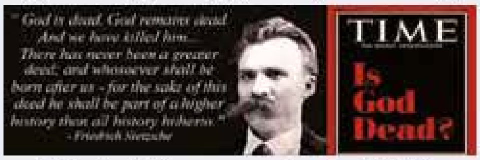
نهاية فرويد ورحلة العذاب: لعل طلاقة لسان "فرويد" في الجنس اقتضت أن يكون عقابه من جنس العمل، ففي 1923، اكتشف "فرويد" ورمًا حميدًا في فمه (leukoplakia) – صار سرطانًا- بسبب كثرة التدخين، حاول إخفائه ولم يفلح، وأبلغ أصحابه كذبًا برفعه، وحاول فرويد الانتحار مرات عديدة بسبب حالات الندم والحسرة على كتاباته أواخر عمره، استشار فرويد طبيب الأمراض الجلدية الذي نصحه بالإقلاع عن التدخين

ولكنه قلل من أهمية ورمه، وفي استشارة ثانية نصحوه بإزالة الورم لأنه سرطاني، ثم قام طبيب الأنف بجراحة تجميلية له في العيادات الخارجية نزف منها "فرويد" في أثناء وبعد العملية، وبالكاد نجا من الموت، وبرغم علم طبيبه بالسرطان والحاجة لعملية جراحية أخرى، لكنه ارتأى عدم الإفصاح لـ "فرويد" الذي كان مُكتئبًا لدرجة الانتحار، بحلول سبتمبر 1939، استشرى السرطان بفكّ "فرويد" مسببًا آلامًا شديدة متزايدة وصار الورم غير صالح للاستئصال الجراحي، فاستشار طبيبه، وصديقه اليهودي ماكس شور (كانا سويًا لاجئين في لندن)، مُذكّرًا إيّاه بحكم الصداقة أن ينقذه من العذاب، وتحدث الأخير مع ابنته (آنا فرويد)، ووافقا على إنهاء حياة "فرويد" بجُرعات من المورفين، أسفرت عن وفاة "فرويد" يوم 23 سبتمبر 1939، وبعد ثلاثة أيام من وفاته تم إحراق جسم "فرويد" في محرقة غولدرز الخضراء شمال لندن (Golders Green Crematorium) وبإمرة هارودز Harrods) صاحب محل التسويق المشهور في نايتسبريدج of Knightsbridge) بناء على تعليمات ابنه (إرنست)، ووضع رماد "فرويد" في وقت لاحق في جرّة يونانية قديمة تلقاها فرويد بنفسه كهدية من الأميرة (بونابرت) وكان يحتفظ بها في غرفة دراسته في فيينا لسنوات طويلة.

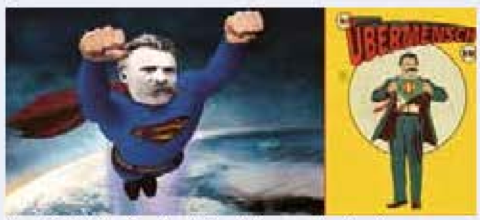
7. فريدريك نيتشه 1844 - 1900 Friedrich Nietzsche الألماني: له تأثير عميق على الفلسفة الغربية والفكر الحديث، في سنّ الـ 24 عام 1869، أصبح أصغر أستاذ في العالم يشغل كرسيّ الفلسفة الكلاسيكية على الإطلاق في جامعة بازل، استقال عام 1879 (بعد عشر سنوات من تعيينه) بسبب مشاكلاته الصحية، وفي عام 1889، في سن الـ 44، عانى من انهيار وفقدان تام للقوى العقلية التي كانت تُنسب إلى شلل جزئي عام بسبب مرض الزهري الدرجة الثالثة Tertiary syphilis، وعاش سنوات حياته الباقية في رعاية والدته، ثم أخته وتوفي في عام 1900 مما يعتقد أنه سكتة دماغية في مصحّة عقلية، من أقواله: «بدون موسيقى تصبح الحياة مخطوءة Without music, life would be a mistake»، لكنه اشتهر ببغضه للمسيحية، فكان يقول: «إن فكرة المسيحية عن قبح العالم وشروره قد جعلت العالم قبيحًا وشريرًا»، وكان يقول: «أنا أؤمن بالرب لأنني ضعيف باعتبار أنّ الإيمان بالله دليل ضعف الشخصية!!! لذا فقد أوصى أخته: «إذا ما متُّ يا أختاه، فلا تجعلي أحد القساوسة يتلو عليّ بعض الترّهات، إن الرب شمّاعة تعلقون عليها خطاياكم»، وكان جريئًا في الإفصاح عن فلسفته بضرورة (قتل وإعدام وإعلان موت الإله الربّ) وعزله تمامًا عن الحياة العامة، وكان يقول: «بعد إعدام الربّ، أنا جاهز لحكم العالم»، وكانت مقولته في (موت الربّ) وجعل الإنسان: الربّ البديل أو الإنسان السوبرمان، هي إرث فلسفته الأكبر بعد مماته، والتي اقتنصتها وسائل الإعلام العالمية لتكون عنوان غلافها.

إنّ مقولة (الربّ ميت أو موت الربّ - God is dead or death of God) هي عبارة فريدريك نيتشه الشهيرة: ظهرت عام 1882 في كتابه: (علم الفرح- The Gay Science)، ومن ثم ارتبطت بكتاب نيتشه (هكذا تكلم زرادشت - Thus Spoke Zarathustra)، الذي روّج هذه المقولة، ووضحت الفكرة في رواية (الرجل المجنون - The Madman) في "علم الفرح"، وهي حكاية رمزية عن مجنون مع فانوس، ويبحث عن الله، إلا أن مواطنيه يسخرون منه عندما يصرخ: أين اللهُ؟ فتكون الإجابة:

(الربّ ميّت، ويبقى الربّ ميّتًا، ونحن الذين قتلناه، كيف ستريح أنفسنا، قتلة من بين كل القتلة.. ليس هناك عمل أعظم: وكل من يولد بعدنا - لأجل هذا العمل سيكون جزءًا من تاريخ أرفع من كل التاريخ السابق، ألا يجب أن نكون أنفسنا آلهة ببساطة لنبدو مستحقّين هذا العمل).



مجلة (تايم) الأمريكية تروّج مقولة نيتشه (هل الربّ ميّت؟) على غلافها، ومقولة فريدريك نيتشه: (الربّ ميت، ويبقى الربّ ميتًا، ونحن الذين قتلناه.. ليس هناك عمل أعظم: وكل من يولد بعدنا - لأجل هذا العمل سيكون جزءًا من تاريخ أرفع من كل التاريخ السابق)



تنبأ نيتشه بالإنسان السوبرمان الربّ البديل (للربّ الميّت)، كما صوّروه في الصورة الأولى (اوبرمانش على غلاف مجلة باللغة الألمانية، حيث تبتدأ أولى حروفها U على صدره)، والثانية (سوبرمان بالإنجليزية، حيث تبتدأ أولى حروفها S على صدره).



صور كاريكاتورية، الأولى من اليمين: تقول امرأة لحبيبها لحظة النشوة (أوه ربي)، فيجيبها حبيبها (الربّ ميت)! والثانية: تضع صليب المسيحية بتهكم فوق عبارة (كن هادئًا فإن الربّ ميّت)! والثالثة: تضع على صورة نيتشه مقولته (الربّ ميّت - نحن نحاول لتونا التخلص من الجثمان)!



صور كاريكاتورية مُضادة، الأولى من اليمين: (الربّ ميت) مقولة نيتشه عام 1883، وتحتها (نيتشه ميّت) قرار الربّ عام 1900.
والثانية صورة نيتشه عام 1899 المصاب بانهيار عصبي (بين 1889 - 1900) أدى لموته: تقسيم بعقله بالباطل فأصيب بعقله عقابًا من جنس العمل، والثالثة: تضع أمام صورة نيتشه (العواقب المترتبة على قتل الإله)

ذلك لأن نيتشه رأى أن المسيحية هي الانعدامية (Christianity as nihilistic)، ومن هنا صار الإنسان لا الرب هو الكائن الأعظم في فلسفة نيتشه (Not God, but man is the supreme being).

أثر نيتشه على هتلر: أُغرمَ نيتشه بالعرق الأشقر القوي السيّد Magnificent Blonde Brute Race المنتشي بالنصر والغلبة، إشارة منه للحكام النبلاء البيض: وبذلك تكوّن سوبرمان نيتشه "Übermensch". ويؤكد نيتشه على نظام صارم لتحسين النسل ينبغي أن يُنفّذ دون اعتبار لمنزلة أو نسب أحد، ويصرّ على أن هناك أناسًا "غير أصحاء" لا بد من القضاء عليهم، ويخشى نيتشه من تهجين الذرية بتزاوج "مختلّي النسل" هؤلاء، مع الأصحاء.

شارك هتلر أفكار نيتشه في تأليه الجماعة على الفرد في كتابه (كفاحي): "ضرورة التضحية بالوجود الشخصي لأجل ضمان الحفاظ على نوع الجماعة". وفي عام 1938م أهدى هتلر "الأعمال المختارة" لـ نيتشه إلى الرئيس الإيطالي موسوليني في لقاءهما على ممر برينر Brenner Pass، وصار إعلان (الرب ميت) إيذانًا بميلاد (رب جديد)!!!

ومن اقتباسات ما قاله هتلر:

"الرجل أصبح هو الإله - هذه هي الحقيقة البسيطة. الإنسان هو الربّ في طور التكوين." مع رؤية مستقبلية لـ: "سباق العرق الجريئ الحاكم في بناء نفسه ... وينبغي أن يكون الهدف هو إعداد تقييم جديد لقيم إنسان جديد - موهوب في فكره وقدرته، وهذا الرجل — مع النخبة من حوله سيصبحون "لوردات الأرض"!

مرة أخرى، يتحدث نيتشه عن سباق "عرق" معين، سباق عنصري واضح لا جدال فيه، وبذلك تصبح نبوءة نيتشه مركزية لأهداف هتلر بنهاية المطاف: ألا وهي الإنسان السوبرمان "Übermensch"، بل إن هتلر في كتابه (كفاحي) لطالما كان يشير لعبارة "لوردات الأرض"، وهكذا نرى الاستمرارية الفكرية بين نيتشه وهتلر.

كان هتلر هو المثال الأعلى والتجسيد الحيّ لـ "سوبرمان نيتشه": احتضن هتلر كلاً من الداروينية والفلسفة النيتشوية، لأن الداروينية تتمحور على سيطرة القوي على الضعيف، وكانت بالنسبة لهتلر ممتازة، وبالفعل عدّ هتلر نفسه ذلك "السوبرمان" في فلسفة نيتشه، والذي قهر كلَّ معارضيه، ووظّف فكرة نيتشه حول الأناس المتفوقين، سعيًا لإقناع الشعب الألماني بأنهم ذلك "العرق المتفوق Master Race".

وحمل هتلر أفكار داروين ونيتشه لاستنتاج منطقي ابتدأ بأخلاقية إلحادية، وانتهى بهيمنته على أوروبا وقتل الملايين.

لقدّ وجّه نيتشه قبضته ضدّ الله، ولكن نيتشه مات ولم

يمت الله (حاشاه). وكانت الكلمة الأخيرة لله الواحد القهار.

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ الجاثية:23-24. وجاء في الإنجيل "يقول الجاهل في قلبه لا يوجد إله" (مزامير 14: 1).



صور مُعبّرة للفلسفات المُدمرة، الأولى من اليمين: أدولف هتلر المؤمن بتفوق العرق الجرماني وبالبقاء للأصلح يتوسط كانتون يميناً وداروين يساراً. والثانية: أدولف هتلر النازيّ الذي أشعل فتيل الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945) يقف وراء نيتشه الفيلسوف المُنظر لـ "السوبرمان". والثالثة: هتلر المفتون تماماً بـ(نيتشه) لدرجة صُنع تمثال له في غرفته الخاصة.

لعنة السوبرمان Superman curse (أي لعنة الله على شخوص السوبرمان)

كان استحداث الرجل الخارق وتأليهه عوضًا عن الله مجلب نحس ولعنة عليه وعلى كُتّابه والسوبرمان هو الرجل الخارق حامي أمريكا ورمز بطولتها المُحبط لمحاولات المجرمين للسيطرة على أمريكا والعالم (يقابله جيمس بوند عميل المخابرات البريطاني)، وشخصية السوبرمان يتقمصها ويعيشها ممثل السوبرمان، الذي يختال بين الناس، ويكاد يُصدّق نفسه أنه رجل خارق، لدرجة أن يظن أنه صار هذا السوبرمان حقًا وحقيقة، بل يعتقد أنه والسوبرمان شخص واحد، فيقوم الناس في الحياة الاجتماعية بحيّونه: صباح الخير يا سوبرمان، أو كيف حالك يا سوبرمان؟!

تشير (لعنة سوبرمان) لسلسلة محن مترابطة ابتلي بها المبدعون المشتركون بتمثيل شخصية سوبرمان في وسائل الإعلام المختلفة، وخاصة الممثلين الذين لعبوا دور سوبرمان في السينما والتلفزيون، وهذه "اللعنة" كثيرًا ما ترتبط بـ جورج ريفز، الذي لعب دور البطولة في مغامرات سوبرمان في التلفزيون 1952– 1958، وتوفي بطلق ناري



كريستوفر ريف صاحب شخصية السوبرمان، أصيب بلعنة السوبرمان فسقط على رأسه من فوق حصانه أُصاب بشلل أطرافه الأربعة، وصورة له قبل وبعد الإصابة، وكيف جنّد أمواله وممتلكاته وقفًا خيريًا لمرضى الحبل الشوكي

في سن 45 في ظروف غامضة (قيل رسميًا أنها انتحار)؛ وكريستوفر ريف، الذي لعب دور البطل الخارق في أربعة أفلام للفترة 1978– 1987، ولعله شعر بالعظمة حقًا فانتقم الله منه بوقعة من عثرة حصان 1995 كُسرت رقبتُه إثرها، وأودت بشلل أطرافه الأربعة، وتنفس اصطناعي جعله يتواضع، ويضع أمواله وقفًا خيريًا، وتوفي بعد تسع سنوات في سن 52.

المتوفون من ممثلي سوبرمان: ضحايا اللعنة

لي كويغلي Lee Quigley: لعب دور سوبرمان الطفل في فيلم عام 1978، توفي عام 1991 في سن 14 بسبب تعاطي المذيبات.

جورج ريفز George Reeves لعب دور البطل بفيلم (سوبرمان) عام 1951 مع مسلسل تلفزيوني (مغامرات سوبرمان)، كان منسجمًا بدوره للحصول على مزيد من العمل، ولكن في 16 حزيران 1959، وقبل أيام من زواجه، عثر على ريفز مقتولاً بطلق ناري في منزله، وتقرر أنه انتحار، لكن لا وجود لبصمات ريفز على المسدس، وله علاقة غرامية مع زوجة منتج MGM إدي مانيكس، ألهم موت ريفز "نظريات المؤامرة" وأسطورة لعنة السوبرمان.

كريستوفر ريف Christopher Reeve: لعب دور سوبرمان/ كلارك كينت في سلسلة أفلام سوبرمان، (سوبرمان: الفيلم – 1978)، (سوبرمان الثاني – 1980)، (سوبرمان الثالث – 1983)، و(سوبرمان الرابع: البحث عن السلام – 1987)، ارتبط ريف بشكل وثيق بدور السوبرمان، وكان من الصعب عليه الحصول على أدوار رئيسية بأفلام أخرى، صار مشلولاً من الرقبة للأسفل بعد أن ألقي من فوق حصانه في فروسية المقاطعة يوم 27 مايو عام 1995، توفي ريف في 10 أكتوبر عام 2004 بسبب فشل قلبه.

ويُستشهد بـ(مارلون براندو Marlon Brando)، الذي لعب دور (جور إيل) في فيلم 1978، وباء بسوء حياته الخاصة، كإطلاق ابنه كريستيان النار على صديق أخته شايان عام 1990 وسجنه لعشر سنوات، واعتراف براندو بالمحكمة إنه خيّب ظنون أولاده، ثم انتحار ابنته عام 1995، وانطوائيته، وتوفي عام 2004، أربعة أشهر قبل شريكه السوبرمان: كريستوفر ريف.

مارغو كيدر (Margo Kidder)، التي لعبت دور الحبيبة (لويز لين) لسوبرمان، عانت من اضطرابات نفسية شديدة، وفي أبريل 1996، اختفت لعدة أيام ووجدتها الشرطة بحالة ضياع، رفضت كيدر فكرة اللعنة في مقابلة عام 2002: (هذا من صنع الصحف الهابطة، عندما تحطمت سيارتي في آب/ أغسطس، لو لم أصدم عمود تلغراف وتدحرج سيارتي 3 مرات).

الكوميدي ريتشارد بريور (عانى إدمان المخدرات مع محاولته الانتحار، وكادت تودي بحياته) تألق كشرير (جوس جورمان) في فيلم (سوبرمان الثالث 1983).

ومن ثم تحول لجانب سوبرمان نهاية الفيلم، وصار بطلاً، بعد ثلاث سنوات، أعلن إنه مصاب بتصلب الأعصاب المتعدد (multiple sclerosis) ثم توفي بسكتة قلبية في 2005 عن سن 65.

دانا ريف: وردت اللعنة بشأن وفاة أرملة الممثل كريستوفر ريف، التي، برغم كونها غير مدخنة، ماتت بسرطان الرئة عام 2006 في سن 44.

جيري سيغل وجو شوستر (Siegel & Shuster)، الكاتب والفنان اللذان شاركا في خلق شخصية السوبرمان، باعا حقوق الرواية لـ (دي سي كوميكس DC Comics) بسعر رخيص نسبيًا، اذا ما قورن بالمال الذي جناه السوبرمان على مدى العقود، وبرغم الجهود المتكررة بقية حياتهم لاستعادة الملكية القانونية للسوبرمان، وحصة من الأرباح الهائلة لـ (دي سي كوميكس)، ثم تجديد حقوق الملكية بلا اكتراث، وبحلول 1950 تدهور بصر شوستر مما منعه من الرسم، وصار يعمل موصل طلبات لأجل كسب لقمة العيش، وبالصدفة سلّم شوستر طرداً لمبنى (دي سي كوميكس) مما أحرج الموظفين، فاستدعاه الرئيس التنفيذي، وأعطاه مئة دولار، لشراء معطف جديد ونصحه بوظيفة أخرى، وبحلول عام 1976، كان شوستر شبه أعمى ويعيش بدار رعاية في كاليفورنيا، في عام 1975، أطلق سيغل حملة دعائية، شارك فيها شوستر، احتجاجًا على معاملة (دي سي كوميكس) لهما، بمواجهة الدعاية السلبية (وبسبب فيلم سوبرمان القادم)، قامت الشركة الأم (وارنر للاتصالات Warner Communications) بإعادة العلاوات المحذوفة لأكثر من ثلاثين عامًا، ومنحت الاثنين معاشًا تقاعديًا مدى الحياة 20.000 مع فوائد صحية، مات شوستر عام 1992 وسيغل عام 1996.

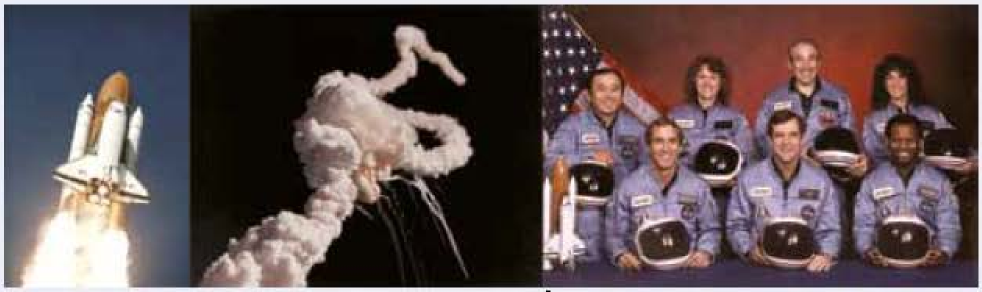
الإخوة (ماكس فلايشر وديف فليشر Max Fleischer & Dave Fleischer) اللذان أنتجا رسوم كارتون سوبرمان (باراماونت Paramount) بدءا شجارًا مع بعضهما انتهى بكارثة مالية للاستوديو، بعد بيع أستوديو باراماونت، طرد المُلاّك الجدد الشقيقين، وتوفي أحدهما بفقر مدقع.

كيت بوسورث (Kate Bosworth) لعبت دور لويز في فيلم (عودة سوبرمان)، بالرغم أنها لم تعانِ أي حوادث أو أمراضًا، لكنها صرّحت بفقدانها علاقتها الرومانسية مع الممثل أورلاندو بلوم عام 2006، وألقت باللائمة على لعنة السوبرمان!!!

لعنة الـ "تيتانك": وهكذا كان حال أعظم سفينة بُنيت (تيتانك Titanic التي قال مهندسوها: إنها لا تُقهر ولا تغرق The invincible, the unsinkable) عام 1911، بل قال أحد مهندسيها (موظف خط النجم الأبيض، لحظة انطلاق سفينة تيتانيك، 31 مايو 1911 Employee of the White Star Line, at the launch of the Titanic):



غرق السفينة تيتانك أو السفينة التي لا تقهر ولا تغرق في أول رحلة بحرية لها عام 1912 (الصورة الأولى). فصارت أثرًا بعد عين وخبرًا يُحكى (الصورة الثانية). ومات قرابة 1500 راكب من مجموع 2200 راكب (الصورة الثالثة).



طاقم سفينة الفضاء المتحدية Challenger السبعة الذين قُتلوا في انفجار السفينة بعد اقلاعها.

"حتى الله نفسه لا يستطيع أن يغرق هذه السفينة". "Not even God himself could sink this ship". فأغرقها الله في أول رحلة بحرية لها !!!

عاقبة تحدّي الله: وحين أساءت ناسا NASA تسمية سفينة الفضاء وسمّتها (المتحدية) Challenger (أي المتحدية لله !) أسقطها الله في بداية رحلتها الفضائية، وقتل طاقمها السبعة بالكامل.

وأما في الاسلام فقد فهم المسلمون دورهم منذ البداية، أنهم خلفاء الله في الأرض، وأنهم جند الله وعبيده، واقتدوا برسولهم الكريم (صلى الله عليه وسلم) الذي فتح مكة وهو مطأطئ الرأس لله الواحد القهّار.

وهذا عمر بن الخطاب يفتح القدس وهو يجرّ دابته وغلامه عليها أمام عنجهية الروم، بل ويغسل بيت المقدس بيديه.

وهذا صلاح الدين يفتحها ثانية، وهو مذعن لله ساجد له، ويغسل بيت المقدس بماء الورد بيده.

وهذا محمد الفاتح يفتح القسطنطينية التي استعصى فتحها على الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين قبله، فدخلها وهو حامدٌ لربّه مطأطئ رأسه اقتداءً بالمصطفى (عليه الصلاة والسلام) عند فتحه مكة المكرمة.

ولقد أراد بيبرس تلقيب نفسه بالملك القاهر، وجلس على تخت الملك في اليوم الثاني، فأشار عليه وزيره (زين الدين ابن الزبير، وكان منشئاً بليغًا)، بأن يُغيِّر هذا اللقب، وقال له: «ما لُقِّبَ به أحدٌ فأفلح. لُقِّبَ به القاهر ابن المعتضد فسُمِل بعد قليل وخُلِع، ولُقِّبَ به الملك القاهر ابن صاحب الموصل فسُمّ». فأبطل السلطان هذا اللقب وتلقب بالملك الظاهر.

وأخيرًا هؤلاء هم الفلاسفة السبعة: الذين صاغوا محصلة فلسفة الغرب الإلحادية العنصرية العدوانية التي جرّت العالم لحروب طاحنة، وحوّلت الإنسان لمنزلة



منحطّة عن منزلة الحيوان، بل صار الحيوان اليوم أرقى من الإنسان، وبريء من أفعاله (الصورة). فلا غرو أن نقرأ في البرتوكول الثاني من (بروتوكولات حكماء صهيون) ما نصّه:

(إن الطبقات المتعلمة ستأخذ جزافًا في مزاولة المعرفة التي حصلتها من العلم الذي قدمه إليها وكلاؤنا.. ولاحظوا هنا أن نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل ... والأمر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي واضح لنا بالتأكيد).

نتائج وافرازات الفلسفة الغربية:

لها عواقب بعيدة النظر، عميقة الأثر، شديدة الخطر:

1. فصل الدين عن الدولة والحياة والتشريع secularism بتنحية الدين والإيمان وعزل الله عن الدولة والحياة والتشريع؛ ابتدأت ارهاصاته مع الثورة الصناعية، وصار رسميًا مع الثورة الفرنسية 1798. ومهدت نظريتا داروين وماركس لانتصار العلم والمادة على الدين والروح، بل وأطلقت رصاصة الرحمة على الدين (النصراني). وبفلسفة نيتشه توّج الإنسان؛ بوصفه الإله المشرّع المبدع للقوانين (لا عبد الله وخليفته على الأرض): Man as a God not a worshipper of God ، وصارت المسؤولية أمام القانون وليس أمام الله: Accountability before Law not God. هنا تتمايز فلسفة الشرق عن الغرب في منعطف مفصلي خطير، فالله الخالق المشرع هو قضية مركزية يتمحور حولها تفكيرنا وسلوكنا في الشرق، بينما الله قضية هامشية في الغرب. واندقّ إسفين الاستقطاب polarization بين العلم والدين، بدل التكامل والتوازن بينهما.

2. صار العلم والطبيعة Science and Nature (!) بديلاً عن الإيمان بالله، وصار العلم الحديث ديناً يتعبد به ويدين به الغرب، وأضحى الدين أفيون الشعوب (المقصود هو النصرانية)، وأن من يدين لله إنما هو إنسان ضعيف أو مصاب بمرض العُصاب. وتضخمت حقول العلم والمعرفة، وانتعشت روح المغامرات العلمية الاستكشافية (كغزو الفضاء) مع خيال خصب لدرجة لم يعهدها العالم من قبل، وكانت (للأسف) على حساب الإيمان بالله واختلال التوازن بين العلم والإيمان. وصار الغرب مستعليًا بمعارفه وتجاربه وتفوقه العلمي على باقي العالم، فتكونت لديه ما يُسمى Eurocentric vision أي أنه ينظر بمرجعية ومركزية أوروبا للعالم، ويتكلم بصيغة (الغرب والبقية West and the Rest). وكان من إفرازات العلم الحديث طَرْقُ أبواب لم تُطرق من قبل بالمرة: كاحتجاجهم بالتوليد التلقائي Abiogenesis أي توليد حياة من الجماد (!)، وكالتلاعب بالجينات Bioengineering بلا قيود (مثل توليد دجاج بلا ريش، وكلاب مهجّنة مُضرّبة عجيبة الشكل والخلقة) وتصنيع الكيمياويات المحرمة وقنابل ذرية وهيدروجينية وفسفورية وأسلحة دمار شامل استخدمت في الحروب العالمية الاولى والثانية وفي فيتنام والعراق، وبنتائج مروّعة. بل حتى في أدبياتهم صار الإنسان هو الخالق، كما في قصة الوحش فرانكنشتاين Frankenstein (Novel by Mary Shelley). وفي الجانب الإيجابي فقد أدّى تأليه وتضخم العقل الغربي لسلاسة وسهولة الحياة ووفرة الخدمات (بسبب التقنية العالية Hi-Tec) وسهولة الاتصال والمواصلات، وقيام نظام اداري فائق مع دولة مؤسسات رائدة.

3. انتفى مفهوم الحياة الأخرى ويوم القيامة والحساب والجنة والنار، فصارت المادة والمال والجسد أساس الحياة كلها. أمست الروح قضية لا تذكر بل اذا عُرِّفت علميًا فهي مجرد شرارة كهربائية(!)، وصارت القضايا الروحية قضايا مُهمّشة لا وزن لها. وبغياب الوازع الديني صار (تصنيع الكذب) والغاية تبرر الوسيلة ضرورة إدارية ودبلوماسية في إدارة الشركات والأعمال والمستشفيات، وفي السياسة الخارجية والداخلية. ووظِّفت سياسة "فرق تسد" (Divide and Rule) وسياسية الفوضى المبدعة وتصدير الديمقراطية للشرق، فدُمِّرت دول الشرق الأوسط، الواحدة تلو الأخرى للهيمنة على مقدراتها.

وانتشر الخداع والسرقات المُقننة رمزًا للذكاء الإداري والتسويق التجاري Management and Marketing، وشاعت المصلحة على كل اعتبار What is in it for me فلا وجود للكرم والإيثار عند الغربيين. ولغياب الرقيب الأخلاقي عند الغربيين صار الزنا والخمر راحة نهاية الأسبوع وأنسه. وأضحت (أنت تعيش مرة واحدة فقط) مقولة الغرب برأسماليه وشيوعييه (You Only Live Once – YOLO)، ولا سَنَدَ لها في فلسفة الشرق المتمركزة على الحياتين: (الفانية والباقية) أي حياة الدنيا في عالمنا المشهود، وحياة الآخرة في العالم غير المشهود. (أنت تعيش مرة واحدة فقط) لها آثار عميقة في سلوكيات الغربيين وفنونهم في حب الحياة والمادة والجنس، وعدم الرحمة في قتل الشعوب وسرقتهم. وحب الجسد في هذه الحياة الوحيدة مهّد السبيل لعمليات تجميل لا حصر لها، بل ولعمليات تغيير الجنس التي لم يشهد التاريخ لها مثيلاً قط. وملأ الغرب فراغ الحياة الآخرة (التي لا يؤمنون بها) بكتابة وقراءة كتب الخيال العلمي وغير العلمي Fiction and Science Fiction وأفلام الأشباحGhosts and Ghost Busters والاهتمام بالتنجيم وأبراج الفلك وبعث الأساطير الإغريقية (كإله الإبداع الفكري Prometheus) وعودة الوثنية Paganism وعبادة الشيطان Satanism، للتعويض عن حاجة الإنسان الفطرية للإيمان بالغيب والله واليوم الآخر. وترى الغربيين يكبّون على قراءة كتب الخيال (التي تعجّ بها مكتباتهم) في القطارات والمطارات والطائرات والبواخر.

4. الأُنس بمعيّة الله (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) قوّضها الإلحاد بالله ومقولة "فرويد" بأن المؤمن بالله مريض، ومقولة "نيتشه" بأن الإيمان بالله دليل الضعف، أدّت لانتشار الكآبة والأمراض النفسية بالغرب مع انتشار الخمر والإدمان والمخدرات للتعمية على هذه الأمراض، والهروب من واقع الحياة Escapism from reality. حتى جاء من ينتقد فرويد، بل ويعالج المرضى بالصلاة والعودة لله مثل سكوت بيك في كتابه عام 1983بعنوان: (الطريق الأقل ارتيادًا) بيعت منه 6 ملايين نسخة لعطش الناس ومرضى الغرب له (M Scott Peck: The Road less travelled). وكلما انتقلت عدوى الإلحاد للشرق زادت أمراضه. بل جدّت أمراض ما أنزل الله بها من قبل؛ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ و (ما أنزل الله من بلاء بهذه الامة إلاّ بذنب، ولا يُرفع عنها إلاّ بتوبة).

5. مهّدت فلسفة فرويد للثورة الجنسية بتشعباتها العديدة: كزوال مفهوم الشرف، ودعم مفاهيم الدعارة إعلاميًا وسينمائيًا، وتهميش أهمية البكارة، والانغماس بالزنا، وانتشار البهيمية (التحيون: مضاجعة الحيوان Bestiality)، وتطبيع شذوذ المثلية الجنسية Homosexuality: Gays and Lesbians إضافة لإنتاج جيل طويل عريض من اللقطاء. كانت بريطانيا أكثر دول الغرب محافظة، لكن في آذار 2014 قُنّن زواج المثليين في بريطانيا المحافظة (بالقياس للفرنسيين والإسكندنافيين في أوروبا) ولأول مرة. وتضافر الكفر بالله الرقيب والكفر بيوم الآخر يوم الحساب ليمهد لحرية مطلقة عارمة مع اشتعال أوار الثورة الجنسية. صار الغرب بمؤسساته كلها مبنية على عدم الإيمان بالله، وجندت هوليوود مؤسساتها لإعادة كتابة تاريخ جديد بإخراج أفلام بهذا الاتجاه الإلحادي، وجندت وسائل الإعلام والموسيقى العالمية إخراج أغانٍ رائعة باتجاه الإلحاد (كما في أغنية جون لينين: تخيّل – imagine) وباتجاه حمى الجنس والإباحية المطلقة، كما في أغاني إيلفيس بريسلي وتوم جونز، وجند فلاسفة الثورة الجنسية المجتمع بهذا الاتجاه، فأُقيمت المخيمات نام فيها الشباب والشابات يستمتع أحدهم بالثاني على أنغام الموسيقى الجنسية الصاخبة.

6. انحلال واضمحلال مؤسسة الأُسرة بعدم الحاجة للزواج باكتشاف حبوب منع الحمل، وبأطفال تحت الطلب عن طريق بنوك المني (Semen banks)، مع الدعم القانوني للجنس ولإجهاض النسوة غير المتزوجات. وأُلقيَ الآباءُ والأمهاتُ في مصحّات العجزة، وعاش الغربيون فرادى (بعزلة قاتلة)، وانتشرعدم إرضاع الأطفال بحليب الأم (وإشكالاته المرضية) بسبب خروجها للعمل طوال ساعات اليوم (وفي حقول عمل قد لا تناسبها).

7. أدت فلسفة مالثوس الاقتصادية لتحديد النسل المنهج والصارم (تحت اسم تنظيم الأسرة)، وذلك بتداخل جراحي: بقص القنوات المنوية للذكور Vasectomy وعقد أنابيب الرحم للنساءFallopian tubal ligation ، وعضّده كالتون بنظريته بتحسن النسل Eugenics لتصفية المعوقين عن طريق تنظيم الأسرة. وانتشرت هذه العمليات كالنار في الهشيم في المجتمعات الغربية والأوروبية، مُنذرةً ببداية انقراض الجنس البشري الغربي (العرق الأبيض)، وتقويض النظام الغربي، ومحاولة ردم الفجوة ورأب الصدع إداريًا وخدميًا باستيراد الأجانب (عن طريق جاذبية الحوافز المادية للعمل في الغرب، وعن طريق تصدير الديمقراطية لدول العالم الثالث بتدميرها وإيجاد "الفوضى المبدعة" لدفع مواطنيها للهجرة للغرب – أرض الأحلام!).

8. اختلال موازين الحياة: فصارت رُتَبُ عناية الدولة بالحقوق حسب التسلسل التالي:

الحيوان أولاً، فقامت مؤسسات عديدة لحماية الحيوان

الطفل ثانيًا (الأولاد ملك الدولة)

المرأة ثالثًا

الرجل رابعًا

الشيوخ خامساً

الأجنبي سادسًا، خصوصًا الأجانب الزنوج السود واليوم العرب المسلمون!!!

•﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾•

9. تضافرت فلسفة الدارونية الاجتماعية أو العنصرية العلمية (!) لهربرت سبنسر مع فلسفة توماس مالثوس وأزمة مالثوس Malthusian crisis وتقديس القوة لمكيافيلي، لتشكل الأساس لاستعمار الغرب لدول العالم وإبادة الجنس البشري واستعباده في العالم (في الأمريكتين فقط، تم إبادة ما لا يقل عن 3 مليون من الهنود الحمر، ولتبرير قتلهم، أشاعوا مقولة مزيفة عن الهنود الحمر أن "الهندي الميت هو هندي جيد" (A dead Indian is a good Indian).

10. كانت فكرة دارون خطيرة لإفرازها فلسفة الدارونية الاجتماعية أو العنصرية العلمية (!) لمعاصره هربرت سبنسر (Social Darwinism or Scientific Racism) وتفوق العرق الأبيض والاحتقار التام للأعراق الأخرى، فصارت العنصرية من المصطلحات الغربية الدارجة وأضيف لها مصطلحان جديدان: هما:

- الفزع أو الخوف من الأجنبي (Xenophobia).
- الفزع أو الخوف من الإسلام (Islamophobia).

وتتضافر الكلمتان لتنتج العنصرية من كل أجنبي مسلم في الغرب.

وسنسلط الضوء ونغوص بتفاصيل كلٍ من هذه العواقب وتشعباتها وآثارها، كمفارقات بين الشرق والغرب.

أضف لذلك كله برودة المناخ الأوروبي المنعكس على برودة مشاعر ساكنيه وقلة غيرتهم وشذوذ أفكارهم.

وبرغم سلبيات الشرق فهم أصح عقلاً ونفسًا ومشاعر؛ وفعلاً (البيت الذي تدخله الشمس لا يدخله الطبيب)!

لعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان محقًا حين كان يدعو الله مخلصًا بدعاء استفتاح صلواته بقوله:

"اللهم باعد بيني وبين خطاياي، كما باعدت بين المشرق والمغرب"

(ولم يقل: بين المغرب والمشرق! أي أنه باعد بين نفسه الشريفة في المشرق –وكأن المشرق ملجأه ومثواه– بعيدًا جدًا عن خطاياه – وكأنها في المغرب (وحاشاه من الخطايا صلى الله عليه وسلم))!





التوسع العثماني.. مجاله وكيف وقع تنظيمه

د. علي عفيفي علي غازي

أكاديمي وصحفي


عبدالحميد الثاني


عبد المجيد الثاني


محمد الخامس

بلغت الدولة العثمانية ذروة مجدها وقوتها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فامتدت أراضيها لتشمل أنحاء واسعة من قارات العالم القديم الثلاثة: أوروبا وآسيا وأفريقيا، ووصل عدد الولايات العثمانية إلى 29 ولاية، وكان للدولة سيادة اسمية على عدد من الدول والإمارات المجاورة في أوروبا، وأضحت في عهد السلطان سليمان القانوني (1520-1566) قوّة عظمى تلعب همزة الوصل بين العالمين الأوروبي المسيحي والشرقي الإسلامي، ومن ثم يوصف عصر هذا السلطان بأنه العصر الذهبي للدولة العثمانية. فما هي مجلات التوسع العثماني؟ وكيف وقع تنظيمه؟

بعد وفاة أرطغرل تولى زعامة الإمارة ابنه البكر عثمان، فأخلص الولاء للدولة السلجوقية على الرغم مما كان يتهددها من أخطار، وأظهر براعة في علاقاته مع جيرانه، فعقد تحالفات مع الإمارات التركمانية المجاورة، ووجه نشاطه العسكري نحو الأراضي البيزنطية لاستكمال رسالة دولة سلاجقة الروم بفتح الأراضي البيزنطية، وشجعه على ذلك حالة الضعف التي دبت في الإمبراطورية البيزنطية، وانهماكها بالحروب في أوروبا، فأتاح له ذلك سهولة التوسع باتجاه الأناضول، وعبور الدردنيل إلى أوروبا الشرقية. ومن الناحية الإدارية، أظهر عثمان مقدرة فائقة في وضع النظم الإدارية لإمارته، بحيث قطع العثمانيون في عهده شوطًا كبيرًا على طريق التحول من نظام القبيلة المتنقلة إلى نظام الإدارة المستقرة، ما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها سريعًا إلى دولة كبرى.

أقدم عثمان بعد أن ثبّت أقدامه في إمارته على توسيع حدودها على حساب البيزنطيين، ففي عام 1291 فتح مدينة "قره‌جه‌حصار" الواقعة إلى الجنوب من سوغوت، وجعلها قاعدة له، وأمر بإقامة الخطبة باسمه، وهو أول مظهر من مظاهر السيادة والسلطة، ومنها قاد عشيرته إلى بحر مرمرة والبحر الأسود. وحين تغلب المغول على دولة قونية السلجوقية، سارع عثمان إلى إعلان استقلاله عن السلاجقة ولقّب نفسه "پادیشاه آل عثمان" أي عاهل آل عثمان، ويعتبر المؤسس الحقيقي لتلك الدولة الكبرى التي نُسبت إليه. وظلّ عثمان يحكم الدولة الجديدة بصفته سلطانًا مستقلاً حتى عام 1326 عندما احتل ابنه أورخان مدينة بورصة، الواقعة على مقربة من بحر مرمرة.

اهتم ابنه أورخان بتنظيم مملكته تنظيمًا مُحكمًا، فقسمها إلى ولايات، واتخذ من بورصة عاصمة، وضرب النقود باسمه، ونظّم الجيش، فألّف فرقًا من الفرسان النظاميين، وأنشأ من الفتيان المسيحيين الروم والأوروبيين الذين جمعهم من مختلف الأنحاء جيشًا قويًا عُرف بالإنكشارية، وعمل على توسيع الدولة. وفي عام 1337 شنّ هجومًا على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، ولكنه أخفق في فتحها. وثبّت أقدامه عام 1357 في شبه جزيرة غاليبولي. وتوفي أورخان في سنة 1360 بعد أن دعم الدولة الفتية بفتوحاته الجديدة وتنظيماته العديدة. وتولّى ابنه مراد الأول، الذي كانت أول فاتحة أعماله احتلال مدينة أنقرة، وتحالف مع بعض أمراء الأناضول، وضمّ جزءًا من الممتلكات التركمانية إلى الدولة العثمانية، ثم وجّه اهتمامه إلى شبه جزيرة البلقان، ففتح مدينة أدرنة سنة 1362، ونقل مركز العاصمة إليها وظلت عاصمة للعثمانيين حتى فتحوا القسطنطينية. وتولّى بعده ابنه بايزيد، فرأى أن الدولة قد اتسعت حدودها بشكل كبير، فانصرف إلى تدعيمها، وانتزع من البيزنطيين آخر ممتلكاتهم في آسيا الصغرى، وأخضع البلغار في عام 1393، وحاصر القسطنطينية مرتين، ولكن حصونها المنيعة صمدت في وجه هجماته العنيفة. وفي ربيع سنة 1402 تقدّم تيمورلنك زعيم المغول نحو سهل أنقرة لقتال بايزيد، فالتقى الجمعان ودارت معركة انهزم فيها العثمانيون وأُسر السلطان بايزيد، وحمله المغول إلى سمرقند عاصمة الدولة التيمورية، حيث عاش بقية أيامه ومات في سنة 1403.

بموت السلطان بايزيد تجزأت الدولة إلى عدّة إمارات صغيرة، واستقل في هذه الفترة الصرب والبلغار، ولم يبق تابعًا للراية العثمانية إلا قليل من البلدان، ولكن النصر كان آخر الأمر من نصيب محمد بن بايزيد، المُلقب بمحمد الأول، الذي استطاع أن يُعيد للدولة بعض ما فقدته من أملاكها في الأناضول. وبعده تولّى عرش السلطنة العثمانية مراد الثاني، فاستمر بإخضاع المدن والإمارات التي استقلت عن الدولة العثمانية، وحاصر القسطنطينية، ولكنه لم يُوفق إلى احتلالها، ثم حاول أن يعيد إخضاع البلقان لسيطرته، ففتح عدّة مدائن وقلاع وحاول أن يضم إليها مدينة بلغراد لكنه فشل في اقتحامها فكان هذا الهجوم إنذارًا جديدًا لأوروبا بالخطر العثماني.

وارتقى بعد وفاة مراد الثاني عرش العثمانيين ابنه محمد، فحشد لقتال البيزنطيين جيشًا عظيمًا مزودًا بالمدافع الكبيرة وأسطولاً ضخمًا، وحاصرهم من البر والبحر، واستماتت البيزنطيين في الدفاع عن عاصمتهم، التي دخلها العثمانيون بعد 53 يومًا من الحصار، وهُدمت أجزاء كبيرة من أسوارها بفعل القصف المدفعي المتكرر.

في بعض المواقع في جنوب العالم الإسلامي، ثم انبرى لقتال الشاه الفارسي، فالتقى الفريقان في سهل جالديران والتحما في معركة كبيرة كان النصر فيها لصالح السلطان سليم، وفرّ الشاه ناجيًا بحياته، أما سليم فتقدم إلى تبريز عاصمة خصمه الصفوي، فاستولى عليها وقفل عائدًا إلى بلاده.

تقدم العثمانيون، بعد انتصارهم على الصفويين، لإخضاع السلطنة المملوكية، فنشبت بينهم وبين المماليك معركة على الحدود الشاميّة التركية تُعرف بمعركة مرج دابق، انتصر فيها العثمانيون وقُتل سلطان المماليك قنصوة الغوري، ثم تابعوا زحفهم نحو مصر، والتحموا بالمماليك من جديد في معركة الريدانية، التي قررت مصير مصر، وانتصروا عليهم مجددًا ودخلوا القاهرة فاتحين، وفي أثناء ذلك قدّم شريف مكة مفاتيح الحرمين الشريفين إلى السلطان سليم اعترافًا بخضوع الأراضي المقدسة الإسلامية للعثمانيين، وعند نهاية حملته الشرقية، كان السلطان سليم قد جعل من الدولة العثمانية قوة إقليمية كبرى ومنافسًا كبيرًا للإمبراطورية البرتغالية على زعامة المنافذ المائية العربية، وتوفي السلطان سليم في سنة 1520، فارتقى العرش من بعده ابنه سليمان، الذي يُعرف باسم "القانوني"، وإذا كانت الفتوح في الشرق قد شغلت السلطان سليم طوال أيام حكمه، فكان طبيعيًا أن ينصرف السلطان سليمان إلى ناحية الغرب ليُتم الفتوح التي كان أسلافه قد بدأوها من قبله، ففتح مدينة بلغراد عام 1521، وضرب الحصار على مدينة فيينا النمساوية، وأحدث جنوده ثغرًا في أسوارها إلا أن الذخيرة والمؤن نفدت منهم، وأقبل فصل الشتاء فقفل راجعًا إلى بلاده، وفي عام 1532، عاود سليمان الكرّة، فحاصر فيينا من جديد، ولكن التوفيق خانه في حملته الثانية هذه أيضًا، فعقد مع فرديناند صلحًا احتفظ بموجبه بجميع ما استولى عليه من الأراضي المجرية، ومما دفعه لإبرام هذا الصلح توتر العلاقات بينه وبين طهماسب الصفوي، فدخل بغداد منتصرًا فاتحًا.

حقق العثمانيون أيام السلطان سليمان عدّة فتوحات بحرية مهمة، وضمت الجزائر، وتونس، واليونان، وطرابلس الغرب، وتوفي السلطان سليمان في سنة 1566، وكانت الدولة العثمانية آنذاك قد أصبح وجودها ضروريًا لحفظ التوازن السياسي في أوروبا، بينما أصاب الدولة الضعف والتفسخ، فقد كان السلطان سليم الثاني خليفة سليمان، سلطانًا ضعيفًا لا يتصف بما يؤهله لحفظ فتوحات أبيه، فضلاً عن إضافة شيء إليها، كما شهد عهده معركة "ليبانتو" البحرية، التي هزّت صورة البحرية العثمانية والجيش العثماني، الذي اعتبره كثيرون لا يُقهر، حيث اشتبك الأسطولان العثماني والأوروبي في معركة بحرية طاحنة هي إحدى أكبر المعارك في التاريخ، أسفرت عن انتصار الأوروبيين وانهزام العثمانيين هزيمة منكرة.


محمد الثاني يدخل القسطنطينية، بريشة جوزيف بنيامين.



الحصار الأخير للجيش العثماني لفيينا

وتولى ابنه مراد الثالث في عام 1574، وأهم حدث في عهده هو التوسع العثماني على حساب الدولة الصفوية، بعد وفاة الشاه طهماسب الأول.

تولّى عرش آل عثمان بعد مراد الثالث ابنه محمد الثالث، فقاد الجيوش بنفسه وخرج لقتال النمسا والمجر، وانتصر عليهم في موقعة كرزت عام 1596، وبعد وفاته تولى عرش السلطنة سلاطين أكثر ضعفًا وانغماسًا في الملذات، على الرغم من بروز بعض الشخصيات القوية منهم، مثل السلطان عثمان الثاني، ومراد الرابع، وشهد عهد السلطان عثمان الثاني سابقة هي الأولى من نوعها، وتدل على مدى الانحطاط الذي وصلت إليه الدولة، إذ تخاذل الإنكشارية في القتال، فأراد أن يؤدبهم ويستبدل بهم جنودًا جددًا مدربين، فثاروا عليه وقتلوه، وأعادوا عمه مصطفى إلى الحكم، وعمت الفوضى والثورات أرجاء الدولة العثمانية، إلا أن السلطان مراد الرابع استطاع أن يعيد للدولة بعض من وحدتها بقضائها على بعض الحركات الانفصالية التي قام بها الولاة، وفي عهد خليفته إبراهيم الأول دخل الأسطول العثماني جزيرة كريت من دون أن يلقى مقاومة تذكر، وبعد عزل السلطان محمد الرابع في سنة 1687، عمّت الفوضى، وتوالت الهزائم على الدولة العثمانية، ولم تحقق أي فتوحات جديدة وراء حدود السلطان سليمان القانوني، فكانت حروبها وفتوحاتها خلال هذه الحقبة لاسترداد ما ضاع منها. وسجّلت هذه المرحلة بداية اليقظة العثمانية بالانفتاح على الغرب، وترجمة بعض المؤلفات الغربية، وأخذت وجهة الإصلاح تتجه نحو الاقتباس من الغرب الأوروبي مع المحافظة على الأصول العثمانية الإسلامية.

بدأت محاولات الإصلاح الجدية في عهد السلطان سليم الثالث، الذي يُعدّ من أوائل المصلحين والروّاد في التاريخ العثماني، وواجهته في بداية حياته السياسية، المشكلات التقليدية القديمة: تفوّق الغرب، والاتجاه المحافظ لشعبه، وكان ميالاً للإصلاح بحيث لم يتردد في الأخذ بالأنماط الغربية، بعد أن تعرّف على أسباب تفوق المؤسسات المدنية والعسكرية لدول أوروبا الغربية، فجند الجنود النظامية ليتخلص من الإنكشارية، الذين أصبحوا منبعًا للفتن والهزائم، وكان من أبرز الأحداث التي وقعت في عهده الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت، واستقلال اليونان. وبعده تولى مصطفى الرابع، ولم يدم حكمه طويلاً قبل أن تثور الإنكشارية عليه، ويقوموا بعزله وتنصيب أخاه محمود الثاني، وفي بداية عهده استقلّت عدّة دول أوروبية عن الدولة العثمانية، وكانت بداية انشقاق أوروبا الشرقية عن الدولة العثمانية. وتتميز هذه المرحلة بانحدار الدولة العثمانية سريعًا وفقدانها معظم ممتلكاتها في أوروبا، وفي عهده احتل الفرنسيون الجزائر سنة 1830، وقرر محمد علي والي مصر أن يجتاح بلاد الشام بالقوة، في العام التالي، واستنجد السلطان بالدول الأوروبية للوقوف في وجه الخطر الداهم، وخلف السلطان عبدالمجيد الأول أباه، وهو صبيّ لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره، وكادت الدولة العثمانية على شفير الانهيار، إذ أصبحت بلا جيش، بفعل خسارة الجيوش العثمانية أمام المصريين، وتشتيت القوى المسلحة، وبلا أسطول، بفعل انضمام الأسطول العثماني طواعية إلى الأسطول المصري في الإسكندرية، وازدادت الدولة ضعفًا على ضعف، مما زاد من أطماع الدول الأوروبية فيها، فدُعيت باسم "الرجل المريض"، وأخذ الأوروبيون يخططون لاقتسام تركتها.

توفي السلطان عبد المجيد في يونيو 1861، بعد أن قام ببعض الإصلاحات الكبيرة في الدولة، وبويع السلطان عبدالعزيز الأول بعد وفاة أخيه، وتولّى مراد الخامس ابن شقيقه، ثم عبد الحميد الثاني الذي بويع بالخلافة وعرش السلطنة في وقت كانت الدولة تمر بأزمات حادة ومصاعب مالية كبيرة، وتغلغت الأفكار القومية بشكل كبير في جسم الدولة العثمانية أواخر عهد السلطان عبدالحميد الثاني، وتولى محمد رشاد الخامس العرش والدولة تحتضر، فسيطرت الإمبراطورية النمساوية على البوسنة والهرسك، وسقطت ليبيا في يد الإيطاليين، وكانت آخر الممتلكات العثمانية في شمال أفريقيا، وفقدت الدولة العثمانية ما تبقى في البلقان، وفي سنة 1922 تمّ خلع آخر السلاطين محمد السادس (1918-1922) وألغى مصطفى كمال أتاتورك الخلافة نهائيًا سنة 1924، وانتهت الدولة العثمانية بصفتها السياسية في الأول من نوفمبر 1922، وأزيلت بوصفها دولة قائمة بحكم القانون في 24 يوليو 1923 بعد توقيعها على معاهدة لوزان، وزالت نهائيًا من الوجود في 29 أكتوبر من السنة نفسها بإعلان الجمهورية التركية، التي تعد حاليًا الوريث الشرعي للدولة العثمانية.

المراجع

- إبراهيم بك حليم: تاريخ الدولة العثمانية العلية المعروف بكتاب التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية. (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، 1988).
- أحمد عبدالرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني. (القاهرة: دار الشروق، 2003).
- إسماعيل أحمد باغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث. (الرياض: مكتبة العبيكان، 1995).
- محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي. (بيروت: دار النفائس، 1981).
- محمود محمد الحويري: تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى. (القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 2002).



المقاهي الأدبية
(سيرة ذاتية)

صلاح عبد الستار الشهاوي

باحث في التراث العربي - مصر



اليونسكو يدرج المجلس والقهوة العربية في القائمة التمثيلية للتراث الإنساني.

في دورتها العاشرة التي عُقدت في ويندهوك (عاصمة ناميبيا) في شهر ديسمبر 2015م وافقت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) على إدراج ملفي المجلس والقهوة العربية رسميًا في القائمة التمثيلية للتراث الإنساني لدى اليونسكو. والحقيقة إن إدراج المجلس والقهوة العربية ضمن القائمة التمثيلية للتراث الإنساني لمنظمة اليونسكو يكتسي أهمية بالغة في المشهد الثقافي العربي، هذا الإدراج يُسهم في صونهما وزيادة الوعي بأهميتهما باعتبارهما علامتين بارزتين من علامات الإبداع البشري، ومحفزين للتنوع الثقافي الذي يحقق الاستدامة.

المقهى لغة:

كلمة مقهى هي الصواب اللغوي والجمع مقاهٍ، إشارة إلى بيوت القهوة التي غدت تسمي باسم – القهوة- دلالة على المحل الذي تشرب فيه القهوة. لأن الكلمة عامية وإن كان البعض يري أنها فصيحة للمكان، ولا غبار عليها من باب حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه.

متى ظهرت المقهى؟:

لما شاع شرب – منقوع البن- أي (القهوة) وولع الناس بها ولعًا كبيرًا، زاد الطلب عليها، وأصبحت الحاجة ملحة لوجود مكان يخصص لها، لكي يستطيع عامة الناس شربها فيه، ولذلك رأي بعض الأفراد إشباع هذه الحاجة عن طريق فتح محل خاص بإعدادها وبيعها للناس شرابًا منعشًا، فكانت هذه المحلات التي أطلقوا عليها اسم – بيوت القهوة- وهكذا بتوالي الأيام أخذ عدد هذه البيوت يتزايد، واتجه الناس إليها -لا سيما في القاهرة ومكة والمدينة – اتجاهًا عامًا.

أما متى ظهرت أول مقهى في العالم، فهذا ما يذكره لنا الفقيه اليمني – عبدالقادر بن محمد الأنصاري الحنبلي – صاحب كتاب – عمدة الصفوة في حل القهوة- حيث يقول: "إن أول ظهور لبيوت القهوة كان بمصر في حارة الجامع الأزهر بالقاهرة، في العشر الأوائل من القرن العاشر الهجري، وكانت تشرب في الجامع نفسه- برواق اليمن- كل ليلة إثنين وجمعة – يضعونها في ماجور كبير من الفخار الأحمر. ويأخذ منها النقيب بسكرجة صغيرة ويسقيهم الأيمن فالأيمن".

ويقول في موضع آخر من كتابه: "..... إن الأخبار قد وردت علينا بمصر بأنه أقيم في مكة الشريفة في سنة خمس عشر وتسع مئة للهجرة بيت للقهوة، ثم انتشرت هناك انتشارًا كبيرًا. ثم حدث عليها الإنكار بمكة الشريفة في سنة سبع عشر وتسع مئة فقام الأمير – فايربك- بإغراء من الشيخ – شمس الدين الخطيب- في مكة المكرمة بإصدار أمر بإبطالها ومنع الناس من شربها. ثم جاء قرار من السلطان بالقاهرة بإباحتها مرة أخرى".

ومن مكة في الجزيرة العربية انتشرت المقاهي، حتى وصلت دمشق وسائر المناطق العربية والإسلامية، حتى وصلت إلى تركيا – تشير دائرة المعارف الإسلامية إلى أن انتشار القهوة في استانبول والروم ايلي كان في عهد السلطان سليمان، وأن أول مقهى أسس في استانبول كان لرجلين أحدهما حلبي والثاني دمشقي وذلك في سنة 962هـ، وقد كان يجتمع في هذا المقهى الأعيان والأدباء لشرب القهوة حتى دعي هذا المكان باسم – مدرسة العلماء-.

ونقل الأتراك القهوة، عن العرب وأشاعوها في أوروبا بعد أن سموها بلكنتهم – كاهفا- وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ وصول القهوة إلى أوروبا، ولكن الراجح أنها وصلت إلي هولندا عام 1600م، ومنها تفرقت إلى أوروبا فافتتح أول مقهى في لندن سنة 1652م، ومن لندن انتقلت القهوة إلى أمريكا سنة 1689م، فافتتح أول مقهى في ولاية بوسطن بأمريكا سنة 1696م، وقد ظلت اليمن المصدر الوحيد للبن حتى القرن السابع عشر الميلادي، فبدأت زراعته في سرنديب (سيريلانكا) سنه 1658م وفي جاوة وغيرها من الأرخبيل الأندونيسي سنة 1696م وفي جزر المارتنيك سنة 1723م وفي البرازيل سنة 1727م.

وقد لاقت القهوة على مر الأيام رواجًا كبيرًا، فأصبحت من السلع التجارية المهمة. وبات اسمها يعرف بـ coffee أو cafee وهو اسمها العربي طبعًا.

> إن أول ظهور لبيوت القهوة كان بمصر في حارة الجامع الأزهر بالقاهرة، في العشر الأوائل من القرن العاشر الهجري وكانت تشرب في نفس الجامع - برواق اليمن- كل ليلة اثنين وجمعة - يضعونها في ماجور كبير من الفخار الأحمر. ويأخذ منها النقيب بسكرجة صغيرة ويسقيهم الأيمن فالأيمن


صورة تعود لعام 1883 للاعبين (لعبة الطاولة) في مقهى مصري



وصف المقهى:

في كتابهم- وصف مصر- يذكر علماء الحملة الفرنسية عام 1789 م المقاهي في القاهرة بقولهم:

"تضم مدينة القاهرة حوالي 1200 مقهى بخلاف مقاهي مصر القديمة وبولاق، حيث تضم مصر القديمة 50 مقهى، أما بولاق فيبلغ تعداد مقاهيها المئة، وليست لهذه المباني أي علاقة بالمباني، التي تحمل الاسم نفسه في فرنسا إلا من حيث استهلاك البن على الرغم من أن هذا المشروب يُعد ويشرب بطريقة مختلفة.

ولا تشرب القهوة إلا ملتهبة، لكنهم يرشفونها، وتلك عادة شائعة في الشرق، تتطلب نوعًا من التعود.

وليس في هذه المباني أثاثات على الإطلاق، وليس ثمة مرايا أو ديكورات داخلية أو خارجية، فقط ثمة منصات - دكك- خشبية تشكل نوعًا من المقاعد الدائرية بطول جدران المبنى، وكذلك بعض الحصر من سعف النخيل أو بسطة خشنة الذوق في المقاهي الأكثر فخامة، بالإضافة إلى بنك خشبي عادي بالغ البساطة.

وكانت مقاهي القاهرة تخضع للإشراف المباشر لرئيس يشتري لنفسه حق التزامها وتدفع له كل المقاهي رسمًا صغيرًا من بداية السنة التركية (الهجرية) (أول المحرم)، ويبلغ هذا الرسم 10-40 مديني، وتعفي من دفعة المقاهي الفقيرة، ويستطيع كل من يريد أن يبني مقهى أن يفعل ذلك بمطلق حريته، لكنه لا يستطيع مباشرة العمل فيها قبل الحصول على تفويض من المشرف على الحرفة، إذ هو على نحو ما مكلف عادة بالإدارة الداخلية والإشراف على هذه المنشآت، كما إنه ملزم بتقديم مرتكبي المخالفات من أبناء هذه الحرفة إلى العدالة، وتوكل مهمة الإشراف هذه عادة إلى أغا الإنكشارية (الكخيا المتولي) الذي يدفع حق هذا الالتزام إلى السلطة.

وعن شكل المقهى المصري في القرن التاسع عشر يحدثنا المستشرق الإنجليزي- إدوارد وليم لين- الذي زار القاهرة وعاش بها في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، في كتابه -المصريون المحدثون- فيقول: "إن القاهرة بها أكثر من ألف مقهى، والمقهى غرفة صغيرة ذات واجهة خشبية على شكل عقود، ويقوم على طول الواجهة ما عدا المدخل مصطبة من الحجر أو الآجر تفرش بالحصر، ويبلغ ارتفاعها، قدمين أو ثلاثة وعرضها كذلك تقريبًا، وفي داخل المقهى مقاعد متشابهة على جانبين أو ثلاثة، ويرتاد المقهى أفراد الطبقة السفلى والتجار، وتزدحم بهم عصرًا ومساءً، وهم يفضلون الجلوس على المصطبة الخارجية، ويحمل كل منهم شبكة الخاص وتبغه، ويقدم (القهوجي) القهوة بخمس فضة للفنجان الواحد، أو عشر فضة للبكرج الصغير الذي يسع ثلاثة فناجين أو أربعة، ويحتفظ (القهوجي) أيضًا بعدد من الآلات التدخين من نرجيلة وشيشة وجوزة، وتستعمل هذه الأخيرة في تدخين التمباك، ويتردد الموسيقيون والمحدثون على بعض المقاهي في الأعياد الدينية الخاصة".

ويمكن القول: إن العصر الذهبي لمقاهي القاهرة كان في النصف الأول من القرن العشرين خاصة في العشرينيات والثلاثينيات، فقد كانت القاهرة الجميلة الهادئة وقتذاك تزخر بالعديد من المقاهي الجميلة والرائعة.

أدوات المقهى:

في أي مقهى يطالعنا رف عريض فوق -النصبة- أي المكان الذي يتم فيه إعداد المشروبات، هذا الرف يحمل عددًا من النرجيلات، وهي آلة التدخين، وشكل النرجيلة لم يتغير كثيرًا عما كان عليه منذ مئتي عام في بداية القرن التاسع عشر الميلادي.

وفي القرن التاسع عشر الميلادي دخل الشاي مصر، ودخل هذا المشروب إلى مقاهيها، وأصبحت أدواته تحتل مكانًا ما فوق النصبة، وللشاي عدة طرق لتحضيره يطلق عليها أسماء عدة مثل:

شاي بنور: أي شاي عادي في كوب زجاجي.

شاي بوستة: أي شاي غير مخلوط بالسكر إنما يوضع السكر في إناء صغير مجاور له.

شاي كشري: أي أوراق الشاي الجافة في ماء مغلي مع السكر.

أما القهوة فقد كانت تقدم في بداية القرن التاسع عشر في - بكرج- موضوع على جمر في وعاء من الفضة أو النحاس يسمى - عازقي- ويعلق هذا الوعاء في ثلاث سلاسل ويقدم الخادم القهوة ممسكًا أسفل الطرف بين الإبهام والسبابة، وعندما يتناول الفنجان والطرف يستعمل كلتا يديه، واضعًا شماله تحت يمينه، وتستعمل مجمرة تسمى - منقدًا- من النحاس المبيض بالقصدير، ويحرق فيها البخور أحيانًا، وكانت القهوة يضاف إليها أحياناً الحبهان - الهيل- أو المصطكا، أما الأغنياء فكانوا يضيفون إليها العنبر، أما الآن فالقهوة تقدم في "كنكة" من نحاس ثم تصب في فناجين خزفية صغيرة، وفي معظم المقاهي تقدم مجردة بدون إضافة أي شيء إليها.

أما أنواع القهوة المشروبة فهي:

- السادة: أي بدون سكر

- مضبوطة: أي متوسطة المذاق

- زيادة: أي السكر أكثر قليلاً.

والمقهى مكان اجتماعي أدى العديد من الأدوار على مر تاريخه، فقد كان المقهى قديمًا مكانًا للانتظار، ومع مضي السنين أصبح للبعض بمثابة محطة تتوسط المرحلة بين البيت ومقر العمل، يحضر إليه العامل أو الموظف أو الحرفي أو التاجر لعمل - اصطباحه- وهو مصطلح مشتق من كلمة الصبح، أي يشرب كوبًا من الشاي أو يرشف فنجان قهوة، وربما يتناول إفطاره.

وبعض المقاهي ارتبط واشتهر بنوع معين من الرواد من أصحاب الحرف المعينة كالطباخين والسائقين والبوابين والخبازين والعمال العاديين والكُتاب العموميين — الذين يكتبون الرسائل والشكاوي بأجر- وأصبح أرباب العمل يقصدونها لانطلاق وإدارة أعمالهم من فوق مقاعدها.

المقاهي الأدبية:

كثيرًا ما لعبت المقاهي أدوارًا تجاوزت إلى حد بعيد وظيفتها الأولى، وهي استقبال الروّاد الراغبين في تمضية بعض الوقت حول فنجان قهوة أو كوب من الشاي، ولعل دور المقهى الثقافي للمقهى كان من أبرز هذه الأدوار المضافة على الوظيفة الأساسية، حتى إن بعض المقاهي دخل عالم الأدب والثقافة بفعل روّاده الذين من خلال طغيان حضورهم على حضور غيرهم، حوّلوا هذا المقهى أو ذاك إلى مكان أقرب إلى المنتدى أو المكتبة العامة، منه إلى المقهى.

وكما كانت تركيا محطة وصول القهوة إلى أوروبا، فهي أيضًا صاحبة أول مقهى أدبي في العالم

فقد بدأت المقاهي الأدبية فعلاً في الإمبراطورية العثمانية، حيث كانت تعرف تلك المقاهي بـ (القرّاءة خان)، أي المكان الذي تُقرأ فيه الكتب والصحف.

تاريخ زمني لأحداث المقاهي الأدبية العربية — مصر نموذجًا-

لا شك أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين المقهى والمثقف، وهذا

الارتباط جاء عبر علاقة وثيقة في القرن التاسع عشر بين أهم عمالقة الأدب والفن، والمقاهي، بارتيادهم إياها، والنقاش فيما بينهم في أجوائها الحميمة والاطلاع على الجديد في عالم الصحافة والأدب.

كتب الروائي المصري الشهير جمال الغيطاني في أحد مقالاته: "إن القاهري حين يحدد موعدًا إلى قاهري آخر، يقول له: سنلتقي في مقهانا"، ثم تحدث عن مقاهي القاهرة، وعما تمثله من أمر جوهري في حياة المصريين في المدينة العظيمة، ولكن إلى متى سيدوم ذلك، هكذا تساءل الروائي المصري الراحل.

أقدم المقاهي القاهرية هي مقهى (متاتيا)، التي بثت دورًا مغايرًا للمقهى منذ ذلك التاريخ، ففي العام 1867م أمر الخديوي إسماعيل في إطار مشروعه (القاهرة باريس الشرق) بردم بركة الأزبكية والبرك المحيطة بها (ميدان العتبة الآن) وهناك أنشأ الأوبرا المصرية، وكان من بين المباني الجديدة بناية تقع خلف دار الأوبرا القديمة، أطلقوا عليها عمارة البوسته نظرًا لقربها من مبنى البوسته، وكانت ضمن المحال الكثيرة التي تقع أسفل هذه البناية (مقهى البوسته) الذي تغير اسمه إلى مقهى (متاتيا) نسبة لاسم المالك الذي آل إليه المقهى، وقيل إنه كان يوناني الجنسية، وربما لم يشتهر في مصر مقهى مثل (متاتيا)، فلقد كان أهم أول مقهى بالمعنى المتعارف عليه بين المثقفين والوطنيين أصحاب الفنون، كان يرتاده جمال الدين الأفغاني، ومن حوله يتحلق المريدون: أحمد عرابي، وسعد زغلول، وعبد الله النديم والشيخ محمد عبده، ويعقوب صنوع ومحمود سامي البارودي، وتجدر الإشارة إلى أنه في هذا المقهى بدأت ثورة عرابي، وقد تعاقبت أجيال المثقفين على هذا المقهى مثل أحمد شوقي والعقاد وحافظ إبراهيم، كما كان يلتقي فيه الشاعر خليل مطران والشيخ التفتازاني، وحبيب جاماتي وكثير من الشوام (من أهالي بلاد الشام) والمصريين، وقد تم هدم المبنى الذي يقع فيه هذا المقهى العام 1999م في إطار مشروع نفق الأزهر.

وفي الجيزة يوجد مقهى (عبدالله) في ميدان الجيزة، وكان من أشهر رواده محمد مندور وعبدالقادر القط ونعمان عاشور وأنور المعداوي وزكريا الحجاوي وعبدالمحسن طه بدر ورجاء النقاش ومحمود السعدني، ولحق بهم صلاح عبد الصبور وحجازي.

مقاه محفوظية:

ارتاد نجيب محفوظ مقهى الفيشاوي، وهو لا يزال طالبًا في الثانوي، ثم مقهى عرابي، ثم مقهى الفردوس، ثم مقهى ركس، ثم مقهى لونا بارك، ثم مقهى سي عبده الذي ورد ذكره في الثلاثية، ثم مقهى علي بابا الذي افتتح به برنامجه اليومي لسنوات.

والجدير بالإشارة أن نجيب محفوظ لم يكن يحب السفر، بل كان يمضي الصيف عادة في الإسكندرية، وعندما يتعثر عليه فهو لا يتزحزح من مدينته الأم (القاهرة)، وكان المقهى الذي يجتذبه في الإسكندرية أكثر من غيره هو مقهى (بترو)، كان محفوظ يلتقي فيه بتوفيق الحكيم الذي كان يفضل في العادة ارتياد مقهى (سيدي بشر) لقد كان مولعًا كذلك بارتياد مقهى (باسترودي) في شارع فؤاد.

ويأتي مقهى (ريش) بالقاهرة في المقام الثاني بعد (متاتيا) في الأهمية التاريخية تأسس عام 1908م، وفي عام 1972م ومع كثرة تردد عناصر كثيرة من الحركة الطلابية على ندوة نجيب محفوظ في (ريش) ولدت فكرة بيان توفيق الحكيم الشهير، إذ نصح نجيب محفوظ الأدباء بالتوجه إلى مكتب توفيق الحكيم في جريدة الأهرام.

أما مقهى الفيشاوي فهو من المقاهي الضاربة في القدم أيضًا، ولا يمكن أن نقول عنه إنه مقهى مثقفين فهو مقهى شعبي، طغت عليه أخيرًا الصفة السياحية وكان يحتل رقعة أوسع مما هو عليه الآن، فكان يطل على المشهد الحسيني مباشرة، وكان من أشهر رواده نجيب محفوظ، كما ارتاده زعماء ومفكرون سياسيون عرب وأجانب والإمام محمد عبده وأنور السادات وجمال عبد الناصر وسارتر وسيمون دي بوافوار.

وسر ارتباط المثقفين والأدباء بالمقهى، حيث تمتلئ المقاهي بالقصص والحكايات، كما تمتلئ بتنويعه بشرية شديدة الجاذبية، ولهذا فالمقهى تصنع جزءًا كبيرًا من تجربة الكاتب أو الفنان لأنها مادة سخية للشخصيات والأحداث والحكايات، وفي بداية حياة الكاتب والفنان تكون المقهى بمثابة مدة تكوين مهمة بالنسبة له، يقترب من الكتاب الكبار يخبر اتهم الأدبية والفنية ويتعلم منهم، ويستطيع أن يقرأ ما كتبه عليهم، ويعرف آراءهم فيما يكتب، ويستطيع أن يستمع لما يكتبه زملاؤه من جيله وما يكتبه الرواد.

فالمقاهي تتيح للكاتب تلقائية تلقي عمله لأول مرة من الجمهور العادي من رواد المقهى، ومن جمهور المتخصصين من الكتاب والأدباء، أي جانب المثقفين، وردود أفعال كل هؤلاء، يمكن أن تجعله يعيد النظر فيما كتبه، بالتعديل أو التغيير.

يقول الناقد والمفكر محمود أمين العالم عن علاقته بمقاهي الأدباء: "المقهى هي المكان المفضل لتجمع الكتاب والأدباء، فأغلبهم ممن لا يمتلكون ثمن الاشتراك في نوادي الأغنياء، وعلاقتي بالمقاهي بدأت من خلال هوايتي كلاعب شطرنج محترف، ثم تعرفت على مقهى عبدالله، حيث كنت أجلس مع الدكتور عبد القادر القط، وفي مقهى ريش كنا نلتقي مع الأدباء والكتاب، في جلسات مفيدة، تعرف الأدباء بعضهم على بعض، ونتج عن هذا التعارف والتآلف توجهات ثقافية متجانسة أحيانًا، وتوجهات ثقافية مختلفة في أحيان أخرى، وأحيانًا تتحول الاختلافات في الرؤى الأدبية والفنية إلى خلافات حادة في صورة مساجلات أدبية، وفي الحالتين ساعدت هذه التجمعات الثقافية في المقهى على إثراء الحياة الأدبية والثقافية بالجديد في الاتجاهات والرؤى، هذه الألفة والمودة الثقافية - برغم الاختلاف - تلهم المبدع أو الأديب أو الكاتب، فأجواء الحرية هي التي تصنع الإبداع، فعندما يرى أحدنا الآخر وهو يسمعنا قصيدته، أو يقرأ علينا ما كتبه نهرع إليه، لنستفيد منه ونفيده، فالأدب رؤية جديدة للعالم، وهذه الرؤية الجديدة تلهم الآخرين لرؤية أخرى، وهذا ما كان يحدث في تجمعات الأدباء بالمقهى، فالإبداع الجديد لأحدهم يفجر الطاقات الداخلية للإبداع عند الآخر".


«محفوظ» في إحدى جلساته التي اعتاد عليها في أحد المقاهي بمصر وسط عدد من أصدقائه المقربين

الموهبة ورعايتها عند الشاطبي



د. حمد بن حسين الجعيدي

السعودية

الإمام الشاطبي أحد أعلام التجديد في القرن الثامن الهجري الذي شهد تحولات تجديدية مهد لها علماء سابقون، ولم يكن فريد ذلك العصر في التجديد؛ فقد امتاز عصره بظهور عدد من الشخصيات العلمية التي أبدعت وجددت في مجالاتها من العلوم الإسلامية؛ فمن معاصريه الإمام ابن القيم، والعلامة ابن خلدون وغيرهما، وكان لكل منهم مجال أحدث فيه نقلة علمية وفتح به بابًا لمن بعدهم يتجدد فيه عطاء هذه الشريعة وسموها وخلودها وقدرتها على مواجهة المستجدات والأحداث وإيجاد حلولها.

ويعد الإمام الشاطبي موهبة مبدعة في فقه الشريعة يشهد له في ذلك إنتاجه المتميز في نظرية المقاصد في كتابه الموافقات التي أصبحت حقيقة ولقيت عناية من العلماء والباحثين بعده حتى تكاد تستقل بعلم خاص يصبح قسيمًا لأصول الفقه في إنتاج المعرفة الفقهية العملية وتطبيقاتها، وكتاب الموافقات جعله الشاطبي في بيان ما أسست وبنيت عليه الشريعة الإسلامية من مراعاة مصالح العباد، فما جاءت هذه الشريعة إلا لمصلحة المكلف الذي تحمّل مسؤولية الأمانة والاستخلاف في الأرض، فقامت على الأسس العظمى التي يقوم عليها الوجود ويصلح بها: الحكمة والرحمة والعدل ومراعاة المصلحة، حتى كانت هذه قواعد وضوابط ومقياسًا ونبراسًا وميزان عدل لما هو من الشريعة وما ليس منها وما ترتضيه وما تنفيه. (فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل)، كما قال ابن القيم في إعلام الموقعين في فصل تغير الفتوى.

وقد كان الشاطبي مبدعًا في كتاباته خارجًا على التقليد مبتكرًا في الأسلوب بما حوى فوعى من لسان العرب وعلو

شأنه فيه؛ فهو العالم في القراءات ولسان العرب والنحو والاعتقاد والفقه وأصوله، وله في كل مجال منها تصنيف نفيس، وكانت له منهجيته التجديدية واضحة المعالم في الرد إلى أصول الديانة والعناية بتطبيقاتها الحياتية وصلاحيتها لكل زمان ومكان فأبدع في تحرير نظرية المقاصد وصياغتها في كتابه الموافقات الذي صرح فيه باختراعه وابتكاره عندما قال عنه: «فإن عارضك دون هذا الكتاب عارض الإنكار، وعمي عنك وجه الاختراع فيه والابتكار، وغر الظانّ أنه شيء ما سمع بمثله ولا ألف في العلوم الشرعية الأصلية أو الفرعية ما نسج على منواله أو شُكل بشكله.. فلا تلتفت إلى الإشكال .. فإنه بحمد الله أمر قررته الآيات والأخبار، وشد معاقده السلف الأخيار، ورسم معالمه العلماء الأحبار، وشيد أركانه أنظار النظار، وإذا وضح السبيل لم يجب الإنكار»، ومعالم الإبداع والتجديد المبني على الأصول واضحة في هذا النص.

وقد كان لما جرّد الشاطبي من علم المقاصد أثر في الدعوات الإصلاحية المعاصرة وقيامها على أساس قِيَمي إسلامي في مواجهة طوفان النظم التي تقوم على فلسفات مغايرة لمصدر الشريعة وبعيدة عن الأصل العام للإسلام ومبدأه ومنتاه في صدوره من الله وتوجهه إليه.

وإذا كان الطابع العام لكتاب الموافقات تأصيل مقاصد الشريعة الكلية، وتضمينه ما يجلي فهمها وإبرازها؛ فإنه في استطراداته يتطرق لفوائد فرعية إذا دقق الباحث وجدها تعود إلى المقاصد الكلية. ومما تطرق له ما ذكره في مباحث الفرض الكفائي من أهمية الموهبة ورعايتها، ووضع منهج للعناية بها واستثمارها، فهذه الموهبة المبدعة لم تغفل التنبيه على أهمية الموهبة واكتشافها ورعايتها وتوجيهها الوجهة الصالحة حتى توتي ثمارها الطيبة وآثارها الإيجابية في العمارة وإنتاج المفيد النافع. فيقرر الشاطبي أن الإنسان يأتي إلى هذه الحياة غفلاً غير عالم؛ ولكنه مزود بوسائل واستعدادات فطرية تؤهله من اكتساب المعرفة والتفاعل معها معتمداً على قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ النحل:78

فالإنسان يمتلك وسائل تحصيل المعرفة من سمع وبصر، واستعداد في داخله يمكنه من القدرة على الاستيعاب والتحليل والتركيب وإعادة إنتاج المعرفة وتحقيق المصالح. والنحو تجاه تحصيل المصلحة وتحقيقها عامل مشترك بين الناس، ولكن ذلك تارة يكون بالإلهام وهذا غريزي كهداية الإنسان منذ ولادته للتقام الثدي مصدر رزقه الجديد، وتارة بالاكتساب والتعلم؛ فطلب المصلحة ودرء المفسدة غريزة لدى الإنسان، ولكنه لما كان حرّ الاختيار مزود بالعقل جُعل السبيل إلى ذلك التعلم والتعليم صقلاً للمواهب وانهاضًا للقدرات العقلية والاستعدادات النفسية (وفي أثناء العناية بذلك يقوى في كل واحد من الخلق ما فطر عليه، وما ألهم له من تفاصيل الأحوال والأعمال؛ فيظهر فيه وعليه، ويبرز فيه على أقرانه ممن لم يهيأ تلك التهيئة؛ فلا يأتي زمان التعقل إلا وقد نجم على ظاهره ما فطر عليه في أوليته) وإن كان هناك قدر مشترك بين الناس الأسوياء في هذا إلا أنهم يتفاوتون في غلبة جانب من الاستعداد والنبوغ في مجال يقصر عنه آخرون، ويظهر فيه الميل إلى فن معين (فلا بد في غالب العادة من غلبة البعض عليه؛ فيرد التكليف عليه معلمًا مؤدبًا في حالته التي هو عليها فعند ذلك ينتهض الطلب على كل مكلف في نفسه من تلك المطلوبات بما هو ناهض فيه، ويتعين على الناظرين فيهم الالتفات إلى تلك الجهات؛ فيراعونهم بحسبها ويراعونها إلى أن تخرج في أيديهم على الصراط المستقيم، ويعينونهم على القيام بها، ويحرضونهم على الدوام فيها؛ حتى يبرز كل واحد فيما غلب عليه ومال إليه من تلك الخطط، ثم يخلى بينهم وبين أهلها، فيعاملونهم بما يليق بهم ليكونوا من أهلها، إذا صارت لهم كالأوصاف الفطرية، والمدركات الضرورية؛ فعند ذلك يحصل الانتفاع، وتظهر نتيجة تلك التربية). فهذه خطة يضعها الشاطبي لرعاية الموهبة، فالناس مختلفة في استعداداتها الفطرية للبروز والتفوق في المجالات المختلفة، تظهر هذه القدرات على الناشئ ويتمايز الأقران وتبرز الاتجاهات وتظهر للمربي والقائم على التعليم مع الزمن في أثناء التفاعل في محاضن التعلم والتعليم والتربية والتوجيه، فإذا بدأ النبوغ في مجال وظهرت على التلميذ والطالب الميل إلى فن معين وعلم يجد الرغبة نحوه مع القدرة عليه والنبوغ فيه؛ فعندئذ على القيّم عليه والناظر في أمره والمعني بتربيته وتكوينه أن يراعي هذه الموهبة ويرعاها ويشجعه عليها وييسر له أسباب النهوض بها، حتى تستقيم ثم يؤكل به إلى أهل الاختصاص فيها، فيعامل بما يليق به وما يصقلها، حتى يكون من أهلها، وعندئذ تؤتي ثمارها، (فإذا فرض – مثلاً- واحد من الصبيان ظهر عليه حسن إدراك، وجودة فهم، ووفور حفظ لما يسمع – وإن كان مشاركاً في غير ذلك من الأوصاف- ميل به نحو ذلك القصد، وهذا واجب على الناظر فيه من حيث الجملة مراعاة لما يرجى فيه من القيام بمصلحة التعليم، فطلب بالتعلم وأدب بالآداب المشتركة بجميع العلوم، ولا بد أن يمال منها إلى بعض فيؤخذ به، ويعان عليه، ولكن على الترتيب الذي نص عليه ربانيو العلماء، فإذا دخل في ذلك البعض فمال به طبعه إليه على الخصوص، وأحبه أكثر من غيره؛ ترك وما أحب، وخص بأهله؛ فوجب عليه إنهاضه فيه حتى يأخذ منه ما قدر له، من غير إهمال له ولا ترك لمراعاته، ثم إن وقف هنالك فحسن، وإن طلب الأخذ في غيره أو طلب به؛ فعل معه فيه ما فعل فيما قبله، وهكذا إلى أن ينتهي). وفي هذا النص نجد الشاطبي يطالب بأن يكوّن الناشئ تكوينًا عامًا ثم يؤخذ بالتكوين الخاص والأخص، فيكون هنا ثلاث مستويات هرمية: عام وخاص وتخصص، والتخصص هو ما يميل إليه بطبعه واستعداداته وينبغ فيه، ولاتقان ذلك والبروز فيه وتحصيله يجعل مع الذين لهم اهتمام به واختصاص فيه، بحسب المناهج العلمية التي يضعها المتخصصون، وعدّ هذا أمرًا واجبًا على الناظر في مصلحته ومصلحة الأمة. وهذه التدابير لم يخص بها الشاطبي الطالب للعلوم الشرعية، بل يرى أنها تكون في كل العلوم والفنون؛ فمن يظهر عليه السمات القيادية من الإقدام وحسن التدبير واتخاذ القرار ونحو ذلك فإنه يعنى به في هذا المجال، ومن نبغ في الصنائع يعنى به في مجالها وتصقل مواهبهم فيها وهكذا (وبذلك يتربى لكل فعل هو فرض كفاية قومٌ). وهذا يعني أن اكتشاف الموهبة ورعايتها مسؤولية أمة لإيجاد من يقوم بالمفروض عليها فيكفيها مسؤوليته وتبعت السؤال عنه أمام الله تعالى عن التفريط في تحصيل مصالحها الضرورية والحاجية وغيرها. فالعناية بالناشئة واكتشاف المواهب وتوجيهها وإعانتها على ما ينميها وتوفير المحاضن التي تبدع فيها، وإيجاد البيئة المناسبة لصقلها واستثمارها عند الشاطبي فرض على الأمة في الجملة.



أرنا ذكاءك

زينة عبدالله تركاوي

دمشق، سوريا

اختلفت المدارس الفكرية القائمة في القرن التاسع عشر بحدة حول طبيعة الذكاء وكيفية قياسه. وتركز معظم الخلاف حول مصدر الذكاء وطبيعته. أهو حتمية وراثية أم أنه وليد تأثر المرء ببيئته؟ وبعبارة أوضح، أيهما صاحب الدور الأكبر في نشأته، الطبيعة أم التربية؟ ويعود تاريخ الدراسة العلمية للذكاء البشري إلى ما يزيد عن 100 عام، عندما حاول الإنكليزي فرانسيس غالتون Francis Galton قياس الصفات الجسدية للنبلاء وردود أفعالهم واستجاباتهم الحسية الأخرى. ولهذا يمكننا اعتباره أحد مؤسسي بحوث الذكاء في العصر الحديث ورائدًا في الدراسات النفسية. لكنه وبسبب من قصور تقنية ذلك العصر لم ينجح في محاولاته، وخاصة في قياس العوامل البيولوجية المتغيرة. على الرغم من أنه وضع فرضيات صالحة للاختبار، استخدمها الباحثون المهتمون بقياس الذكاء فيما بعد.

قياس الذكاء

لم يصبح قياس الذكاء ممكنًا حتى حلّ القرن العشرين، حينما طور الفرنسي ألفرد بينت Alfred Binet أول اختبار للذكاء يماثل إلى حد بعيد اختبار الذكاء الذي نستخدمه هذه الأيام. فقد صمم اختبارًا يتضمن مجموعة من الأسئلة يستطيع أطفال في مراحل عمرية مختلفة الإجابة عليها بكل يسر. وكان هدفه من هذا الاختبار تمييز الأطفال الذين يعانون من صعوبات في التعلم أو من يحتاج منهم إلى رعاية خاصة. وارتكز اختياره على الاعتقاد بأن ذكاء المرء يتطور مع تقدمه في العمر. لكن موقعه النسبي بين أقرانه يبقى ثابتًا إلى حد بعيد. ثم أدخل عالم النفس الألماني وليام شتيرن William Stern فيما بعد فكرة معادل الذكاء IQ (وهي صيغة للتعبير عن العمر العقلي للمرء نحصل عليها من خلال اختبار كالذي طوره الفرد بينت . حيث نقسم الرقم الدال على نتيجة الاختبار بالعمر الزمني للطفل، ثم نضرب الناتج بالعدد 100).

وتلاه في هذا المضمار لويس ترمان Lewis Terman أستاذ علم النفس المعرفي من جامعة ستانفورد الذي طوّر اختبار بينت بهدف استخدامه في الولايات المتحدة. ولعل أكثر تعديلاته أهمية كان ابتكاره لنسخة يمكن تطبيقها على البالغين. ثم قام من بعده عالمُ النفس الأمريكي ديفيد وشلر David Wechsler في عام 1930 بتوسيع فكرة تقييم الذكاء عند البالغين إلى مدى أبعد من ذلك. وعلى امتداد القرن الماضي شهدت النسخة الحالية من اختبار وشلر وستانفورد . بينت تطورًا ملحوظًا. وهي تعد بحق إنجازًا باهرًا في حقل الاختبارات النفسية، لأنها تقيس بدقة عالية عددًا كبيرًا من العمليات الذهنية، وخاصة ما تعلق منها بفهم المفردات والحساب والذاكرة والمنطق. مما جعل استخدام نتائج هذه الاختبارات للتنبؤ بعدد من الملكات المعرفية والأكاديمية والتنظيمية للممتَحنين أمرًا مقبولاً.

وهناك أيضًا أنواعٌ أخرى من اختبارات الذكاء صممت لقياس القدرات الذهنية غير اللفظية، كتلك التي استخدمها الجيش الأمريكي لقياس ذكاء المتقدمين للخدمة الذين كان بعضهم أميًا . ومنها اختبارات (Army Alpha and Beta tests) . وتضمنت هذه الاختبارات سلسلةً من الأسئلة المنطقية غير اللفظية لتقييم الاختلاف في مستوى الذكاء عند من لا يستطيعون القراءة أو الكتابة. وبسبب من موضوعيته عُدَّ هذا النوع من الاختبارات "عادل ثقافيًا" ما يعني أنه لا ينحاز ضد الأشخاص الذين قلَّ تعليمهم أو انخفضت قدراتهم اللغوية.

من أين يأتي الذكاء؟

يؤمن بعض الباحثين بوجود علاقة وثيقة بين الأداء في اختبارات الذكاء والتحصيل العلمي، بل ويزعمون أنه يمكن حتى لنتائج الاختبارات في عمر مبكر أن تنبأ بمدى الإنجازات الأكاديمية والأداء المدرسي في سنوات لاحقة. ولمّا كانت المناهج التعليمية . أو أغلبها على الأقل . تُدرِّس المنطق ومهارات حل المشكلات فإنّ التعليم الأفضل جودةً والأطول مدةً يؤدي عادةً إلى تحسنٍ في مستوى الذكاء إضافة الى الارتقاء بالأداء الأكاديمي. ويظهر هذا جليًا في أنّ شطرًا كبيرًا من الأطفال الذين حُرموا من ارتياد المدرسة يُبدون عادةً نقصًا في مستويات ذكائهم. كما أنّ الأطفال الأكبر سنًا في الفصل ذاته يحققون غالبًا نتائج أعلى في اختبارات الذكاء. وهذا ما قاد العديد من علماء النفس والمدرسين إلى التساؤل عمّا إذا كانت اختبارات الذكاء عادلة حقًا تجاه مجموعات معينة من البشر.

ويجادل البعض في أنّ المستوى الاقتصادي والاجتماعي لعائلة الطفل يلعب دورًا مهمًا في هذه المعادلة. إذ بإمكان العائلة الأكثر ثراءً أن تقضي وقتًا أطول في مساعدة الطفل على تنمية قدراته الذهنية. وأن تمتلك موارد أكثر لفعل ذلك. وعلى الرغم من شيوع هذا الاعتقاد إلّا أنّ البحث العلمي يظهر أن المسألة أعمق من ذلك بكثير. فعندما نأخذ مستوى الوالدين الاجتماعي والاقتصادي بعين الاعتبار يصبح مستوى ذكاء الطفل حسبما تظهره اختبارات الذكاء قادرًا على توقع أدائه الأكاديمي. لكن إذا ما ضبطنا مستوى الذكاء (بمقارنة أطفال يتمتعون بمستوى ذكاء واحد). فإنّ قدرة المستوى الاجتماعي والاقتصادي في التأثير على الأداء الأكاديمي تغدو ضعيفة. ويدل هذا كله على أنّه في حين يبقى المستوى الاجتماعي والاقتصادي عاملاً مهمًا في تطور الطفل جسديًا ونفسيًا. فإنّ أسبابًا أخرى تربط ما بين مستوى الذكاء والإنجاز الأكاديمي.

الطبيعة أم التربية؟

ما يزال العديد من الباحثين يرون أن القدرات الذهنية التي تقاس من خلال اختبارات الذكاء IQ ذات أساس وراثي، لكنه ليس هناك إلا القليل من الأدلة التي تدعم هذا الزعم على الرغم من الإنفاق الهائل على أبحاث سعت إلى اكتشاف المورثات (الجينات) المسؤولة عن تحديد مستوى الذكاء والقدرات الذهنية. ومع مرور الوقت، خبا الأمل باكتشاف بعض من هذه المورثات وازداد الحديث عن أنه فيما إذا كان هناك أساسٌ وراثي للذكاء. فإنّ آلافًا من المورثات تسهم في صنع الفروق الضئيلة التي نلحظها على نتائج اختبارات الذكاء. بل وحتى إن كان بالإمكان التعرف على مورثات مفترضة للذكاء فإنّ الاعتقاد بأنها تعمل بمعزل عن بيئة المرء هو اعتقاد خاطئ. فنحن نعلم أن المورثات تنشط أو تُسكن اعتمادًا على محفزات البيئة. إذًا فإيجاد بيئة ملائمة خلال مراحل التطور الحساسة عند الأطفال يبدو خيارًا مناسبًا يرتجى منه أن يقود إلى آثار حميدة علي ذكائهم في قابل الأيام. وقد تضافرت الدراسات في الدلالة على أنّ التغذية الجيدة تحسن من الأداء الذهني. بيد أنه ما يزال بانتظارنا الكثير من العمل الذي يجب إنجازه في هذا المجال.

ثمَّ ماذا؟

لاشك في أنّ اختبارات الذكاء تعاني من بعض العيوب. ولعل أبرزها هو أن الذكاء قد أصبح في نظر الكثير هو ما تقيسه الاختبارات حصرًا. فهذا إدوين بورينغ، وهو أحد أوائل المؤرخين في علم النفس وأستاذ في جامعة هارفرد يردد: "الذكاء هو ما تقيّمه الاختبارات فحسب". لكن الواقع المعاش يقول غير ذلك. والصورة أكثر تعقيدًا من هذا. وتدل معظم المؤشرات على أنّ بناء الذكاء البشري وترقيته أمرٌ لا غنى عنه للمجتمع الذي نعيش فيه. فهو محوري في بحثنا عن الاكتشافات الجديدة ولإيجاد حلول إبداعية للمشكلات المستعصية. كما أنه مهم لتعزيز القيم التي نثمنها عاليًا. لكن العديد من الأسئلة الصعبة لا يزال قائمًا ويحتاج لإجابات مقنعة. وهي تدور في معظمها حول كيفية تطوير الذكاء لاقياسه فحسب. وعن حماية قدراتنا الذهنية من التردي مع تقدمنا في السن.



الغيرة عند الإنسان: صنوفها ودواعيها...

د. محمد مسلم الحسيني

أخصائي علم الأمراض - بروكسل

الغيرة نزعة غريزية وتفاعل طبيعي عند الإنسان، تظهر ملامحها منذ نشوء الإدراك، وتحصل ضمن مؤثرات داخلية تكوينيّة وخارجية تربوية اجتماعية ونفسيّة، تنبعث الغيرة عادة كردة فعل إزاء فعل أو حالة أو حاجة أو شعور، حيث تتفاوت في درجاتها وشدتها بين الناس، وتحفز عادة بامتلاك الغير لسمة أو لعطاء أو لميزة، لا يمتلكها أو يعتقد بعدم امتلاكها الطرف المتأثر، أو قد يمتلكها ولكن لا يريد أن يشاركه فيها وينافسه بها طرف آخر، تنشأ الغيرة عند الإنسان منذ فجر الطفولة وبشكل غريزي دون تعلم أو اكتساب، بينما يلعب المجتمع والمحيط والتربية وحالة المرء النفسية ووضعه المادي والثقافي دورًا مهمًا في توطيد ظاهرة الغيرة أو إضعافها، تتباين ظاهرة الغيرة في مظاهرها وطبيعتها ودوافعها وميكانيكيتها ودرجاتها، مما يجعلنا نعتقد بضرورة التوقف ولو بشكل موجز أمام هذه الأمور، فيمكننا على ضوء ذلك تصنيف ظاهرة الغيرة إلى الصنوف الرئيسية التالية:

1 - **الغيرة الفطرية:** هي صفة غريزية تعد جزءًا من كيان الإنسان وصيرورته، وتعتمد في طبيعتها ودرجاتها على عوامل تكوينية داخلية وخارجيّة "تربوية واجتماعية".

2 - تبدأ ملامح هذه الغيرة عند الأطفال منذ عمر الستة شهور، وتنشأ وتنمو مع العمر ومع الظروف التربوية المحيطة، التربية العائلية وما يكتسبه المرء ويتعلمه من خلال سيرة حياته مع أبويه وأخوته وأصدقائه من جهة وفعل المجتمع برمته وتأثيراته عليه من جهة أخرى، تعد عوامل مؤثرة على طبيعة الغيرة الفطرية بنوعيها الإيجابي والسلبي وعلى درجة قوتها، ظروف صحة المجتمع المقاسة بـ "ميزان الرفاه الاجتماعي العام" بدفتيه الموجبة والسالبة، تؤثر تأثيرًا مباشرًا على تحجيم أو تحفيز ظاهرة الغيرة، وعلى تحديد طبيعتها لدى الإنسان، فالرفاه الاجتماعي والاقتصادي والاستقرار السياسي والنفسي والثقافة الحضارية العامة هي عوامل إيجابية في صحة المجتمع ودورها دون شك يكون مخففًا لظاهرة الغيرة السلبية ومحجمًا لها ومحفزًا للغيرة الإيجابية ومنشط لها، أما عكس ذلك فالفاقة والحرمان والاضطهاد النفسي والسياسي والتخلف الفكري والثقافي، كلها عوامل تؤثر بشكل مباشر على تحفيز الغيرة الفطرية السلبية، بينما تضعف الغيرة الإيجابية أو تمحيها.

يقول العالم النفساني فرويد بأن كل فرد في المجتمع لديه ملامح الغيرة، ومن لا تظهر عنده هذه الملامح يعد حالة استثنائية غير طبيعية، بمعنى آخر أن لكل إنسان شعورًا بالغيرة وبنوعيها الإيجابي والسلبي وإن اختلف هذا الشعور في درجته من شخص لآخر، حيث قد يحصل التطرف والمبالغة في الغيرة عند البعض بينما يكون شعور الغيرة غير ملموس أو غير محسوس عند البعض، الآخر، ومهما يكن من أمر فإن الغيرة السلبية إن كانت في حدودها الطبيعية فهي حالة غريزية طبيعية، لكنها ستدخل خانة الغيرة المرضيّة أو وسواس الغيرة إن تعدت الحدود المعقولة، وأدت الى أضرار اجتماعية غير مستساغة.



3 - **الغيرة الإيجابية أو المبدعة:** الغيرة بشكلها العام صفة مذمومة في المجتمعات، لأن المقصود فيها في الغالب الغيرة السلبية، التي قد يكون لها آثار سيئة لا تنفع في تطور المجتمع، وفي ديمومة عجلة التقدم فيه، غير أن هناك غيرة إيجابية بنّاءة، تفيد المجتمع وتساعد على نموه، وعلى تسريع حركة التقدم فيه، حيث من خلالها يشعر المرء بضرورة التنافس من أجل الوصول إلى حالة الغير نفسها أو أحسن منها، هذا الشعور يحفز على المثابرة والسعي لبلوغ الهدف، فيجتهد الطالب كي ينافس غيره من الطلبة من أجل الحصول على الدرجات العالية، ويسعى الفنان عندما يرى غيره من الفنانين يحصلون على أوسمة السبق، فيحاول أن يبدع للوصول إلى النتيجة نفسها، ويكافح المرء ويتطور من أجل الكسب، ليكون في درجة رفاه زملائه وأقرانه المادية والمعاشيّة نفسها، وغير ذلك من الأمثلة كثير يجتهد فيها المرء، كي يتطور وينال مبتغاه متحفزًا بعامل الغيرة المبدعة، تطور الأفراد وإبداعهم بهذه الطريقة التنافسيّة الهادئة هو تطور للمجتمع برمته.

4 - **الغيرة السلبيّة والمخربة:** هي ردة فعل سلبية للطرف المتأثر إزاء الطرف المؤثر تتفاوت في درجاتها، حيث تبدأ بالمشاعر السلبية مثل الغضب والامتعاض ثم الكراهية والحقد، وتمر بمراحل الفعل مثل المنع والإعاقة لحرية تصرف الطرف الآخر، وتنتهي بالإيذاء المباشر والتخريب، تحصل ردود الأفعال هذه اتجاه الطرف المؤثر، الذي يتمتع بسمة أو بمركز أو بحالة لا يستطيع الطرف المتأثر أن يصل إليها لعدم توفر الآلية والواسطة أو القابلية والهمّة في تحقيقها، كما قد يحصل هذا النوع من الغيرة بدوافع عاطفي بحت، تكون الغيرة العاطفية الممتزجة بغيرة حب التملك مثلاً آخرًا لهذا النوع من الغيرة.

تخريب ما لدى الغير بدوافع الغيرة هو فعل سلبي في المجتمع إن استشرى وانتشر أدى إلى نتائج وخيمة ومؤلمة يدفع ثمنها المجتمع برمته، تستشري الغيرة المخربة غالبًا في المجتمعات الفقيرة ماديًا وثقافيًا التي يعاني أبناؤها من العوز والحاجة لعنصر المادة وعنصر الثقافة، فتتوفر بؤر صالحة لتفشي الأمراض النفسية والاجتماعية فيها، بينما تنخفض مقاييس هذه الغيرة في المجتمعات المترفهة والمتطورة ماديًا وثقافيًا، حيث تنتعش فيها الغيرة الخلّاقة التي من خلالها يبدع الإنسان، ويتطور في عمله وبحثه ومسيرته، وتكون المنافسة عادة في أوجها نحو سلّم العلياء والتطور والعطاء.

5 - **الغيرة العاطفية:** وهي غيرة شائعة بين الناس أساسها العاطفة والحب وتتجلى هذه بغيرة الزوج على زوجته أو العكس أو غيرة الإخوان والأخوات في الفوز على القدح المعلّى من محبة الوالدين أو غيرة الطفل بين أقرانه في الاستحواذ على الاهتمام والمعزة أو بين الأم وزوجة الابن بسبب التنافس على مصدر المحبة والاهتمام، وغيرها من الأمثلة كثير يجتمع فيها الحب وحب التملك في إثارة وتحفيز الغيرة، الغيرة العاطفية إن بقت في حدودها المعقولة فهي أمر طبيعي ومقبول، لكنها قد تتطور إلى حالة الوسواس والتطرف، فتصبح غيرة مخربة قد تؤدي الى نتائج سيئة قد لا تحمد عقباها.

6 - **الغيرة الكامنة والغيرة المعلنة:** في الغيرة الكامنة لا يفصح المرء عن مواقع غيرته كي لا يشعر الطرف الآخر بذلك، وهنا قد تصدر تصرفات قد تنم عن الكراهية من الطرف المتأثر نحو الطرف المؤثر، مما قد لا تجعل الأخير يفهم سبب بعض تصرفات الطرف المتأثر العدوانية نحوه، التي تكون عادة بدون مبرر واضح، أما الغيرة المعلنة فهي التي لا يستطيع الطرف المتأثر إخفاءها، فتظهر من خلال



المظهر أو القول أو الفعل أمام الطرف المؤثر.

7 - غيرة حب التملك: تنبعث من أساس حب الإنسان للتميز عن غيره بما يملك من حاجة أو مال أو موهبة أو مركز أو وظيفة أو إرث أو أصدقاء وأحباب، حيث لا يريد أن يشاركه أو ينافسه أو يفوقه بما يملك طرف آخر.

8 - الغيرة المرضيّة أو (وسواس الغيرة): حينما تتجاوز الغيرة حدودها الطبيعية، أي تدخل في إطار وسواس الغيرة، فإنها قد تؤدي إلى نتائج غير حميدة، وتسمى عندها بـ"الغيرة المرضيّة"، لأنها قد تخفي وراءها حالات مرض اجتماعية أو نفسيّة أو عقلية، من هنا نستطيع تصنيف الغيرة المرضيّة وحسب أسبابها الى الصنفين التاليين:

أ- الغيرة المنبعثة عن الأمراض الاجتماعية: لأمراض المجتمع أثر كبير وواضح في إيجاد أو تحفيز الغيرة السلبية المخربة فيه، حيث كلما تزداد أمراض المجتمع تزداد معها درجات وحالات الغيرة السلبية عند أبنائه، حينما تعلو الكفة السلبية في "ميزان الرفاه الاجتماعي العام" للمجتمع تعلو معها نسبة الأمراض الاجتماعية فيه. الأمثلة على الأمراض الاجتماعية المحفزة للغيرة المرضية كثيرة أذكر منها: عقدة الشعور بالنقص، فقدان الثقة بالنفس، القذف بما في النفس أي تسقيط صفات النفس السلبية على الآخر، حالات الأنانية كحب الذات أو حب الأنا والنرجسيّة، كراهية الغير، العدوانيّة المرضيّة، التمرد الاجتماعي والابتعاد عن القيم الاجتماعية الصحيحة وغيرها من العلل الاجتماعية الأخرى التي تحفز الغيرة السلبية في المجتمع وحسب ميكانيكية خاصة لكل حالة.

ب- الغيرة المنبعثة عن الأمراض النفسيّة والعقليّة: قد تكون الغيرة عارض من عوارض بعض الأمراض النفسيّة والعقلية التي يعاني منها الإنسان مثل: مرض القلق النفسي، الكآبة بنوعيها الداخلي "الباطني" والتفاعلي، الوسواس القهري، السايكوباثية وغيرها من الأمراض الأخرى حتى تنتهي بمرض فصام الشخصية أو ما يسمى الـ "السكيزوفرينيا"، هذه الأمراض قد تكون بحد ذاتها سببًا رئيسيًا في إيجاد ظاهرة الغيرة، أو أنها تلعب دورًا محفزًا في إثارتها وتحفيزها، كما أن في كل هذه الحالات يكون "وهم الاعتقاد" هو أساس هذه الغيرة التي تكون في أغلب الأحيان من النوع العاطفي، فبسبب الحب الشديد لشخص الحبيب أو بداعي غيرة حب التملك قد يتصور الطرف المتأثر والمصاب بأمراض الوسواس أو القلق النفسي مثلاً تصورات قد تخالف الحقيقة فتثير جنون الغيرة عنده، حيث يحصل سوء في تفسير قول أو فعل أو تصرف، الوهم في الاعتقاد والتفسير بسبب الحالة المرضيّة يولد الشك والشك، وحسب درجته، يطلق نار الغيرة.

أما مرضى الفصام فهم يتوهمون "حسيًّا" و"اعتقاديًّا" في تصوراتهم، وأحد أعراض هذه الأوهام هو إثارة الغيرة عندهم، لأن الوهم عند هؤلاء المرضى يجتاز مرحلة الشك ويدخل خانة الحقيقة، المريض بفصام الشخصيّة يعاني من "الوهم الحسي" أي أنه يرى أمورًا ليس لها وجود واقعي أو يسمع أخبارًا لا ناقل حقيقي لها، قد تكون موجّهة لشريك أو شريكة الحياة فتوجد نار الغيرة القاسية، أو قد يكون الوهم المسبب للغيرة "اعتقادي" أو "إدراكي" الطابع، وأعني بذلك أن المريض يخطأ في تفسير فعل أو حركة أو قول، فإن نظرت أو أومأت زوجته ببراءة لأحد أو تحدثت مع أحد فتثير الفصامي ذلك بقصد الخيانة الزوجيّة!.

من خلال هذا الطرح نستشف بأن الغيرة الإيجابية هي ضرورة في المجتمع من أجل التحفيز والانبعاث والتقدم، بينما الغيرة السلبية المرضيّة وغير المرضيّة لها آثار مضرة في المجتمع، إذ تحفز بوجودها الكراهية وسوء التعامل بين الناس من جهة، وتحد وتعاق حرية الحركة والتصرف عند الغير من شركاء حياة أو زملاء مسيرة وعمل من جهة أخرى، ومهما يكن من أمر فعلاج ظاهرة الغيرة السلبية ليس بالأمر الهين، إذ يتطلب ذلك جهود كل الأطراف من متأثر ومؤثر ومحيط وتربية ومجتمع، فكلما تطورت المجتمعات كلما تحجمت ظاهرة الغيرة السلبية فيها، وكلما تراجعت هذه المجتمعات كلما ازدادت حدتها فيها، شأنها شأن الأمراض الاجتماعية الأخرى وعلاجها لا يختلف عن علاج تلك الأمراض، في الوقت الذي يجب أن تشجع فيه الغيرة الإيجابية والمبدعة عند المجتمعات من خلال إيجاد المنافسات بين أهل الكفاءة والابداع، على هذه المجتمعات أن تثقف أبناءها من أجل تجنب الغيرة المخربة وبكل أنواعها وأسبابها وذلك من خلال الاستنارة بالتعاليم الاخلاقية والقيم المبدعة التي تنبذ التصرفات غير الحميدة بكل شكل من أشكالها.

أما الغيرة المرضيّة أو وسواس الغيرة نفسيّ أو عقلي المنشأ، فيجب معالجة مسبباتها، أي معالجة الحالة النفسيّة والعقلية، التي تكمن خلفها، أخطر أنواع الغيرة التي يعاني منها الإنسان هي الغيرة المنبعثة عند الفصاميين، فقد تتولد جراء هذه الغيرة إشكالات وعذابات عند شركاء حياة هؤلاء وعند المقربين منهم، إذ قد تصل مضاعفات الغيرة إلى حد الإجرام والقتل! علاج هذه الحالة تكمن أيضًا بمعالجة السبب وحسب إرشادات أطباء الأمراض النفسيّة والعقلية المختصين بهذه الأمراض.

أطياف وطن

أميرة أسعد
سوريا

عن لي- مثلما يحدث دومًا-
عن لي ......أن أزورك
أسبر الأنجاد برًا... أقطع الوديان
عومًا
يا لعينيك!... تراني
كلما نادى هواها...مذعنا سار
جناني
للقاها
سل من عيني قذاها
عندما أبصرت نورك
فتتبعت خطاك.....وتقفيت
عبيرك
ما اشتكى مسراي عجزا
قلت أهواك...اهتديت.. تاه خوفي
بين إصراري...وضعفي
حين أهديت لكفي
باقة من خزاماك....وحرزا
من تراتيل ونجوى...ترد الروح
تشفي
فوشجت ضفيرات الصبايا
ثم رحت للتكايا
فخصفت إزارًا فوق عورات الحكايا
من بخورك
وتقحمت خدورك
صرت طيرا....صرت طهرا
قلت في أمسي البعيد
قلت أهواك...سرا....قلت جهرا

لم أخف بطش القبيلة........لو سواك
كيف ترديني قتيلة
زدت في عهدي الجديد
زدت أهواك...أنا السيدة ال تخشى
الجليلة
سمعت كل البرايا
قلت أهواك...كي تهمي الورود
وتختال الرجولة
أبرقت....أرعدت...تسامت للبطولة
في ثغورك
تزرع الآفاق فجرًا
قزحي الطل.. زاه...كالطفولة
فعدت
وقد نبتت في القلب ألف خميلة
غار منفاي الجميل....ماج قهرا
بيد أني في مكاني
ما برحت
كان حلوا ....جد حلمي...ازدان
حقًا..بحضورك
فابق زادا....وابق نهرا
يذرف الآمال غرما
لا تذرني في ضباب الوهم وحدي
يعتريني السقم همًا
أبلغ التعبير...ما كان وحيا
أثبت الخطوات ...ما ابتدا حلما





الدراسات الاجتماعية في التعليم العربي

د. إدريس سلطان صالح

أستاذ مشارك بجامعة المنيا - مصر

تتنوع المصطلحات المستخدمة في التعليم العربي حول الدراسات الاجتماعية، فالبعض يطلق عليها العلوم الاجتماعية تمييزًا لها عن العلوم الطبيعية، أو المواد الاجتماعية والاجتماعيات. وبرغم هذا التنوع إلا أن مفهوم الدراسات الاجتماعية هو الأكثر استخدامًا في نظم التعليم العالمية وبعض الدول العربية، باعتبار أنه مفهوم شامل، ويحقق تكامل فروع المعرفة الاجتماعية والإنسانية المتنوعة وترابطها، بهدف دعم قيم المواطنة والكفايات المدنية لدى الطلاب في التعليم العام، أكثر من مجرد التركيز على مواد أو موضوعات دراسية منفصلة، كما في المواد الاجتماعية.

وبرغم التشابه بين الدراسات الاجتماعية والعلوم الاجتماعية في مجال الدراسة، واعتماد الدراسات الاجتماعية في محتواها على بنية العلوم الاجتماعية من حقائق ومفاهيم ومهارات وغيرها، إلا أن الفرق بينهما يتضح في مستوى التناول، والهدف الذي تسعى إليه كل منهما. حيث تتناول الدراسات الاجتماعية الموضوعات والقضايا التي تتناولها العلوم الاجتماعية في مستوى بسيط يناسب تحقيق أهداف تربوية محددة لدى المتعلمين في التعليم العام، بهدف إعدادهم كمواطنين فاعلين في مجتمعاتهم.

ولتحقيق الهدف من الدراسات الاجتماعية، فإنها تتناول موضوعات أساسية حددها المجلس القومي الأمريكي للدراسات الاجتماعية على النحو التالي:

الثقافة: من خلال دراسة الثقافة والتنوع الثقافي، يفهم التلاميذ كيف تنتج البشرية وتبتكر وتتعلم وتشارك وتتكيف مع الثقافة، وتقدير دور الثقافة في تشكيل حياتهم ومجتمعاتهم، وحياة ومجتمعات الآخرين. ويظهر هذا الموضوع في الوحدات والمقررات التي تتناول الجغرافيا والتاريخ والاجتماع وعلم الإنسان، كذلك موضوعات الثقافات المتعددة عبر المناهج الدراسية.

الزمن والاستمرارية والتغير: من خلال دراسة الماضي والتراث المتعلق به، يدرس الطلاب عادات وتقاليد وقيم ومعتقدات الناس في الماضي، واكتساب مهارات الاستقصاء والتفسير التاريخي، وفهم تشكيل الأحداث والتطورات التاريخية للعالم المعاصر. ويظهر هذا الموضوع في مقررات التاريخ وفروع الدراسات الاجتماعية التي تعطي أهمية لمعرفة الماضي.

الناس والأماكن والبيئات: يساعد هذا الموضوع في تطوير الطلاب لمنظورهم المكاني للعالم، وفهم موقع الناس والأماكن والموارد، وتفسير هذه المواقع، واكتشاف العلاقة بين البشر والبيئة. ويظهر هذا الموضوع في المقررات التي تتناول الجغرافيا والدراسات المساحية.

التطور الفردي والهوية: تتشكل الهوية الشخصية من خلال الأسرة والأقران والثقافة والتأثيرات المجتمعية من عادات وتقاليد وقوانين ..إلخ، ومن خلال هذا الموضوع يدرس الطلاب العوامل التي تؤثر في الهوية الشخصية للأفراد، وتطورها وأحداثها. ويظهر هذا الموضوع في المقررات والوحدات التي تتناول علم النفس وعلم الإنسان وعلم الاجتماع.

الأفراد والجماعات والمؤسسات: تؤثر الأسرة والمؤسسات الأخرى مثل: المؤسسات المدنية والتربوية والحكومية والدينية في حياة الناس، وهذا الموضوع يسمح للطلاب بفهم كيفية تشكيل هذه المؤسسات، والمحافظة عليها، والتغيرات التي تطرأ عليها، وتأثيراتها المتنوعة على الناس وحياتهم. ويظهر هذا الموضوع في الوحدات والمقررات التي تتناول علم الاجتماع وعلم الإنسان وعلم النفس وعلم السياسة والتاريخ.

السلطة والحكم: من المكونات الأساسية للتربية من أجل المواطنة القدرة على فهم التطور التاريخي والأشكال المعاصرة للسلطة والحكم، ومن خلال هذا الموضوع يعرف الطلاب أغراض ووظائف الحكومة، ونطاق وحدود السلطة، والفروق بين النظم السياسية الديموقراطية وغير الديموقراطية. ويظهر هذا الموضوع في الوحدات والمقررات التي تتناول الحكومة والتاريخ والتربية الوطنية والقانون والسياسة وعلوم اجتماعية أخرى.

الإنتاج والتوزيع والاستهلاك: يقدم هذا الموضوع دراسة لكيفية تنظيم الناس لإنتاج وتوزيع واستهلاك السلع والخدمات، وإعداد الطلاب لدراسة القضايا الاقتصادية المحلية والعالمية. ويظهر هذا الموضوع في الوحدات والمقررات التي تتناول المفاهيم والقضايا الاقتصادية، ومواد الدراسات الاجتماعية الأخرى التي تهتم بدراسة الأبعاد الاقتصادية.

العلم والتكنولوجيا والمجتمع: من خلال اكتشاف العلاقة بين العلم والتكنولوجيا والمجتمع، يطور الطلاب فهمهم لمستحدثات العلم والتكنولوجيا في الماضي والحاضر، وفهم تأثيراتها. ويظهر هذا الموضوع في مقررات الدراسات الاجتماعية المتنوعة، مثل: التاريخ والجغرافيا والاقتصاد والتربية الوطنية والحكومة.

العلاقات الكونية: يتطلب الاعتماد الكوني المتبادل فهمًا للأهمية المتزايدة والمتنوعة للعلاقات الكونية بين مجتمعات العالم، ويساعد هذا الموضوع في إعداد الطلاب لدراسة القضايا الناتجة عن العولمة. ويظهر هذا الموضوع في الوحدات والمقررات التي تتناول الجغرافيا والثقافة والاقتصاد والتاريخ وعلم السياسة والحكومة والتكنولوجيا.

المُثل والممارسات الوطنية: يُعد فهم المثل والممارسات المدنية أمر بالغ الأهمية في المشاركة الكاملة في المجتمع، وعنصرًا أساسيًا من التربية على المواطنة، ويتيح هذا الموضوع للطلاب التعرف على حقوق ومسؤوليات المواطنين للديمقراطية، وتقدير أهمية المواطنة الفاعلة. ويظهر هذا الموضوع في الوحدات والمقررات التي تتناول التربية الوطنية، والتاريخ، والعلوم السياسية، الأنثروبولوجيا الثقافية، ومجالات مثل الدراسات العالمية، والتعليم ذو الصلة بالقانون، والعلوم الإنسانية.

ويتضح من الموضوعات السابقة تنوعها وشمولها للجوانب الإنسانية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والجغرافية والتاريخية والوطنية، التي تشكل قيم المواطنة، وتسهم في إعداد مواطنين قادرين على تحمل مسئوليات أوطانهم، والمساهمة في تطورها.

وهو الأمر الذي يدفعنا إلى مراجعة مناهج الدراسات الاجتماعية في عالمنا العربي، وما تتضمنه من موضوعات دراسية، والعمل على تطويرها بما يواكب التطورات العالمية، ويساير رؤى النظم التعليمية المتطورة للدراسات الاجتماعية، حتى تحقق لنا الهدف المنشود من تربية أبنائنا، وتمدهم بالمعارف والمهارات والقيم التي تؤهلهم لمستقبل متغير، يتطلب منهم فهم كل متغيراته ومتطلباته.

الهوامش

- أحمد عبدالرحمن النجدى، وآخران (2002). الدراسات الاجتماعية ومواجهة قضايا البيئة. القاهرة: دار القاهرة.

- National Council for the Social Studies (2010). National Curriculum Standards for Social Studies: A Framework for Teaching, Learning, and Assessment. Silver Spring, MD: NCSS.

بلاغة الجناس في سيرة الإنسان

رحلة الشاعر الحطيئة من النار إلى النور



أ.د. أحمد يحيى علي

أستاذ الأدب والنقد، كلية الألسن، جامعة عين شمس، مصر

إن الحديث عن الشعر بوصفه نوعًا أدبيًا يحمل في طياته حديثًا عن العملية الأدبية برمتها فيما يتعلق بجانب المتعة المحض قرين اللذة، وجانب المنفعة قرين التربية والارتقاء بالبنيان الفكري والأخلاقي لكل من المرسل والمتلقي معًا، وما من شك في أن ذلك سيقود إلى أداة الاستثناء الفاصلة بشكل حاد بين صنفين من مبدعي الشعر، الأول: مذموم، والثاني محمود الفعل والسلوك ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[1]

إن السياق المحيط بالإنسان، يعد بمثابة فاعل مؤثر وموجه بدرجة كبيرة في الإنسان، الذي يصير كأنه مفعول به، يتلقى أثر هذا الفاعل عليه، والإسلام الذي جاء لينظم حياة الفرد وينظم سلوكه قد ترك أثرًا قويًا في العملية الأدبية لدى أجدادنا العرب، ظهر ذلك جليًا في قرض قصيدة الشعر، التي تأثرت كثيرًا على مستوى المحتوى الذي يبثه صاحبها إلى المتلقي بهذه العقيدة التي جاءت رحمة للعالمين، نرى ذلك في أحوال الشعراء محمودي الفعال، الذين يمكن القول: إنهم يسكنون بعد أداة الاستثناء (إلا) في نص سورة الشعراء: لقد انتقلوا بالإسلام من حال، إلى حال ليس فقط على مستوى الواقع المعيش، بل على مستوى الفن المصنوع كذلك، يتضح هذا الترقي كشمس ساطعة إذا ما نظرنا إلى نماذج مثل: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم..

أبجدية الشاعر الحطيئة:

في طريق الالتحاق بهؤلاء الكرام مر البعض بعثرات ومحطات مظلمة يمكن نعتها بالسلبية حتى هداهم الله إلى الوصول إلى محطة الخشوع والتقوى في ميعاد قدره.. من هؤلاء الحطيئة (جرول) الذي ولد لأمة كانت ملك أوس بن مالك العبسي، ولعل لقب الحطيئة لم يكن بعيدًا عن أمور تتعلق بهيئته الظاهرة، التي لم تكن تروق للناظرين، ووضعيته الاجتماعية الدنية[2]، وهي مؤثرات وصلت إلى شخصيته من عالمه الخارجي، وتركت أثرها في تشكيل حالة نفسية ناقمة، رافضة، متمردة: نحن إذًا بصدد أزمة وقع الشاعر ضحية لها، هل سيتوقف صاحبها مهزومًا أمامها؟ أم سيسعى إلى تجاوزها والتغلب عليها؟ وكيف؟

البداية ستكون بصحبته للشاعر الفحل زهير بن أبي

سلمى يتعلم منه ويقوي موهبته الشعرية بملازمته له؛ فإذا كان وضيع المنزلة بحكم هيئته الاجتماعية فسيعالج ذلك برد فعل هو الإبداع، الذي له منزلة في قلب العربي عاشق اللغة والاستخدام الجميل لها بالشعر وبالنثر..

يظهر الإسلام في شبه جزيرة العرب فلا يتبعه الحطيئة، ولم لا إنه الشاعر المتمرد الرافض الذي بقي قلبه مغلقًا دون نور الإيمان والهدى، لا يكتفي فقط بعتبة الرفض والإنكار، بل يوظف لسانه الناطق بالشعر ليهاجم الدعوة ونبيها وأهلها.. وتتأخر محطة النور في حياته كثيرًا، حتى اختلف الرواة في ذلك؛ هل قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة يشهر إسلامه بين يديه؟ أم أنه تأخر في اعتناقه حتى توفي الرسول صلى عليه وسلم ذاهبًا إلى جوار ربه؟ ودليل ذلك مسارعته إلى الردة، معينًا بشعره المرتدين ضد أبي بكر وخلافته، حتى يقول:

أطعنا رسولَ الله إذْ كان بيننا
فيا لعباد الله ما لأبي بكرِ

أيورثُها بكرا إذْ مات بعده
فتلك وبيت الله قاصمة الظهرِ[3]

إنها مرحلة الظلمة إذًا في حياة إنسان، ويقول ثان مرحلة النار في حياة صاحبها.. وكان لهذه المرحلة مظاهر تجلت في لسان شتام بالشعر، هجَّاء يتوجه كسياط ضارب على ظهور من يهجوهم، ومن هؤلاء الزبرقان بن بدر، الذي قال فيه شاتمًا:

دَعِ المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها
واقعدْ فإنَّك أنت الطاعمُ الكاسي[4]

حتى قيل عن هذا البيت إنه من أقسى ما قيل في الشتم والنيل من كرامة إنسان؛ لأنه شبه فيه رجلا بامرأة وخلع عنه رداء نوعه الذي خلقه الله به؛ فمعروف أن الطاعم الكاسي أحوال لا تليق إلا بالنساء في ثقافة العربي اللاتي يجلسن في بيوتهن منتظرات عطاء الرجل الراعي وثمار سعيه وعمله وترحاله..

وفي مرحلة الظلمة/ النار هجاء للأهل والعشيرة، وهجاء لنفسه التي لم يجد غيرها ذات يوم ليسبه فسبها هي:

أَرَى ليَ وجْهًا شوَّه اللهُ خلقه
فقُبِّح من وجه وقُبِّح حَامِلُهُ[5]

لكن هذه المرحلة لم يشأ الله أن تكون وحدها الملونة لحياة صاحبها بلون الضلال والبعد عن طريق مستقيم السير عليه ينجي صاحبه بين يدي ربه، ويكتب له بإذنه النجاة والسعادة في الدنيا وفي الآخرة..إنها إرادة الله التي يهيأ لها أسباب تمكينها على الأرض، نلمح ذلك في خشوع ونحن ننصت إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[7]، ففي مرايا شعره يمكن النظر إلى ذلك العروج والارتقاء النفسي والقلبي، الذي انعكس ظاهرًا في كلمته المُبدَعة؛ فهذا قوله لمن أسدى إليه خيرًا فصادف من لسانه شكرًا وبرًا:

فلْيَجْزه الله خيرًا من أخي ثقةٍ
وليهده بهُدى الخيراتِ هاديها[8]

إنه الله الذي يستحضره ويدعو به، ويجعله نصب عينيه فيما بينه وبين عباده..هذا الارتباط به يعني الانتقال من مرحلة الغضب والانفعال الذي يظهر من بين ما يظهر في الملفوظ بالقول إلى مرحلة الحكمة التي تنطلق من قلب مؤمن بها باحثة عن سامع يحيلها إلى سلوك يبني نفسه ويبني غيره، وربما مبلَّغ أوعى من سامع؛ فهو القائل:

منْ يفعلِ الخيرَ لا يُعدَمْ جوازيَه
لا يذهبُ العرفُ بين اللهِ والنَّاسِ[9]

حتى لقد قال الراوي عمرو بن العلاء: لم تقل العرب بيتًا أصدق من بيت الحطيئة..

وربنا الذي يقول في التقوى:﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[10]، ها هو ذا الحطيئة (جرول) تتلقى نفسه هذه الآية ويتدبرها قلبه، والقلب سلطان الجوارح، فنجد اللسان يردد بالشعر عاكسًا هذه الحال بين عبد وشيٍ من كلام ربه:

ولستُ أرى السعادةَ جمع مالٍ
ولكنَّ التقيَّ هو السَّعيدُ

وتقوى الله خيرُ الزاد ذُخرًا
وعند الله للأتقى مزيدُ[11]

كأنها إذًا عتبة النور التي أفضت إليه نفس إنسان وهذه تجلياتها، فلا شك في أن القلب الذي تخلص من شواغل الدنيا وشوائبها من حب مال ومنصب ومن رياء وسمعة بحثًا عن مخافة الله ومراقبته بحق هو قلب يرجو السلامة، التي تنجي صاحبه من خزي الآخرة ذلك الخزي الذي استعاذ منه نبينا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[12]، وفي هذا الترقي نجدنا أمام صفتين للإنسان في ابتعاده واقترابه من ربه:

الأولى: أرضي

الثانية: ربَّاني

إن ما يتلفظ به الإنسان لديه رقيب عتيد؛ ومن ثم فإن مسؤولية الكلمة تقتضي من المهمومين بالدعوة والتربية إدراك ذلك بوعي كلٌ في موقعه؛ فالشاعر الحريص على أن يؤدي دورًا بالكلمة الجميلة يقدر أن الأدب على تعدد أنواعه رسالة بناء في جوهرها وغايتها، لا مجرد إحداث أثر إمتاعي قد يتلاشى بمرور الوقت؛ فإذا كانت الوسيلة صياغة بإيقاع يهتز له القلب فلا يجب الاستغراق في الوسيلة بالوقوف عندها والابتعاد عن الغاية المرجوة، ألا وهي القيمة التي يُراد لها الوصول إلى وعي مستقبلها، لتستأنف بذلك مسيرًا جديدًا في الحضور والانتشار على يد هذا المتلقي بما تحمله من فضيلة تربي وتعلِّم[13]..

إذًا فإن الإنسان بصفة عامة يتحرك في دنياه حركة بلاغية بديعية سمتها الجناس؛ فمن النار/الكفر أو المعصية إلى النور/الإيمان والقرب من الله ومراقبته وتقواه...

تعقيب

إن العبد الذي تشغله دنياه ويتسلط عليه هواه هو لا شك عبد أرضي انحاز لغير الله في دنياه أو في بعض أوقات حياته، أما الصفة الثانية فهي التي يتغياها كل راغب وباحث عن الرضا والسعادة في الدارين: الدنيا والآخرة.. هكذا يمنحنا لقاء قصير بإنسان مرت عليه دنياه بحالتين تأتي إحداهما مغايرة تمامًا للأخرى مفردات يتبين من خلالها بجلاء هذا الخط الرأسي الواصل بين إنسان أسكنه الله في أرضه، وسماء يتضرع إلى خالقها ويستحضره في حركاته وسكناته، وبالتوازي مع هذا الخط الرأسي الواصل بين سماء وأرض، بين عبد ورب، يأتي خط أفقي يعكس علاقة هذا الإنسان بالكون الذي يحتضنه وما فيه من بشر وأشياء تسهم علاقته بما فيه ومن فيه في تشكيل ملامح حياته وفيما يحمله كتابه الذي سيُحاسب عما فيه بين يدي ربه..

الهوامش:

1 - الشعراء: من 224 إلى 227
2 - انظر: د.شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر صدر الإسلام، ص95، الطبعة الثالثة والعشرون، دار المعارف بالقاهرة دون تاريخ.
3 - السابق، ص96
4 - السابق، ص97
5 - السابق، ص99
6 - سورة الأنعام: الآية: 125
7 - القصص: الآية: 56
8 - د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر صدر الإسلام، ص99
9 - السابق، ص99
10 - البقرة: من الآية: 197
11 - د.شوقي ضيف، ص99
12 - الشعراء: من الآية:87 إلى الآية: 89
13 - د.سيد قطب وآخرون، في مجالس الشعر، ص25، تحرير: د.أحمد يحيى، طبعة 2013م، دار الهاني، القاهرة.

محب الدين الخطيب عاشق الإسلام والعروبة

1886 - 1969م



صبري بن سلامة شاهين

الرياض

هو محب الدين بن أبي الفتح بن عبدالقادر بن صالح ابن عبدالرحيم بن محمد الخطيب، ولد بدمشق في حي القيمرية في تموز 1886، وبها تلقى علومه الأولية والثانوية، والدته آسية بنت محمد الجلاد، كانت امرأة صالحة ذات فضل ودين، توفيت بين مكة والمدينة بريح السموم، وهي راجعة من فريضة الحج، ودفنت هناك بالفلاة، وكان محب الدين صغيرًا في حجرها ساعة موتها، فشمله أبوه برعايته ليعوضه حنان الأم، وبقيت لرحلة الحج هذه صورة في ذاكرته لا تغيبها السنون، ورجع محب الدين من رحلة الحج وهو حزين يكاد يقتله الألم والحزن لفقد أمه، وهو في أمس الحاجة إلى حنانها وعطفها.

نشأته وطلبه العلم:

نشأ محب الدين الخطيب في أسرة كريمة ذات دين وخلق وعلم، وألحقه والده وهو في السابعة بمدرسة الترقي النموذجيّة، وحصل منها على شهادة إتمام المرحلة الابتدائيّة بدرجة جيد جدًّا، ثمّ التحق بمدرسة مكتب عنبر، وبعد سنة توفي والده.

فرأت أسرته بعد وفاة الوالد أن يترك المدرسة، فتركها ولازم العلماء، وكان في هذه الحقبة الشيخ طاهر الجزائري المشرف على المكتبات والمدارس في بلاد الشام غائبًا عن دمشق، فلمّا عاد وكانت بينه وبين أبي الفتح الخطيب صلة ومودة وإخاء، وعلم بموت والد محب الدين احتواه، وعطف عليه، ووجهه نحو العلم ليتهل منه، ويتضلّع من مشاربه، وغرس فيه: حب قراءة التراث العربي والإسلامي، وحب الدعوة إلى الله، ولذلك كان يقول عنه: من هذا الشيخ عرفت إسلامي وعروبتي.

وعينه في دار الكتب الظاهريّة، وكان ينتقي له مخطوطات شيخ الإسلام ابن تيمية، فيكلّفه بنسخها، فانتفع محب الدين بهذا العمل من ناحيتين:

أ- توسعت ثقافته العلميّة، وانتفع بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية ومدرسته السلفيّة، فاستفاد اطلاعًا على الإسلام المصفّى من البدع والخرافات والأوهام.

ب- أشغل وقته وانتفع بأجرة النسخ.

وأوصاه بالتردد على العلماء: أحمد النويلاتي، وجمال الدين القاسمي، ومحمد علي مسلم، فتفتحت آفاق التفكير العلمي عند محب الدين، وانتفع بما تلقاه في المدرسة، وأضاف إليها مطالعاته المتواصلة في دار الكتب الظاهريّة، واطلاعه على المجلات الكبرى في عصره: المقتطف، الهلال، الضياء.

وكتب المقالات العلميّة والأدبيّة، ويرسل بها إلى صحيفة ثمرات الزمان في بيروت، وكان محب الدين كثير القراءة في سائر علوم الشريعة والعربية، وكان حبه للعربية والعرب شديدًا.

رحلاته العلميّة والدعويّة:

بعد أن أنهى الخطيب دراسته الثانويّة عام 1906م في

بيروت، انتقل إلى عاصمة الخلافة في تركيا، المعروفة يومئذٍ بالأستانة، وهي القسطنطينيّة والتحق بكليتي الآداب والحقوق.

ورأى هناك أمرًا عجبًا، رأى الطلاب العرب يجهلون قواعد لغتهم، وإملاءها، وآدابها، ويتكلّمون بينهم برطانة الترك، فانتخب محب الدين من الشباب العربي طائفة أقنعها بوجوب تعلّم لسان العرب، وبعد مدة أسس جمعية النهضة العربيّة.

وشعر الأتراك الاتحاديّون الذين انقلبوا على الخلافة العثمانيّة بنشاط جمعيّة النهضة العربيّة فداهموا غرفة محب الدين، ووجدوا فيها أوراقًا وصحفًا عربيّة، وكاد الشيخ أن يهلك لولا أنّ الله قيّض له رجلًا كانت تربطه بأسرته روابط قويّة.

اشتدت الرقابة الاتحاديّة على الشيخ فغادر الأستانة إلى دمشق، ثم اختير للعمل في اليمن وانتقل إليها، وفي طريقه إلى اليمن توقف في مصر، ليلتقي شيخه طاهر الجزائري، وصديقه محمد كرد علي، واتصل فيها بأركان جمعية الشورى العثمانية، الذين كانوا يطالبون بالحكم النيابي، وإعلان الدستور، ووضع حدّ للحكم الفردي، وكان منهم: الشيخ رشيد رضا، ورفيق العظم، والأديب التركي عبدالله جود، وسواهم، وفوّضوه بتأسيس فرع جديد لجمعيتهم في اليمن.

ونشط في اليمن نشاطًا عظيمًا في ميادين: السياسة، والصحافة، والطباعة، والتعليم، والنشاط الاجتماعي، والثقافي، الأمر الذي جعل الأجهزة تراقبه وتضايقه.

ولمّا أعلن الدستور العثماني سنة 1908م رجع إلى دمشق، وأصبح يطالب مع إخوانه هناك بحقوق العرب التي تنكرت لها حركة التتريك، وشارك في تحرير جريدة هزلية (طار الخرج) فانتبهت السلطات الحكوميّة للجريدة، فسافر الشيخ إلى بيروت، فأمرت الحكومة بملاحقته، فانتقل إلى القاهرة، وهناك شارك في جريدة المؤيد، وفي سنة 1913م أسس الشيخ محمد رشيد رضا مدرسة الدعوة والإرشاد فدرّس فيها الشيخ محب الدين.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى، وأعلنت الثورة العربيّة الكبرى، طلبه الشريف الحسين بن علي فسافر إلى مكة فأسس المطبعة الأميريّة، وأصدر جريدة القبلة الناطقة باسم حكومة الحجاز، وكان موضع استشارة الشريف حسين.

ولمّا دخل الفرنسيون عام 1920م دمشق، غادر الشيخ محب الدين إلى مصر، واستقرّ في القاهرة، حيث عمل في تحرير جريدة الأهرام خمس سنوات، وهناك أسس المكتبة السلفيّة ومطبعتها، حيث قام بطباعة الكتب السلفيّة، ونشر كثيرًا منها، وأصدر مجلة الزهراء، وهي مجلة أدبيّة اجتماعيّة دامت خمس سنين.

ثمّ أسس مجلة الفتح التي تعد من أقوى المجلات الإسلامية التي ظهرت في العالم العربي، لقد استمرت تصدر خمسة وعشرين عامًا في مرحلة من أصعب المراحل التي مرت بها الأمة الإسلامية في تاريخها الحديث، وقد تبنت الفتح في تلك المرحلة العصيبة قضايا العالم الإسلامي، واستقطبت حولها كتابًا كثيرين من بلاد العالم الإسلامي كله، وتصدت للدفاع عن حقائق الإسلام وحقوق المسلمين.

وقد بين الفكرة الداعية إلى إصدار الفتح في إحدى افتتاحياتها، فقال: إن الفتح أنشئت لمماشاة الحركة الإسلامية، وتسجيل أطوارها، ولسد الحاجة إلى حاد يترنم بحقائق الإسلام، مستهدفًا تثقيف النشء الإسلامي، وصبغه بصبغة إسلامية أصيلة يظهر أثرها في عقائد الشباب وأخلاقهم وتصرفاتهم، وحماية الميراث التاريخي الذي وصلت أمانته إلى هذا الجيل من الأجيال الإسلامية.

ومن هذه الكلمة الجامعة يبدو أن الفتح كانت مدرسة كبرى، تعنى بتثقيف الجيل المسلم وتربيته ومعالجة قضايا واقعه على اختلاف أنواعها، وفي مدة قرابة ربع قرن من الزمان والفتح تفتح آفاقًا جديدة أمام المسلمين من الوعي الإسلامي الصحيح، والفكر السياسي النير، والمعالجة السليمة لقضايا العالم الإسلامي على ضوء هذا الدين الحنيف، وبعد هذا الجهاد المرير مع مختلف أعداء الإسلام في الحاضر والماضي على صفحات الفتح، اضطر الخطيب إلى إيقافها، ولما سئل عن السبب قال: أوقفتها حينما أصبح حامل المصحف مجرمًا يفتش ويعاقب، فما أشبه الليلة بالبارحة، ولقد أعاد التاريخ نفسه.

وإذا توقفت الفتح فإن محب الدين لم يتوقف، بل استمر في طريقه الذي اختطه لنفسه من نصرة هذا الدين حتى الرمق الأخير، فإلى جانب التحقيق والتعليق وكتابة الرسائل والإشراف على ما يطبع في مطبعته الكبيرة، تولى رئاسة تحرير مجلة الأزهر لمدة ست سنوات.

وكان قد أسس جمعية الشبان المسلمين بالتعاون مع عدد كريم من شخصيات مصر وعلمائها منهم العلامة أحمد تيمور والشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق وغيرهما.

وعن غايته من تأسيس هذه الجمعية قال: كنت أنا وأحمد تيمور ومحمد الخضر حسين حريصين على أن تكون هذه المؤسسة الأولى للإسلام في مصر قائمة على تقوى من الله والإخلاص، وكنا حريصين على أن يتولى إدارتها رجال يعرفون كيف يصمدون لتيار الإلحاد الجارف بعد أن استولى المتابعون للاستعمار على أدوات الثقافة والنشر في العالم الإسلامي وفي مصر على وجه الخصوص.

وكانت الجمعية حدثًا كبيرًا من أحداث الحركة الإسلامية، لأن دعاة الإلحاد والتحلل كان قد استفحل أمرهم، وظنوا أن قيادة الأمة قد أفلتت من أيدي ممثلي الإسلام، وانتظمت إلى أيديهم.



محب الدين الخطيب

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى، وأعلنت الثورة العربيّة الكبرى، طلبه الشريف الحسين بن علي فسافر إلى مكة فأسس المطبعة الأميريّة، وأصدر جريدة القبلة الناطقة باسم حكومة الحجاز، وكان موضع استشارة الشريف حسين.

وقد أحدث قيام جمعية الشبان المسلمين في القاهرة ردة فعل شديدة لدى دعاة الإلحاد والعلمانيين والمبشرين، فتربصوا بمحب الدين حتى وجهوا أنظار النيابة العامّة إلى مقال كتبه بعنوان: الحرية في بلاد الأطفال، نال فيه من كمال أتاتورك، فقُبض عليه وحُكم عليه بالسجن لمدة شهر.

وعلى إثر سوء تفاهم مع القائمين على الأزهر استقال من رئاسة تحرير مجلة الأزهر، وكان ذلك آخر عمل رسمي له، ثم انزوى في مكتبته ومطبعته، وقطع كل صلة له بذلك المجتمع، وانكب على التأليف والتحقيق، وحتى الأعمال التجارية كانت شبه مقطوعة.

وقد جمع مكتبة ضخمة خاصة به، فاقت على ما يبدو كل مكتبة خاصة في مصر ما عدا مكتبة العقاد، وقد جعلها قبل وفاته وقفًا على أهل العلم من ذريته، وقد بنى ولده قصي دارًا جديدة في حي الدقي في القاهرة، وخصص الطابق الأول منها لتلك المكتبة.

ولقد كان محتفظًا بحيويته حتى أواخر أيام حياته، وكان يعزو ذلك إلى اعتداله في حياته كلها في مأكله ومشربه وملبسه، وكان ذا صبر وجلد على العمل، لا يعرف معهما السآمة والملل، وكان منظمًا في شؤونه كلها، عصاميًا في

تدبير أمره وتكوين ثروته، وبناء حياته وشخصيته.

عمله السياسي:

فقد كان محب الدين حركة دائبة، ورجل سياسة وإعلام وثورة وإصلاح، شارك في العديد من الجمعيات والهيئات والأحزاب التي يراها سليمة التوجه، ومنها حزب اللامركزية العثماني، وجمعية العربية الفتاة، ذات الدور الكبير في السياسة.

وكان مشرفًا على اللجان التي تشكلت لجمع المال من أجل المجاهدين الذين يستعدون لملاقاة الفرنسيين الغزاة في ميسلون قرب دمشق. وكان رجل مؤسسات، ولذلك كان يبادر إلى تأسيس الجمعيات، والعمل في الأحزاب.

وكان ذا عقلية منظمة، يدرس الأمور دراسة منهجية، ويخطط لغده، ثم يقدم. وكان من الأعضاء العاملين في جمعية الشورى العثمانية. وأمير سر جمعية التعارف الإسلامي، وفي القاهرة كان صاحب فكرة تأسيس جمعية الشبان المسلمين، وأحد مؤسسيها البارزين، وأمين سرّها.

وعمله الصحفي:

فهو رائد الصحافة العربية والإسلامية، فقد كان صحفيًّا بارعًا، حيث كان يكتب في الصحف وهو ما يزال تلميذًا، وأخذ ينشر ما يكتب وما يترجم عن اللغة التركية في صحيفة ثمرات الفنون البيروتية. وعندما عمل في مدينة الحديدة باليمن، أسس شركة مساهمة للصحافة والطباعة، وأصدر جريدة العرب، وأنشأ مطبعة جزيرة العرب. وعندما رجع إلى دمشق، شارك العاملين في جريدة القبس، بتحرير الملحق الأدبي للجريدة (طار الخرج) الكوميدية الناقدة.

وشارك في تحرير جريدة المؤيد وترجم ونشر فيها الكثير عن أعمال المبشرين البروتستانت، وفضح ما يراد بالمسلمين من شرّ على أيديهم وعقولهم الملوّثة، وكان له من ذلك كتاب الغارة على العالم الإسلامي. الذي كان له دويّ في العالم الإسلامي.

وفي الحجاز عمل مع الشريف حسين، وحرر له جريدة القبلة، وعندما ترك الحجاز وعاد إلى دمشق، تولّى إدارة الجريدة الرسمية العاصمة وتحريرها، وكتب فيها مقالات رائعة.

وعندما قرر الاستقرار في مصر، عمل في تحرير جريدة الأهرام نحوًا من خمس سنين، وأنشأ المكتبة السلفية، والمطبعة السلفية، بثمن بيته الذي باعه في دمشق.

وأصدر مجلة الزهراء، وهي مجلة أدبية اجتماعية ذات طابع أكاديمي سنة 1343هـ، ولكنها كانت تلهب المشاعر، وتوقد العواطف كدأبه في مقالاته وأبحاثه. ثم أصدر جريدة الفتح من 1344 - 1367هـ، وهي مجلة إسلامية أسبوعية، تركت لنا حصيلة ضخمة من الثقافة والفكر والتاريخ والسياسة.

والزهراء والفتح هما امتداد لمجلة المنار للشيخ رشيد رضا، التي هي امتداد للعروة الوثقى، وكان محب الدين من كتّاب المنار المهمّين. ثم تولّى رئاسة تحرير مجلة الأزهر، وكانت افتتاحياته فيها نارية، صبّ فيها الكثير من عصارة نفسه وخلاصة عقله وتوهّج عاطفته.

ولما تعرّضت مصر إلى الغزو الفكري المدمّر، ووقع العبث بثوابت الأمّة الإسلامية وتخريب قيَمِها الأصيلة برعاية الاستعمار الإنجليزي الجاثم على أرض الكنانة آنذاك، والذي كانت تلوذ به وتنضوي تحت جناحه هذه القوى المخرّبة. متمثلًا في كتاب طه حسين الشعر الجاهلي، الذي شكّك في وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. والشيخ علي عبد الرازق في كتابه: الإسلام وأصول الحكم. الذي أنكر فيه وجود نظام سياسي في الإسلام، وادّعى أنّ الإسلام دين روحاني فقط مثله مثل النصرانية، ليكوّن تبريرًا شرعيًّا يهوّن على المسلمين مصيبة إلغاء كمال أتاتورك للخلافة الإسلامية، وتحويلها إلى دولة علمانية.

وفي مواجهة هذه الأمواج المتلاحقة من الغارات على مسلّمات الأمة وثوابتها انبعثت أصوات مخلصة تذبّ عن دينها وهويّتها، إلاّ أنها كانت أصواتًا مبحوحة ومتفرقة، ينقصها عوامل الترابط وأوات التنظيم، فضاعت أصداؤها في خضم أمواج التغريب والغزو الفكري الصاخبة.

وفي عام 1926م التقى محب الدين برجالات الفكر والثقافة الذين ذهبت أنفسهم حسرات على ما آل إليه الحال في أرض الكنانة من عدوان سافر على ثوابت الأمة وهويّتها العربية الإسلامية، فتمخّض هذا الاجتماع عن إنشاء جمعية لمقاومة هذه الانحرافات ومجالدة المفسدين بالحجة والبيان.

وأصدروا مجلّة الفتح، وكانت في موضوعاتها ومادّتها الإعلامية سيفًا مصلتًا في نحور دعاة الغزو الفكري والتغريب والتنصير والاستشراق، فسدّت بذلك ثغرةً كبيرةً برغم إمكانياتها الضعيفة، وضيق هامش الحرية الممنوح لها.

وكشفت المجلة النقاب عن الدور التخريبي الذي تلعبه (الجامعة الأمريكية) في القاهرة، التي كانت تدرس كتابًا خبيثًا مليئًا بالطعن والتطاول على مقام النبي صلى الله عليه وسلم.

كانت مجلة الفتح بحق منبرًا حرًّا أصيلًا لا نظير له، بفضل الروّاد والعمالقة من أمثال: أحمد شاكر، وأخيه محمود، وشكيب أرسلان، والرافعي، وشيخ الإسلام مصطفى صبري، ومحمد الخضر حسين، وعلي الطنطاوي، وتقي الدين الهلالي، وغيرهم ممن طرّزوا حواشي هذه المجلة بإبداعاتهم، وآثارهم القيّمة.

وتصدّت المجلّة إلى افتراءات وهجمات دعاة التغريب في مصر، أمثال: أحمد لطفي السيد، وسلامة موسى، وتوفيق الحكيم، وحسين فوزي، وميشيل عفلق، ومحمود عزمي، وإسماعيل أحمد أدهم، وغيرهم.

وكشفت حقيقة الماسونية وحقيقة الفرق الباطنية المنتسبة للإسلام، وكشف النقاب عن جذورها الفكرية والعقائدية. وخاصة طائفة القاديانية الخبيثة، وحذّرت من خطر فرقة التيجانية، ونبّهت إلى خطورة انتشارها لكونها تمنح الولاء للاستعمار الفرنسي، وتوطّد أركانه في تلك البلاد.

واهتمت مجلة الفتح بقضية التربية والتعليم، وبيان خطر البرنامج «الدنلوبي» الذي زرعته بريطانيا في قلب وزارة التعليم المصرية، فقام «دنلوب» الخبير الإنجليزي بصياغة المناهج التربوية وفق الرؤية الغربية التي علّمت شباب مصر أن العروبة والإسلام شيء أجنبي طرأ على مصر، وبينت أن التعليم الدانلوبي في المدارس أهمل آداب الإسلام وتاريخ الإسلام وأمجاد الإسلام، فخرّج لنا أبناء محرومين من سلاح الفضائل الإسلامية.

وكشفت المجلة النقاب عن الدور التخريبي الذي تلعبه (الجامعة الأمريكية) في القاهرة، التي كانت تدرس كتابًا خبيثًا مليئًا بالطعن والتطاول على مقام النبي صلى الله عليه وسلم.

واستمرت مجلة الفتح في مسيرتها الميمونة حتى عام 1366هـ، وكان سبب توقّفها هو موجة التضييق على العمل الإسلامي التي سادت مصر بعد هزيمة 1948 أمام اليهود، فنال مجلة الفتح ما نال غيرها من الأذى والإغلاق والمصادرة، وجفّ مدادها بعد اثنين وعشرين عامًا من الجهاد الثقافي المتميّز.

جهود محب الدين في نشر عقيدة السلف:

فقد تولى نشر كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، ودافع عن الصحابة ورد الشبهات عنهم، فنشر كتاب «العواصم من القواصم» ففيه إبطال الروايات الساقطة التي اخترعها الكذابون بعد مقتل عثمان رضي الله عنه. ونشر أعظم كتاب خدم السنة المطهرة وهو فتح الباري، وتواصل مع العلماء والدعاة السلفيين.

جهوده وجهاده وآثاره العلميّة:

على الرغم من حياته المضطربة في الحلّ والترحال، استطاع محب الدين كتابة عشرات المقالات والأبحاث، وتمكّن من التأليف والتحقيق والترجمة لكثير من الكتب.

فلقد ترك آثارًا عظيمة تدل على عبقريّته وموسوعيّته كما قال الأستاذ أنور الجندي: وبالجملة فإنّ السيد محب الدين وآثاره تعد رصيدًا ضخمًا في تراثنا العربي، وفكرنا الإسلامي، وقد أضاف إضافات بناءة، وقدم إجابات عميقة لمفاهيم الثقافة العربيّة وقيمها الأساسيّة.

من أهم أعماله:

توضيح الجامع الصحيح للإمام البخاري، وهو شرح صغير. والحديقة في أربعة عشرجزءًا، وهو عبارة عن مجموعة أدبيّة وحكم، والخطوط العريضة التي قام عليها دين الشيعة الإثني عشريّة، ومع الرعيل الأول، وهو

عبارة عن عرض وتحليل لحياة الرسول مع أصحابه، ومن الإسلام إلى الإيمان: حقائق عن الفرقة الصوفيّة التيجانيّة، وحملة رسالة الإسلام الأولون، والإسلام دعوة الحقّ والخير، وذو النورين عثمان بن عفان، والجيل المثالي، ومراسلات بينه وبين الأمير شكيب أرسلان، بلغت ألف رسالة.

وكان من أوائل العلماء الذين تنبّهوا لأخطار الصهيونيّة، وحذروا منها، وكشفوا الغطاء عن حقائقها وأسرارها، ومحاولتهم في الوصول إلى فلسطين.

النواحي الفكرية عند محب الدين الخطيب:

لقد كان يدعو باختصار شديد إلى الإصلاح الإسلامي المتمثل في القضاء على البدع الطارئة، وتخليصه من الدخيل الذي يحسب الجاهلون أنه منه وما هو منه. ومن الإصلاح الإسلامي بث روح النشاط بين المسلمين، لإحياء مقاصد دينهم وتحقيق أغراضه، وتأليف الكتب عن حقائقه وأحكامه وتاريخه.

وهناك نقاط هي أبرز من غيرها في تفكيره، وهو أشد اعتناء بها من غيرها، وأهم هذه النواحي هي ما يلي:

- السلفية الصافية: فقد كان من أشد أنصار السلفية النقية في العقيدة والعبادة، وهذه سمة بارزة في كل كتاباته، وقد تحصلت لديه هذه الفكرة من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، وظل مقتنعًا بهذا الاتجاه، قوي الإيمان به، مدافعًا عنه بقلمه ولسانه، متصديًا لكل من يتعرض له، مروجًا للكتب المهمة التي تدعو إليه.

ومن مواقفه العظيمة: الوقوف في وجه الباطنية والرافضة، فقد كان شديد العناية بهذا الموضوع، فقد كُلِّف من قِبَل علماء الأزهر الغيورين بالكتابة في الرد على الرافضة، فكتب يومئذ كتابه النفيس (الخطوط العريضة للديانة الإثني عشرية)، أبان فيه الأسس التي يقوم عليها دين الرافضة من كتبهم ومراجعهم.

وسُئل مرة عن أفضل كتاب في التاريخ الإسلامي؟ فأجاب: بأن التاريخ الإسلامي لم يكتب بعد، وأفضل ما كتب فيه البداية والنهاية لابن كثير، وكان يعتقد بأن تشويه تاريخ الإسلام والمسلمين كان مقصودًا كتشويه عقائده وشرائعه، وكان يدعو إلى دراسة التاريخ على طريقة المحدثين بالتثبت من الروايات التاريخية وأسانيدها الصحيحة، وأنه لا بد من تجريد التاريخ من الخبث الذي لحقه على أيدي أعداء الإسلام وعلى رأس هؤلاء الرافضة.

ويبين أهمية تصحيح التاريخ: ولن يكون ذلك إلا إذا بنوا مناهج تعليمهم وأسس ثقافتهم ومعالم أدبهم على هذه المعرفة والإيمان بلوازمها وتعميم طريقهم نحو أهدافها. ورأس ذلك وعموده تصحيح تاريخ العروبة والإسلام وتجريده مما دس فيه.

لقد كان محب الدين فخورًا جدًّا بأمجاد الإسلام ومفاخر المسلمين، وله في مجال تخليد الأمجاد الإسلامية وإظهارها بثوبها القشيب اللائق عمل عظيم، لا يجوز أن يذكر محب الدين إلا ويذكر معه، هذا العمل العظيم هو ديوان (مجد الإسلام) للشاعر الكبير أحمد محرم، فهو السبب في ظهور هذا الديوان، الذي عرض على الشاعر محرم إنجازه، وشجعه على كتابته.

> ”لا يجوز أن يذكر محب الدين إلا ويذكر معه، هذا العمل العظيم هو ديوان (مجد الإسلام) للشاعر الكبير أحمد محرم، فهو السبب في ظهور هذا الديوان“

وقصة هذا الديوان يلخصها محب الدين في مقدمة الديوان بما مضمونه باختصار: لقد كان يقرأ في المدارس العثمانية شيئًا من اللغة الفارسية وآدابها من جملة مقرراتها، وكان أستاذ تلك اللغة يبالغ أمامهم في وصف (الشاهنامة) للفردوسي، وبيانها المنظوم المعجز، ويحدثهم عن صاحبها، وكيف أنه أحاط بتاريخ الفرس القديم، ثم اتصل بأحد ملوكهم، فأعطاه جناحًا في قصره، وكلفه بأن ينظم أمجاد الفرس، فأقام في ذلك القصر ثلاثين عامًا، وهو ينظم الشعر الرائع في أمجاد فارس، حتى بلغت الشاهنامة، وهي الديوان الذي وضعه لذلك ستين ألف بيت.

كان يسمع محب الدين ذلك، ويقول: «أليس في دنيا العروبة والإسلام من يقوم للعروبة والإسلام بمثل هذا العمل الأدبي الكبير، أيكون للمجوسية وظلمات الظلم كتاب يخلدها، ولا يكون للإسلام الدين الكامل ورسالة الله العظمى من يدل عليها ويدفع الناس في طريقها.

أليس من العار أن يكون للفرس الذين حفل تاريخهم زمن جاهليتهم بالشنائع ديوان مفاخر يغطي فيه البيان على العيوب ويلون ذا الوجهة منها بألوان زاهية، ويسلط على ضئيل الخير منها شعاعًا قويًّا مكبرًا بأعظم المكبرات، فتكون من ذلك (شاهنامة الفردوس)، وأن يكون لليونان زمن وثنيتهم وأوهامهم الصبيانية ديوان مفاخر كالإلياذة تتغنى بها الإنسانية إلى يوم الناس هذا، والإسلام الذي لم تفتح الدنيا عينيها على أعلى منه رتبة، وأعظم منه محامد يجتهد بعض المنتمين له في تشويه صفحاته، والحط من قدر رجاله. أتواصوا به؟ هذا ما يقع اليوم ممن يدعون أنهم النخبة، الذين يمثلون الإعلام والثقافة المشوهة.

لقد بقيت هذه الفكرة تعمل عملها في نفس محب الدين حتى التقى بأمير الشعراء أحمد شوقي وتحدث معه عن (الشاهنامة والإلياذة)، واقترح عليه أن يقوم بهذا العمل العظيم، واستمع شوقي إلى هذا الحديث ولم يبد موافقة ولا رفضًا، ثم زار شوقي وفد في منزله لتجديد الحديث معه، فبقي عند موقفه من الصمت والابتسام، ثم ظهر بعد ذلك في بعض أعماله أشعار عن دول الإسلام وعظماء التاريخ، ولعله كان هذا من أثر ذلك الاقتراح.

ولكن المطلوب الذي كان يؤمله الخطيب كان أعظم من ذلك، فاتصل محب الدين بالشاعر الكبير أحمد محرم، وقويت بينهما الصلة والمحبة، فاقترح عليه أن يسجل أمجاد الإسلام في ديوان من الشعر الرائع، وقال له: «لعل الله قد ادّخر لك هذه المهمة واختارك لها، لأنك أقرب شعرائنا إلى إخلاص القول والعمل، وأكثرهم توخيًا لمرضاته. فاستجاب أحمد محرم لهذه الدعوة، وكان من ذلك ديوان «مجد الإسلام» أو «الإلياذة الإسلامية» التي نظمها أحمد محرم، وهو ديوان كبير يقع في 450 صفحة، نظم فيه الشاعر أهم أحداث السيرة النبوية والغزوات والوفود.

وقال الأستاذ أنور الجندي في كتابه أدباء ومفكرون: ولست أعرف كاتبًا كان أوضح رأيًا في ربط الإسلام بالعروبة على النحو الذي يحقق فلسفة اليقظة وبناء النهضة، كما يفعل السيد محب الدين الخطيب منذ سنوات طويلة، فهو مؤمن بامتزاجهما واستحالة انفصامهما.

كان محب الدين قوي الإيمان بخصائص الأمة العربية وأصالتها، واستعدادها للخير، وجدارتها بحمل رسالة الله، وبطيب عنصرها، ونقاء جوهرها، وصفاء فطرتها، ولقد كان يؤمن بأنه إذا حيل بين الإسلام والعروبة كانت العروبة جسمًا بلا روح، وكان الإسلام روحًا بلا جسد، وهذا تاريخنا العربي من بدايته إلى اليوم لا نراه ازدهر وانتعش وكان مظهر العز والقوة إلا في الأدوار التي كان الإسلام يزدهر فيها وينتعش، ويأخذ نصيبه من العز والقوة، ويكذب من يظن أن العرب تنمو عزتهم بروح أجنبية غير روح الإسلام.

وإلى هذا كان يدعو إلى الأخذ بأسباب القوة وبكل نافع من نتاج الحضارة الحديثة مع المحافظة على المثل والقيم والأخلاق القديمة، لأن الخير كله قديم، وكان يركز على إصلاح المدارس ومناهج التعليم ووسائل الإعلام.

وهكذا قضى محب الدين حياته في البحث والتحرير والتأليف إلى أن توفي في القاهرة في كانون الأول عام 1969. وقد ترك آثارًا عظيمة، وإنتاجًا علميًّا يعد رصيدًا ضخمًا في تراثنا العربي وفكرنا الإسلامي.

وبعد جهاد مضن كريم استمر سنين عديدة أعطى خلالها للإسلام نور عينيه، وحياة قلبه، وثمرة قلمه، وأصالة فكره، فأسهر ليله وأجهد نهاره. وبعد كل هذا الحراك الدؤوب قد سكن ذلك الفؤاد الكبير الذي كان يخفق بحب الإسلام، وخبا نور تينك العينين، وهدأت تلك اليد المرتعشة، التي حملت القلم للدفاع عن الإسلام والمسلمين دهرًا طويلًا، وسقط ذلك اليراع وتحطم، فمات محب الدين رحمه الله رحمة واسعة.

الرواية السعودية: واقعها وتحولاتها



د. محمد سيف الإسلام بوفلاقة

الجزائر

صدر هذا الكتاب القيم ضمن سلسلة المشهد الثقافي، في إطار برنامج وكالة الشؤون الثقافية بوزارة الثقافة والإعلام بالمملكة العربية السعودية في طبعته الأولى سنة:2009م، ويقع في 133 صفحة من الحجم المتوسط، ويضم في طياته دراسة وافية عن تحولات التجربة الروائية بالمملكة العربية السعودية، وذلك من خلال إلقائه الأضواء على واقع هذه التجربة، وتتبعه لتحولاتها، وتطوراتها منذ انطلاقتها.

وقد قُسم الكتاب إلى ثلاثة فصول، بدأ الباحث بمقدمة أشار فيها إلى أن الرواية السعودية هي بمثابة نص موازٍ للواقع، تأخذ من الواقع بقدر ما تعيد إليه من أسئلة وافتراضات واستجوابات، وهي نص المستقبل الأدبي، ومنطقة التقاطعات الحوارية التي نحتاجها، فهي تتميز بأنها نص يقبل التعدد، ويسمح بالتأويل، ويرضى بالتجاوز والاختلاف، وأكد الباحث على أن التوقف أمام الرواية السعودية تسجيلاً لمراحلها، واستقراءً لإسهاماتها المعرفية والجمالية، واستكشافًا لجدلها مع الواقع هي ضرورة نقدية، بيد أن رصد الإنتاج الروائي في مجمله، رواية بعد رواية يعد أمرًا غاية في الصعوبة، وأشار المؤلف إلى أن ما يرمي إليه من وراء تأليف هذا الكتاب ليس الرصد والتوثيق، بل هو تقديم بيان رؤية عامة حيال هذا الإنتاج، ومن ثمة فلابد من الاتجاه صوب الانتقاء الذي لا يُخل برسم الصورة، وكذلك فإن الدراسة تقتضي توظيف التحليل، فمنهج الكتاب هو منهج انتقائي، الغاية منه بيان رؤية شاملة عن الرواية السعودية، تقوم بدور التعريف، لا بدور الاستطراد والاستقصاء.

مراحل تطور الرواية السعودية:

يتتبع الباحث في الفصل الأول من الكتاب مراحل تطور التجربة الروائية السعودية، من منظور صلة التطور التاريخي بحركة المجتمع، وذلك من حيث علاقة الرواية بسياقها الأدبي أو الاقتصادي أو السياسي، أو حتى تلك الأدوار التنويرية التي خاضها المجتمع في مراحل تكون الدولة السعودية، ولم يكتف المؤلف بالاشتغال على الجانب الوصفي التاريخي فحسب، بل إنه يُقدم رؤى معمقة، ويسعى للاستدلال على المكونات الموضوعية لتطور الرواية عبر المراحل الأربعة التي حددها، وقد بدأت المرحلة الأولى الموسومة بـ«مرحلة النشأة» من سنة 1930م، وهو تاريخ صدور رواية «التوأمان» لعبد القدوس

الأنصاري، التي عالجت قضية العلاقة الحضارية بين الشرق والغرب، إلى غاية أواخر الأربعينيات (1948م)، وذلك بظهور رواية «البعث» لمحمد علي مغربي، وما لاحظه المؤلف على هذه المرحلة هو أن الرواية السعودية، ولمدة عقدين من الزمن واكبت بدأ تكوين المجتمع السعودي، وما صاحب هذه الحقبة من استقطابات سياسية، وقبلية، وبناء مؤسسات الدولة الفتية، إلى غاية مرحلة استقرار المجتمع السعودي، وتميزت أغلب الروايات التي ظهرت في هذه المرحلة بنزعتها الإصلاحية الاجتماعية، ومن أهمها رواية «فكرة» لأحمد السباعي، وأما حقبة الخمسينيات فقد طبعها الجمود، بحيث لم تصدر سوى رواية «الانتقام الطبعي» لمحمد الجوهري سنة 1954م، ويرى الباحث بأنها قريبة من الناحية الفنية لروايات مرحلة النشأة، وقد ابتدأت المرحلة الثانية، والموسومة بـ«مرحلة التأسيس» سنة 1959م، بصدور رواية «ثمن الضحية» لحامد دمنهوري، إذ يرى المؤلف أن هذه الرواية شكلت قفزة فنية، وبداية واعدة للتطور الفني في صناعة الرواية، وفي هذه المرحلة صدرت الرواية الثانية لدمنهوري سنة 1963م، وقد عنونها بـ«ومرت الأيام»، وفي حقبة الستينيات يظهر إبراهيم الناصر الحميدان، فأصدر روايتين هما: «ثقوب في رداء الليل» سنة 1961م، و«سفينة الموتى» عام 1969م.

وأما المرحلة الثالثة، فقد أسماها المؤلف «مرحلة الانطلاق»، وقد انطلقت هذه المرحلة مع بداية الثمانينيات، وما يُلاحظ عليها تسارع إيقاع الإنتاج الروائي، وزيادة تراكمه على عكس المرحلتين السالفتين (التأسيس والنشأة)، إذ يرى المؤلف أن الرواية السعودية في الثمانينيات عبرت نفق التباطؤ، وتجاوزت هشاشة التجربة الفنية، والفكرية، وهذا التجاوز لم يتحقق دفعة واحدة، بل إنه تميز بالتدرج في الحضور على أكثر من مستوى، وفي هذا الشأن يمكن اعتبار روايات عبد العزيز مشري مرحلة انتقال من البطء في صناعة الفعل الروائي إلى إيقاع أكثر تسارعًا، وذلك من جانبين، من جانب التراكم الروائي الذي قدمه الكاتب، ومن جانب الرؤية المقدمة، والتي اتسمت بالبحث عن نقاء الإنسان في واقع متغير.

وأما المرحلة الأخيرة فهي مرحلة: «التحولات الكبرى»، فقد احتلت الرواية في هذه المرحلة مساحة كبيرة في المشهد الأدبي، وهذا يعود إلى جملة من الأسباب، من أبرزها قدوم أسماء جديدة من خارج الكتابة السردية التقليدية للإسهام في كتابة الرواية مثل تركي الحمد الأكاديمي، وغازي القصيبي الشاعر، إضافة إلى حضور المرأة بصفتها الروائية مثل رجاء عالم، ونورة الغامدي، وليلى الجهني، ومها الفيصل، ونداء أبو علي، ورجاء الصانع، وبدرية البشر، وأميمة الخميس، وغيرهن.

وقد اختتم المؤلف هذا الفصل بإشارته إلى أن المتابع للرواية السعودية يلاحظ بأنها قد بدأت إصلاحية، وانتهت كاشفة للواقع ومتقاطعة معه، وقد انطلقت توفيقية في رؤيتها، وإصلاحية في رسالتها، بيد أنها كانت أقل حضورًا من الناحية الفنية، وفي لحظة تركيزها على أزمة الفرد، وهواجسه، وبحثها عن فهم تركيبة المجتمع تميزت بتطور فني ملموس.

التجربة النسوية في المشهد الروائي السعودي:

تحت عنوان: «الرواية النسائية وشرط الوجود التاريخي» يتوقف المؤلف مليًا مع التجربة النسائية في المشهد الروائي السعودي، إذ يرى أن قراءة الإنتاج الروائي النسائي في المملكة من خلال شرط التحول التاريخي، يؤكد أن الرواية هي حركة في قلب التاريخي، ولا تدرج خارجه، ومن ثم فإن الدراسة تقتضي فهم أرضية الحركة الاجتماعية الجاذبة، أو الطاردة لعطاء المرأة في سياق تاريخ تطور الرواية السعودية، وقد توصل الباحث إلى أن الروايات النسائية التي صدرت في الستينيات حتى مطلع الثمانينيات الميلادية ليست نتاج البيئة الاجتماعية والتعليمية للمجتمع السعودي، بل نتاج تجارب نسائية قريبة تبلورت تعليميًا وثقافيًا في بيئة خارج المجتمع السعودي، وقد أشار المؤلف في هذا الصدد إلى رواية «البراءة المفقودة» 1972م لهند باغفار، ورواية «غداً سيكون الخميس» 1977م، حيث تدور أحداث الروايتين في بيئتين خارجيتين، غير أن الروايات النسائية التي صدرت في فترة التسعينيات الميلادية، وما بعدها عرفت تغيرًا جذريًا، حيث تميزت بعمق المعالجة، والقدرة على الصلة بالواقع اليومي، الصلة هي نتاج حركة طبيعية لسياق ثقافي بدأ تشكله في



"وأما المرحلة الأخيرة فهي مرحلة: «التحولات الكبرى»، فقد احتلت الرواية في هذه المرحلة مساحة كبيرة في المشهد الأدبي، وهذا يعود إلى جملة من الأسباب، من أبرزها قدوم أسماء جديدة من خارج الكتابة السردية التقليدية للإسهام في كتابة الرواية مثل تركي الحمد الأكاديمي، وغازي القصيبي الشاعر، إضافة إلى حضور المرأة بصفتها الروائية مثل رجاء عالم، ونورة الغامدي، وليلي الجهني، ومها الفيصل، ونداء أبو علي، ورجاء الصانع، وبدرية البشر، وأميمة الخميس، وغيرهن"

> **اتسمت الرواية السعودية في بدايتها بضعف فني طبيعي، وذلك شأن كل انطلاقة، ثم شهدت نضجًا فنيًّا يلمسه القارئ في كتابات المرحلة الثانية. وفي مرحلة التحولات الكبرى-أي المرحلة الأخيرة- شهدت الرواية السعودية طفرة فنية تحسب للمنجز السردي العام**

أوائل الستينيات، حيث تم وضع تنوير المرأة في الحسبان، وهذا ما تجلى من خلال مجموعة من الروايات، من بينها رواية «الفردوس اليباب، 1998م» لليلى الجهني، ورواية نورة الغامدي، الموسومة بـ«وجهة البوصلة،2002م»، ورواية «بنات الرياض،2005م» لرجاء الصانع، فالمتأمل في هذه الروايات يكتشف مدى أهمية التكوين الثقافي في توجيه مسار هذه الروايات، وجعلها ذات قيمة داخل السياق الاجتماعي والثقافي.

مضمون الخطاب الروائي:

في الفصل الثاني من الكتاب يُلقي المؤلف الضوء على مضامين الخطاب الروائي، ويرمي الباحث من خلال هذا الفصل إلى الكشف عن أهم المواضيع المهيمنة على التجربة الروائية السعودية، وما لاحظه المؤلف هو أن هناك عناية من قبل مجموعة من الكُتّاب، والكاتبات بعدد من القضايا التي تتسم بالشمولية، كما أن هناك معالجات تميزت بالتفرد في التناول، وبناء الرؤية الإبداعية، ويشير الباحث إلى أنه يجب الإقرار بأن هناك قواسم مشتركة تحدد المنطلقات التي يتخذها الكُتّاب، أو الكاتبات حيال قضية معينة، ومن أبرز الموضوعات التي تكرر ورودها في الرواية السعودية موضوع الآخر، فقد شغل هذا الموضوع حيزًا معقولاً، وقد وجدت الرواية السعودية في هذا الموضوع مادة ثرية للتناول، ولا يمكن الاقتصار في النظر إلى هذا الموضوع، على أساس أنه مجرد مضمون روائي، بل إنه مشكلة حضارية كبرى، ويتسم بالديناميكية الفاعلة، نتيجة لعمق التحولات الكبرى التي مر بها المجتمع، ووقع أثرها المباشر على الرواية، ومن أهم الروايات التي تبدى من خلالها هذا الموضوع، رواية «التوأمان» لعبد القدوس الأنصاري، ورواية «البعث» لمحمد علي مغربي، و«ثمن الضحية» لحامد دمنهوري، ويرى المؤلف أن حضور الآخر في هذه الروايات اتسم بالتنوع والاختلاف، والقاسم المشترك بينها هو أن الرؤى تميزت بأنها رؤى قلقة، ولم يقتصر حضور الآخر على هذه الروايات فحسب، بل امتد وتجدد في عدد من الروايات التي ظهرت في الثمانينيات، مثل رواية «غداً أنسى» لأمل شطا، ورواية «السنيورة» لعصام خوقير، و«حالة ضعف» لفؤاد صادق مفتي.

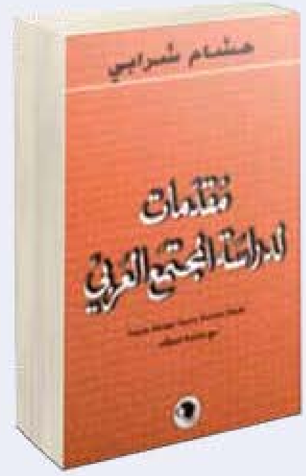
وقد احتل موضوع موقع الرجل حيزًا كبيرًا في كتابات الروائيات السعوديات، وذلك في إطار الموضوعات التي شكلت رؤية روائية عميقة الدلالة، إذ يشير المؤلف إلى أن هذا الموضوع أضحى ملازمًا للرواية النسائية، ولا يمكن الفكاك منه إلا بتنويعات مختلفة، وهو أحد المحركات الأساسية للمشهد الروائي النسائي، حتى غدت علاقة المرأة بالرجل خطابًا مهيمنًا على منظورات الرواية النسائية، فحضور الرجل في الرواية النسائية يبدأ من الصفة الفردية للرجل، ليصل إلى الرجل بوصفه المؤسسة أو السلطة، ويرى الباحث أن هذا الموضوع ومن كثرة تكراره خسر مصداقية الطرح الروائي، وخرج من خانة التعبير الفردي إلى خطاب عام طبع معظم الكتابات الروائية النسوية، فقد تميز هذا الموضوع باتخاذه سلبية مسبقة عن الرجل في معظم الروايات.

وأما موضوع العلاقة بين القرية والمدينة، فيرى المؤلف بأنه قد اتسم بنوع من الجدل في الطرح، فانحاز بعض الروائيين إلى القرية، بينما نظر آخرون إلى المدينة نظرة طبعتها الواقعية، دون تجاوز القيم المتبدلة، ومن أوائل الذين طرحوا هذه العلاقة إبراهيم الناصر الحميدان في رواية «ثقوب في رداء الليل»، وقد شكل هذا الطرح بداية لهذا الموضوع، وبعد ذلك عرف حضورًا قويًّا في الكتابات الروائية في الثمانينيات، ولاسيما في روايات عبدالعزيز مشري، بالإضافة إلى مجموعة من الروايات التي جسدت القرية بطريقة محايدة بعيدة عن البحث في جدليتها مع المدينة، ومن بين هذه الروايات «الحزام» لأحمد أبو دهمان، و«فيضة الرعد» لعبدالحفيظ الشمري، و«أنثى تشطر القبيلة» لإبراهيم شحبي.

تطور البناء السردي:

في الفصل الأخير من الكتاب تتبع المؤلف تطورات البناء السردي منذ نشأة الرواية السعودية، مُركزًا على مدى استفادة الكُتّاب من التقنيات السردية، وتوظيفها لخدمة العمل الروائي، فرصد مختلف القضايا السردية، والتطورات الجمالية لدى الروائيين بناءً على المراحل التي أشار إليها في الفصل الأول، فقد اتسمت الرواية السعودية في بداياتها بضعف فني طبيعي، وذلك شأن كل انطلاقة، ثم شهدت نضجًا فنيًّا يلمسه القارئ في كتابات المرحلة الثانية. وفي مرحلة التحولات الكبرى-أي المرحلة الأخيرة- شهدت الرواية السعودية طفرة فنية تحسب للمنجز السردي العام، وقد قدم الباحث من خلال هذا الفصل مجموعة من التحاليل المهمة، فرأى أن روايات مرحلة النشأة تتقارب من حيث مستواها الفني، فأغلبها عني بالشخصية، وتتابعت فيها الأحداث بناءً على حركة الشخصيات، وتميزت معالم الأمكنة بعدم الفاعلية في تكوين الأحداث، وغلبت عليها الأفكار الموجهة، واتسمت بالجاهزية إلى درجة أن القارئ يحدد مصائر الشخوص مسبقًا.

وفي مرحلة التأسيس، ومن خلال الرواية الأولى «ثمن الضحية» التي استهل بها حامد دمنهوري المشهد الروائي، أجمع النقاد على أنها قد تميزت ببنائها المحكم، وعمقها في المعالجة، إضافة إلى توظيفها الجيد لحركة الزمن في سياق تطور الحكاية، كما اختلفت عن سواها من روايات مرحلة التأسيس بالاعتناء بوصف المكان، وأما رواية «ثقب في رداء الليل» لإبراهيم الناصر، فقد تميزت بمباشرتها في طرح الأفكار والرؤى، ولم تستخدم وسائل وتقنيات الخطاب الروائي، إضافة إلى أنها تُعدُّ التجربة الأولى للكاتب، ولذا فهي تقترب من الناحية الفنية من روايات البدايات الأولى، وقد توصل المؤلف إلى أن مرحلة التأسيس في الرواية السعودية لم تقدم شيئًا جديدًا على مستوى تطور الخطاب الروائي، وظلت المعالجات ضعيفة السردية، واتسمت المواقف المطروحة بالمباشرة، والحماسية، والخطابية. وقد اعتبر الباحث أن المرحلة الأخيرة تشكل أخصب المراحل من حيث التطور السردي والجمالي والمعرفي، ومن حيث نسبة المنشور الروائي.



مقدمات لدراسة المجتمع العربي

المثقف كما نعرفه



بقلم: حمزة شباب

ناقد فلسطيني - الأردن

هو عنوان كتاب للمفكر والأكاديمي الفلسطيني هشام شرابي (1927 – 2005) الذي عمل أستاذًا لتاريخ الفكر الأوروبي والعلوم السياسية في جامعة جورج تاون بواشنطن، ساهم في إنشاء عدد من المؤسسات التي تُعنى بشؤون الوطن العربي والقضية الفلسطينية، منها: مركز الدراسات العربية المعاصرة في جامعة جورج تاون، ومركز التحليلات السياسية حول فلسطين في واشنطن، وصندوق القدس الذي هو منظمة فلسطينية تقدم منحًا دراسية للطلاب الفلسطينيين، وله مؤلفات عديدة في العلوم السياسية، والنظام الاجتماعي العربي، والنقد الحضاري، والسمات الفنية والعلمية للمثقف بين العرب والغرب.

يبدأ هشام شرابي في عرض للظاهر المكونة عند الفرد داخل بنية المجتمع وأثر هذه البنية عليه، معتمدًا على نظرية التحليل النفسي ومطبقًا نتائجها على سلبيات التربية في العائلة العربية التي تخلف أولادًا اتكاليين، عاجزين، يفتقرون إلى الحد الأدنى من حرية المبادرة الذاتية، ومرتكزًا على محاور خمس في شخصياتنا الاجتماعية وبتحليل نفسي نقدي عنيف.

يتناول في محوره الأول سلوكنا الاجتماعي وبنية العائلة في المجتمع العربي، ولا يتأتى ذلك إلا بتغيير في الذات حيث إن العائلة هي الوسيط الرئيسي بين شخصية الفرد والحضارة الاجتماعية، وما ينقص الطفل العربي من القدرة على التعامل، ثم يتناول في المحور الثاني بعض نتائج التربية البرجوازية الإقطاعية كالاتكالية والعجز والتهرب التي تتسم بنفي الخصائص المرضية عنها بوصفها محاور ذات أصول اجتماعية وثقافية عميقة تجسم شعورًا بعدم المقدرة.

يدعو شرابي في المحور الثالث إلى الوعي والتغيير، حيث إن الأسرة العربية تنظر إلى أبنائها على أساس تفوقهم في قدراتهم العلمية والاجتماعية، لأننا نسعى بنية جعلهم على الصورة المرصودة لهم بما يسمى النزعة المثالية في التربية، ويعلق الكاتب محاوره الثلاثة الأولى على المحور الرابع وهو الإنسان العربي والتحدي الحضاري، ويذكر أسلوبين لمعالجة التحدي الحضاري، هما: الفكر الخطابي المجرد المتمثل بالوعظ و التبشير، والتحليل العلمي في صلب الواقع من أجل تغييره وتجاوزه، وينحو تجاه الخيار الثاني في دراسة علاقاتنا بأطفالنا ونسائنا وعلاقات بعضنا بعضًا، ولا تستكين قواه في الوصول إلى المحور الخامس الذي هو لب هذا الكتاب وهو المثقف العربي والمستقبل، مشيرًا إلى أن المثقف ليس من نال قسطًا وافرًا من العلم، فيقول صراحة "هناك أميون بين حملة شهادة الدكتوراه" لأن العلم اكتساب موضوعي فقط، وإن ما يميز المثقف صفتان أساسيتان هما: الوعي الاجتماعي الذي يمكن الفرد من رؤية للمجتمع وقضاياه من زاوية شاملة، وتحليل هذه القضايا على نحو نظري متماسك، والدور الاجتماعي الذي يمكن أن يلعبه الوعي بالإضافة إلى القدرات الخاصة التي تضفيها الكفايات الفكرية أو الاختصاص المهني.

يقسم كاتبنا في مقدماته البحثية للمجتمع العربي المثقفين إلى أربع فئات: الأولى هي طبقة المثقفين الملتزمين الذين يتطابق لديهم الفكر والممارسة، ويتبنون قضية واحدة يعيشون من أجلها بعيدًا عن التنظير الفارغ، والثانية هي طبقة (أهل القلم) من الكتاب والمفكرين العاملين اجتماعيًا بالكلمة لا بالممارسة العملية، وتعتمد هذه الفئة في عملية التغيير الاجتماعي على تأثيرها في الرأي العام وقدرتها في تغيير الوعي الاجتماعي ودفعه نحو آفاق جديدة، وأما الفئة الثالثة هم أصحاب الالتزام الفكري المعنوي من الأساتذة والمعلمين، ويتشاركون مع الفئة الثانية في أنهم يمارسون العمل الاجتماعي دون الانخراط المباشر في صراعات المجتمع وانهماكاته، والفئة الأخيرة هي فئة المهنيين من الأخصائيين والتكنوقراطيين العاملين في الحقول العلمية والصناعية والإدارية المختلفة، وهذه الفئة تعد الأكثر بعدًا عن الوعي الأيديولوجي والسياسي، والتزام هذه الفئة التزام مهني محض، لأن تأثيرها ينبع من ممارساتها المهنية ونتائج عملها في حقول اختصاصاتها، ونلاحظ أن هذا التقسيم قد بني على أساس القدرة على التأثير في المجتمع، وتكوين التغيير المجتمعي وزيادة الوعي لدى الغالبية فيه، وإن الفئات الأكثر تأثيرًا هي الفئات المتناقضة الأولى والرابعة، فالأولى تتميز بالتزامها الأيديولوجي وممارساتها السياسية، والرابعة تتميز ببعدها عن الأيديولوجيا وعن الممارسة السياسية والتزامها بالقطاع المهني، لأن التغيير المنبثق من العلم والتكنولوجيا يؤدي إلى تحول جذري في بنيان المجتمع المادي وفي علاقاته الاجتماعية.

يسلط هشام شرابي الضوء على دور المثقفين ومزاياهم، وعلى أبرز ما يهددهم في مجتمعنا العربي من نزعات التذبذب الفكري التي تجعلهم غير قادرين على الثبات في موقف فكري معين و التبعثر بين منطلقات واتجاهات مختلفة ومتضاربة، فيعيش حالة من الاقتلاع النفسي والاجتماعي، وفي دراسته الموضوعية يؤكد الكاتب على أن المجتمعات المتخلفة عاجزة عن توفير البيئة اللازمة للمثقف أو القيمة اللائقة به تمامًا كعجزها عن استغلال مواردها المادية والبشرية بشكل سليم، ثم إنه غالبًا ما ينتمي – في مجتمعنا العربي – إلى الطبقة المتوسطة أو المتوسطة الدنيا فتراه بحاجة إلى أكثر من مجرد العيش، فليس الكبت الفكري وحده ما يدعوه إلى الهجرة، لأنه لا يستطيع تحمل الحرمان المادي، والمؤثر الأقوى في سلوك المثقف ليس أفكاره أو أهدافه ومثله بل وضعه المادي ومركزه الاجتماعي، فعندما يتخطى المثقف مرحلة الشباب، ويصبح ذا مسؤوليات عائلية يجد نفسه سجين صراع عيشه اليومي وبعيدًا عن مواضع الفكر.

إن عملية التغيير الاجتماعي وإنتاج التحرر الفكري لا تتفتق كما الزهرة، ولا يتأتى لذلك صدفة، فهي محصلة معطات طويلة من المؤسسات الاجتماعية والممارسات السياسية، فقد بدأ كاتبنا بنقد الذات نقدًا واقعيًا لا فلسفيًا تقوم على اكتشاف العلوم الإنسانية ببعدها الاجتماعي وتأسيسها على نحو علمي، ويدعو الكتاب إلى إقامة تحالف بين الأسرة العربية والمجتمع الذي يحيطها للسيطرة على الثقافة المجتمعية كتوزيع الثروات والحرمان المادي والاتكالية والعجز والتهرب عن طريق تشخيص الداء وتطويقه بالدواء، إلى أن وصل إلى الانعتاق من الحضارة الغربية التي هيمنت علينا بالمثل العليا (الحرية والمساواة والعدل) لكنها أظهرت وجهًا آخر في ممارساتها معنا أدى إلى تخلفنا وضياعنا ويؤسنا.

يبعث هشام شرابي أحد أبرز المفكرين العرب إضافاته الفكرية القائمة على الفكر النقدي للقارئ العادي بغية التعليقات الإيجابية البناءة، وإيمانًا برفع القداسة عن آرائه، فيقول في مقدمة الكتاب: "أصبحت أدرك بفضل هذه التجربة أن القارئ العربي قادر على استيعاب الفكر وقبول النقد مهما كان عنيفًا، إذا كان يشعر أنه ينبثق من موقف صادق يرفض التمويه ويهدف إلى كشف الواقع على حقيقته، والقارئ العادي لا المثقف فقط هو الذي يستطيع أن يحدد الاتجاه الذي يتوجب على التغيير الاجتماعي أن يتجه فيه، إني أضع نفسي بين يدي القارئ العادي، له أكتب ومنه أتقبل الحكم الأخير".

مراجعة كتاب:

‹أول المسلمين›

للكاتبة ليزلي هازلتون

The First Muslim' by Lesley Hazleton'

الكاتب: ليزلي هازلتون Lesley Hazleton
مراجعة: جوناثان بي.بيركي Jonathan P. Berkey *



ترجمة: عمر عثمان جبق
محاضر في كلية المجتمع بالرياض

من هو أول مسيحي؟ قد يجيب العديد من المسيحيين على هذا السؤال قائلين بأن أول مسيحي هو "السيد المسيح" (عليه السلام). إلا أن الإنجيل يوضح بأن المسيح عاش ومات يهودياً. والتخمين الأفضل قد يكون أن أول مسيحي كان بول وهو أحد أتباع السيد المسيح (عليه السلام) الذي تفصح رسائله عن مجتمع كان قد بدأ في تمييز نفسه عن عقيدته الأم. ومع ذلك قد تكون تسميته بأول المسيحيين مجرّد تخمين ليس إلا!

إذا كانت روايات أصل الإسلام صحيحة فليس هناك أدنى شك حول أول المسلمين. حوالي السنة 610 بدأ محمد (صلى الله عليه وسلّم) يسمع صوتاً. واستجابة للوحي المنزل من خلال ذلك الصوت أخذ محمد (صلى الله عليه وسلم) يدعو جيرانه من العرب الوثنيين إلى رسالة الخضوع لله الذي يعبده اليهود والمسيحيون على حدّ سواء. واستغرق في دعوته عقدين من الزمن تميزاً بصراع سياسي طويل استطاع محمد (صلى الله عليه وسلم) في نهاية هذا الصراع أن يقنع العرب لاعتناق عقيدته الجديدة.

اعتمدت ليزلي هازلتون على هذه الروايات في تأليف سيرة غنية لأول المسلمين حيث تتوفر معظم هذه الروايات في الترجمات الإنجليزية. هناك سير أخرى لمحمد (صلى الله عليه وسلم) كأمثال الكتب الأكاديمية من تأليف مونتجوميري وات Montgomery Watt وماكسيم رودينسون Maxime Rodinson وغيرهما. إلا أن جمهور القراء الذي تستهدفه الكاتبة هازلتون هو أكبر وأوسع.

ويكمن شخص محمد (صلى الله عليه وسلم) وراء سوء الفهم والصراع بين العالم المسلم والغرب المسيحي. إذ يقارن المسيحيون محمد (صلى الله عليه وسلم) بالسيد المسيح، ويجدون المسيح أفضل منه. ويظهر كتاب هازلتون أن مثل هذا المنهج غير مفيد على الإطلاق لأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) كان يرى نفسه نبياً ينحدر روحياً من نفس سلالة السيد المسيح، إلا أنهما لعبا دورين مختلفين جذرياً.

وقبل كل شيء كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قائداً سياسياً بقدر ما كان قائداً روحياً. فكان أقرب إلى موسى (عليه السلام) من السيد المسيح (عليه السلام). وتبيّن الكاتبة هازلتون مهنته النبوية كصراع للتغلب على أعدائه وتوحيد سكان شبه الجزيرة العربية لأول مرة في دولة واحدة. ويعد هذا السياق بالنسبة للإنسان الغربي العادي سياقاً

مفصليًا لكنه مجهول كليًا يستحيل بدونه فهم النبي المسلم (صلى الله عليه وسلّم) أو للبادئ التي كان يعلمها وينشرها.

فعلى سبيل المثال، ليس الجهاد دليلاً على أن الإسلام دين عنف بالأساس. لكنه، أي الجهاد، مبدأ تطوّر تلبيةً للظروف السياسية التي واجهها محمد (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء من بعده. وتعرض الكاتبة هازلتون هذه الظروف بطريقة دقيقة للغاية ومن بين تلك الأحداث غزوة قام بها أتباع محمد (صلى الله عليه وسلّم) على أعدائهم بعد مغادرته مكة بمدة قصيرة، وتأسيسه دولة مسلمة في المدينة المنورة القريبة من مكة.

كانت الغزوة مسألة ثانوية، ولكن بسبب وقوعها في أحد الأشهر الحرام التي كان العنف خلالها محرمًا، فقد قدّمت مناسبة لنزول آية ستشكل فيما بعد اعتقاد المسلمين عن الحرب ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (سورة البقرة، الآية 217).

ومن خلال التشديد والتأكيد على سياق الأحداث فإن بإمكان الكاتب أن يشرح هذه المظاهر من حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) التي تصدم مشاعر الغرب دون الحاجة للاعتذار عنها. وتعد حادثة قتل محمد (صلى الله عليه وسلم) لرجال إحدى القبائل اليهودية في المدينة التي يقال إنها تآمرت مع أعدائه من مكة إحدى الأحداث الأكثر إقلاقًا. وكما تلاحظ الكاتبة هازلتون فإن تلك الحادثة يثيرها بعض المسلمين لإظهار خيانة اليهود، ويثيرها منتقدو الإسلام لاتهام الإسلام بمعاداة السامية.

ولا يدرك كلا الطرفين المغزى. لقد كانت الحادثة صادمة جدًا، بحيث أقلقت العديد ممن شهدوها حتى من مؤيدي محمد (صلى الله عليه وسلّم). إلا أنه يُعتقد أن تلك الحادثة كانت لإظهار قوته، والدفع بأعدائه الآخرين للخضوع سريعًا، خاصة أولئك في مكة؛ وقد نجح في ذلك نجاحًا كبيرًا. يُعد القرآن (الكريم) – الركيزة الرئيسية للإسلام- أحد أكثر مظاهره غموضًا. فهو ليس سردًا روائيًا لحياة محمد (صلى الله عليه وسلّم) أو أي شيء آخر. لكنه مجموعة من الآيات مرتبة ترتيبًا عشوائيًا نزلت عليه لأكثر من عشرين عامًا. وكانت كل آية تعالج ظروفًا معينة واجهها النبي أو أتباعه، إلا أن تلك الظروف لا يتم ذكرها في النص (القرآني). وما لم يكن المرء مطلعًا على سياق تلك الآيات، فمن الممكن أن تكون

معلومات عن الكتاب:

الكتاب: أول المسلمين: قصة محمد (صلى الله عليه وسلم)

المؤلف: ليزلي هازلتون Lesley Hazleton

تاريخ النشر: 2013

الناشر: Riverhead

عدد الصفحات: 320 صفحة

الرقم المعياري الدولي للكتاب: 9781594487286

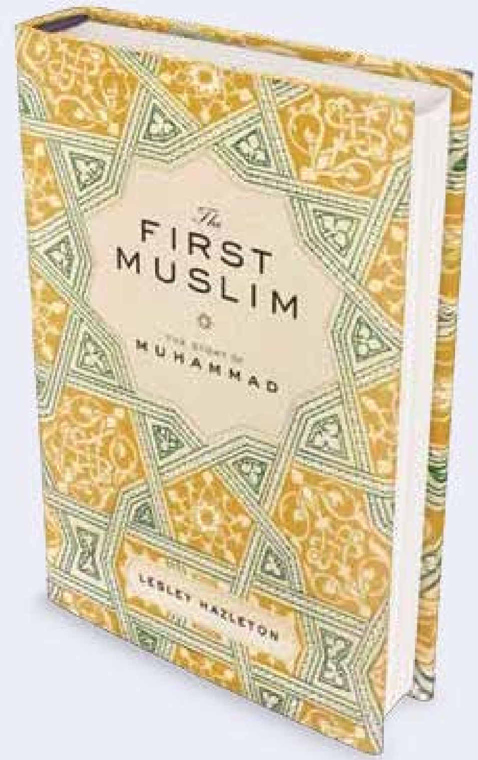
قراءة القرآن محيرة وصعبة التفسير. وتقوم الكاتبة هازلتون بوضع الآيات المبعثرة في الظروف التي تعالجها بطريقة مناسبة. ونتيجة لذلك، قد يرى العديد من القراء كتابها مقدمة شاملة للقرآن (الكريم).

لا تريد هازلتون سرد ما حدث في حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) وحسب، بل تسعى لسرد شعوره (عليه الصلاة والسلام) حيالها أيضًا آخذة في الحسبان جمهورها الكبير والواسع. وهذا ينسجم مع هدف كُتّاب السير الأكثر حداثة المهتمين ليس فقط بما فعل أصحاب سيرهم وحسب، بل بما كانوا يفكرون و يشعرون به أيضًا.

ولسوء الحظ فإن الغياب النسبي للدليل المباشر من حياة الناس الداخلية في المصادر ما قبل الحديثة – باستثناء القديس أوغسطينوس St. Augustine – يجعل ذلك المشروع صعبًا. و بالرغم من كل التفاصيل عن حياة محمد (صلى الله عليه وسلّم) التي تقدمها روايات المسلمين الموجودة إلا أن اليسير اليسير منها ما يقدم نظرة ثاقبة مباشرة في حالته العقلية.

وللتغلب على تلك الصعوبة، تسمح هازلتون لنفسها بدرجة معقولة من الرخصة التخيلية وأحيانًا تسمح لنفسها بدرجة مقلقة من هذه الرخصة. ولكن وإن كانت تبتعد كثيرًا عما تفضله الدقة البحثية الأكاديمية في ذلك إلا أن معظم القرّاء سيقدّرون صورة النبي المسلم التي يقدمها كتابها، وسيستفيدون منها.

ليس هدف الكتاب حضّ القرّاء على حب أو كره ذلك الإنسان (محمد صلى الله عليه وسلّم) ولكن الهدف ببساطة فهم القوى التي أنتجته وشكلته. من يقرأ الكتاب سيصبح مستعدًا جدًا لفهم النبي (محمد صلى الله عليه وسلم) ورسالته التي تشكّل عقيدة أكثر من مليار ونصف شخص في العالم بعد أربعة عشر قرنًا.



*جوناثون بي. بيركي هو أستاذ مشارك تخصص تاريخ في دافيدسون كوليج Davidson College ومؤلف كتاب "تشكيل الإسلام: الدين والمجتمع في الشرق القريب، "600 – 1800".

The Formation of Islam: Religion and Society in the Near East. "600- 1800" (Cambridge University Press).

رابط المراجعة:

http://www.sfgate.com/books/article/The-First-Muslim-by-Lesley-Hazleton-4224625.php

مراجعة كتاب:

‹محمد: نبي لزماننا›

للكاتبة كارن أرمسترونغ

MUHAMMAD : A Prophet for Our Time
By Karen Armstrong

نادية محمود العلي

الرياض

لا شك أنه في الحقبة الأخيرة وخصوصًا بعد أحداث 11 سبتمبر، شَاب الإسلام مغالطات ولغط كثير، وتجرأ البعض على شخصية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ونُعِتَ بصفات شنيعة ...

وبقدر ما كان هناك أصوات ومحاولات من المسلمين لتصحيح الصورة، كان هناك عقول غربية واعية وأصوات وصلت بالفعل للبحث عن الحقيقة والتعمق في شخصية نبينا والإسلام، ومنهم كانت الكاتبة كارن أرمسترونغ (Karen Armstrong) وهي مؤلفة بريطانية وقد كانت راهبة كاثوليكية ...

تنبهت كارن أرمسترونغ إلى خطورة ما يروِّجه الإعلام الغربي عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعن الإسلام فقامت بتأليف كتابها الأول في أوائل التسعينيات: (سيرة النبي محمد)، وبعد أحداث 11 سبتمبر شعرت أنها بحاجة لتأليف كتاب جديد يوضح الصورة فقامت بتأليف كتاب : (محمد: نبي لزماننا):

(MUHAMMAD : A Prophet for Our Time)

شخصيًّا أحببت أن أعرف رأي شخص محايد بالإسلام ونبيه، وقرأت كتابها مترجمًا إلى العربية بقلم: فاتن الزلباني، وبهوامش من المراجعين وعدد صفحات بلغ 211 صفحة، والكتاب المترجم صدر عام 2008 من قبل دار الشروق الدولية.

أبحرتُ في سيرة نبينا وخضت معه في عواصف الصحراء وتقلباتها منذ الجاهلية وحتى موته صلى الله عليه وسلم، وانحدرتْ عبراتٌ رغما عني وأنا أقرأ ساعة وفاته، وما مرَّ به من مشقات وتَحَمَّلِ ما لا يمكن تحمله من قسوة البشر ...

حاولت الكاتبة كارن، في خمسة فصول:

(مكة – الجاهلية – الهجرة – الجهاد – السلام)

أن تصوغ السيرة من رؤيتها الحيادية ومن نظرتها للنبي أنه بشري كلفه الله بنشر رسالته، كنبينا موسى وعيسى وإبراهيم عليهم السلام، مؤكدة أن محمدًا صلى الله عليه وسلم، لم يكن معاديًا للأديان الأخرى وخاصة اليهودية والمسيحية، وإنما تعامل مع خيانة القبائل اليهودية

والعربية على حد سواء في واحة المدينة المنورة وفقها حسب الظروف ولم يكن بسبب ديانتهم ...

وحاولت توضيح الظروف المحيطة والطبيعية وما كان سائدًا لتبرير تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم، وحتى أنها بررّت تعدد زيجاته وأنه كان مقبولاً في ذلك الوقت كوسيلة لنشر السلام بين القبائل بالمصاهرة.

كما ذكرت أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي رفع مكانة المرأة، وسمح لها بأن ترث، وأن يكون لها رأي، وساواها مع الرجل في العبادة والحقوق والواجبات ...

شرحت أيضًا كيف كان وضع مكة وقريش والعرب عمومًا والتقاليد السائدة، وأن المروءة كانت أن يكون الفرد مع القبيلة على الخطأ والصواب، وبيّنت أن الجاهلية لم تكن تعني الجهل فحسب أو الفترة ما قبل الإسلام وإنما: "هو العنف المزمن في الاعتداء على الآخرين والانتقام منهم نتيجة الغضب السريع والحساسية الزائدة للشرف والمكانة" (الصفحة 73) ...

وفي الصفحة نفسها ذكرت أن الإسلام حثّ على التخلي عن الجاهلية، والتحلي بالصبر والحلم والرحمة والإيثار ومساعدة المحتاجين وتحرير العبيد والمناصحة في فعل الخير، والتصرف برفق وطيبة، فالمسلمون مسالمون، واستشهدت بسورة "البلد" ...

ذكرت الكاتبة في الصفحة 90 أن الله لم يكن حكرًا لأحد أو لناموس واحد، وأنه مصدر معرفة وعلم ونور لكل الإنسانية، واستشهدت بسورة النور الآية 35:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

وكذلك الإسلام لم يكن للعرب وحدهم، وأن نبينا إبراهيم كان مسلمًا، وكذلك أبناؤه من بعده، واستشهدت بآيات أيضًا، فالتوحيد لم يكن غريبًا على العالم آنذاك، من خلال الحنفية دين إبراهيم عليه السلام ...

وفي فصل الجهاد ذكرت أن الجهاد لم يكن يعني الحرب المقدسة، ولكنه: "بذل الجهد أو الكفاح الضروري لممارسة ما أراده الله من المرء، وعلى المسلمين أن يبذلوا جهدهم في كل المجالات: الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والروحية والعائلية، طبقًا لما أراده الله منهم، وفي بعض الأحيان سيضطرون للقتال ولكن ليس هذا واجبهم الرئيسي" (الصفحة 127 - 128)

وأن القتال فُرِضَ على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أتباعه، وكان لا بد منه في كثير من الأحيان للدفاع عن النفس أو الاقتصاد، فالإسلام ليس دين حرب وقتال ولم يقم على حد السيف قط، وإنما ترك النبي محمد الحرية المطلقة للناس، وعندما فتح مكة لم يكن أبدًا هدفه الحكم السياسي أو تجريد قريش من سياداتها، وإنما كان هدفه تغيير معتقدات الجاهلية، ونشر السلام ...

وأن القتال لم يتخذ صبغة دينية إلا بعد اغتيال الخلفاء الراشدين عمر وعثمان وعلي ...

ختمت كارن بعبارات ذكية ومتفهمة كتابها في آخر الصفحة 191 والصفحة 192 حيث قالت: "يصر النقاد الغربيون على رؤية محمد كرجل حرب، ويقصرون عن رؤية معارضته منذ البداية لروح التكبر والأنانية الجاهلية، التي أسفرت عن العدوان على الآخرين، ليس فقط في عصره، وإنما ما زالت متقمصة بعض قادة الغرب وقادة المسلمين على حد سواء .. والآن يتحول النبي الذي كان رمزًا للسلام والتراحم إلى رمز للفرقة والنزاع، في تطور ليس فقط مأساويًا، ولكنه أيضًا خطير على الاستقرار الذي يعتمد عليه مستقبل البشر.."

وتضيف قائلة: "ما لم تتعلم الحضارة الغربية ثقافيًا وسياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، وتتعلم الكنيسة المسيحية اللاهوتية، أن تعامل الآخرين باحترام، بشكل رئيسي، فسيفشل كل منهما في التوافق مع القرن العشرين، ومشاكل ذلك في المسيحية عويصة بقدر ما لمسناه في الإسلام ..."

ختمت الكاتبة بأنه على المسلمين والغرب أن يتعلموا التسامح وتقدير الآخر، وأن يجعلوا محمدًا صلى الله عليه وسلم نقطة انطلاق لهم، فهو: "رجل مركب يعصى على التصنيف الأيديولوجي، أتى ببعض الأعمال التي يصعب أو يستحيل علينا قبولها، لكنه ذو عبقرية أصيلة، وأسس دينا وتقاليد ثقافية، ليس على السيف، ولكن على السلام - كما يعني اسم الدين – وعلى التصالح"

سُعِدت كثيرًا بالقراءة لقلم متفهم كقلم كارن أرمسترونغ، واطلعت على أحداث لم أكن أعرفها في سيرة نبينا العظيم – كسبب نزول بعض الآيات وقراءة أسباب بعض المعاهدات والمعارك - ورؤية لم أكن أعرفها له، وأسأل الله أن أكون قد وُفقتُ في إيضاح هذه الرؤية ...

معلومات عن الكتاب:

الكتاب: محمد: نبي لزماننا MUHAMMAD , A Prophet for Our Time

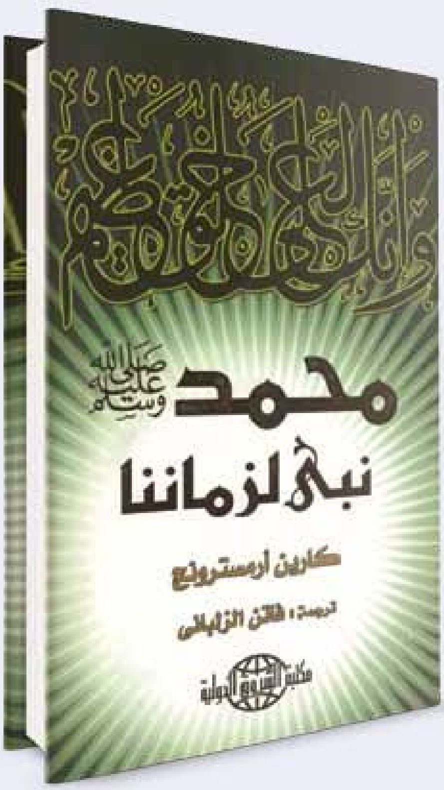
المؤلف: كارن أرمسترونغ Karen Armstrong

ترجمة: فاتن الزلباني

تاريخ النشر: 2008

الناشر: مكتبة الشروق الدولية

عدد الصفحات: 211 صفحة



«يوم مع» الحياة اليومية لشخصيات وقادة عن قرب



معلومات عن الكتاب:

الكتاب: يوم مع Une journée avec
المؤلف: 20 كاتبًا، إشراف: فرانز ـ أوليفييه جيسبير
الناشر: فلاماريون Perrin
تاريخ النشر: 2016/05/04
عدد الصفحات: 390 صفحة
الرقم المعياري الدولي: ISBN: 9782262050702

تعتزّ الأمم بتاريخها، وتُبدي ذلك بأشكال مختلفة. وليس أقلّها شيوعًا كتابة ما عرفته هذه الحقبة التاريخية أو تلك من مسار الأمّة المعنيّة... أو من خلال كتابة سير حياة الشخصيات ـ الرموز التاريخية، والعودة إلى أقوالهم أو المعارك التي خاضوها أو الإنجازات التي قدّموها... إلخ.

ولكن إذا كان أبناء الأجيال الحالية أو الذين سبقوهم والذين سيعقبونهم يعرفون عميقًا أغلب المحطات والمنعطفات الأساسية التي عرفها عظماء تاريخهم، من خلال ما كتبه المختصّون بمادة التاريخ وبمختلف الحقب، فإن القليل تعرّضوا لما كان أولئك العظام قد عرفوه في حياتهم اليومية من ممارسات وأحداث كانت في المحصّلة هي التي نُسجت منها حياتهم.

مشاركة

وفي مثل هذا السياق صدر مؤخرًا كتاب تحت عنوان «يوم مع..» يشارك فيه 20 مؤرّخًا وصحافيًا وكاتبًا. ويشرف على إنجازه فرانز ـ أوليفييه جيسبير، الصحافي الشهير والمدير السابق لمجلّة «لوبوان» الفرنسية ومؤلف العديد من الكتب، وكلود كيتيل، المؤرّخ الفرنسي، المختص بتاريخ الحرب العالمية الثانية.

ويحاول المساهمون في هذا الكتاب الإجابة عن عدد من الأسئلة بالنسبة لكل شخصيّة من الشخصيات التي يتعرّضون لنمط حياتها اليومية. أسئلة مثل ما هي العادات التي كانت تغلب على سلوكهم، وماذا كانت هواياتهم؟ وكيف كانوا يمضون أيامهم؟

وفي أيّ ساعة كانوا ينهضون من نومهم وفي أي ساعة كانوا يذهبون إلى فراشهم للنوم؟ وهل كان أولئك القادة الكبار الذين غيّروا وجه العالم من أمثال جوزيف ستالين ونابليون بونابرت من النائمين المجدّين كثيرًا في يومهم؟ وهل كانوا يقضون بعض أوقاتهم في الترفيه عن أنفسهم؟ وهل كانوا يميلون للعزلة والابتعاد عن الآخرين؟ وسلسلة طويلة من الأسئلة التي تخص حياتهم اليومية.

إن الإجابة على مثل هذه الأسئلة تشكّل في واقع الأمر الخصوصية الأساسية، التي يتسم فيها هذا العمل من حيث إنه يشكّل مساهمة في كتابة تاريخ العالم الذي نعيش فيه من خلال الحياة اليومية لأولئك الذين ساهموا في صناعة مساره.

إنهم عشرون من المشاهير الذين عرفهم العالم، والغربي منه بشكل خاص، منذ العصور الوسطى حتى الحقبة الحاضرة. والشخصيات التاريخية الكبرى التي يتم التعرّض لها في كل مساهمة من مساهمات الكتاب، تضم أسماء رجال وسيدات يستحقون بالفعل توصيف الرموز التاريخية.

هكذا يتم التعرّض لماري أنطوانيت وشارلمان وجورج كليمنصو وونستون تشرشل وجوزيف ستالين ونابليون بونابرت والجنرال شارل ديغول وجون كينيدي وغيرهم. في المحصّلة تتيح قراءة هذا الكتاب التعرّف على الكثير من الصفات وأنماط عيش وأشكال اهتمام ورغبات ونزوات وأشياء كثيرة أخرى عن كل شخصيّة من الشخصيات المدروسة.

هكذا يبدو أن مملكة الجنرال ديغول الحقيقية كانت تتمثّل في الكتابة، والتأكيد على مجموعة من القواعد التي ألفها وطبّقها عندما كان في قصر الإليزيه. هكذا كان يتم إيقاظه كل صباح من قبل أحد المكلّفين بالخدم الذي يبادره بجملة «أسعد تصباحًا سيدي الجنرال»، ثم يخبره عن حالة الطقس في ذلك اليوم، ثمّ يقوم مكلّف آخر بوضع الصحف في المكتب القريب كي «يتصفّحها» الجنرال وهو يتناول طعام الإفطار مع زوجته، العمّة إيفون».

علاقات

والإشارة أن السيدة إيفون كانت قد تعوّدت على إلقاء صحيفتي «لو كانار انشيني ـ البطّة المقيّدة ـ الساخرة» و«مينوت» اليمينية المتطرّفة» في سلّة المهملات معتقدة أن الجنرال «لم يلحظها وهي تفعل ذلك». والتأكيد بهذا الصدد أن علاقات الجنرال مع الصحافة الفرنسية كانت صعبة»، وكذلك كان «يكنّ بغضًا شديدًا لجهاز الهاتف بحيث إن رئيس الحكومة وحده كان يملك حق خرق تلك القاعدة».

وشخصيّة فرنسية شهيرة أخرى كانت مولعة بالقراءة والثقافة هي الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران. والإشارة أن كل النامين حوله كانوا ينتظرون منه باستمرار وفي كل لحظة السؤال التالي: ماذا تقرأ اليوم؟. هكذا كان أولئك الذين يريدون التقرّب منه وحضور لقاءاته يبحثون عن سبل تقديم معلومة ثقافية جديدة له. وكأنهم في امتحان شفهي في مادة الثقافة.

وكان ميتران يقول لأولئك الذين يقدّمون حجّة ضيق الوقت مما لا يسمح بالقراءة ما مفاده «افعلوا مثلي ومارسوا القراءة بين الساعة الحادية عشرة ليلاً وحتى نهاية الساعة الأولى بعد منتصف الليل».

ولم يكن ذلك الرئيس المثقف يتردد في «إحراج محدثيه» وسؤالهم مثلاً عمّا جرى في الحلقة الأخيرة من مسلسل «دالاس» الأمريكي الشهير. وكذلك معرفة أن الرئيس الأمريكي الأسبق الراحل جون كينيدي كان قد ارتبط بـ«علاقات خطيرة»، ربما كانت أحد الأسباب التي أدّت إلى اغتياله.

وأن الملك فرانسوا الأول «كان محاطًا في أسفاره بـ400 من رماة السهام و100 من السويسريين للقيام بحمايته. ذلك بالإضافة إلى 500 شخص من الذين كانوا يقومون بأعمال الطبخ والأعمال المنزلية وخدمة الخيول». ومما يتم ذكره بالنسبة لماري أنطوانيت أنه في اللحظات الأخيرة من حياتها قبل تنفيذ حكم الإعدام بها دخل عليها في مكان اعتقالها أربعة من القضاة، كي يقرؤوا عليها للمرّة الثانية نص الحكم الصادر بحقّها.

وظهر على الباب رجل عملاق هو الجلّاد هنري سانسون، الذي كان والده هو الذي نفّذ حكم الإعدام بحق لويس الرابع عشر. وبعد اجتزاز شعرها وإحراقه تمّ ربط يديها خلف ظهرها وجرّها الجلّاد بالحبل الطويل الذي كتفوها فيه كما كانت تساق الخرفان إلى المسلخ.

تاريخ جديد

إن المساهمين في هذا الكتاب لا يركزون في واقع الأمر على دراسة الأحداث التاريخية الكبرى للشخصيات المعنية. لكنهم يولون اهتمامهم بالأحرى للدور الذي لعبته نمنياتهم في توجيه مسار التاريخ. وما يشكّل بحد ذاته طريقة تجديدية في كتابته. ويطلق المشرفان في مقدمة الكتاب على عملهم توصيف التاريخ الجديد.

المشرفان في سطور

فرانز. اوليفييه جيسبير هو صحافي فرنسي شهير. تولّى لسنوات إدارة مجلة «لوبوان» الفرنسية الأسبوعية. قدّم العديد من الأعمال الروائية وكتب السيرة كان آخرها «سيرة حياة جاك شيراك».

وكلود كيتيل، مؤرّخ فرنسي، قدم العديد من الأعمال حول الحرب العالمية الثانية من بينها «المرأة في الحرب العالمية الثانية» و«الهزيمة التي لا تغتفر»... إلخ.

‹نساء في مسيرة العلم› - 50 امرأة باسلة، رائدات ساهمن في تغيير العالم

ارتبط تاريخ المسيرة العلمية في التاريخ الإنساني بالرجال، بينما قلة هن النساء اللواتي برزن في هذا المضمار. هذه هي المقولة السائدة بصورة عامّة منذ القدم حتى اليوم.

وبرغم كل ما يقال عن أن المرأة نصف المجتمع، تتفق آراء الكثير من الباحثين أن المكانة العلمية الرفيعة للرجال قابلها في الواقع تهميش دور المرأة، بل حرمانها إلى حد كبير من التربية والتعليم عمومًا، وخاصة حرمانها من حضور دروس المواد العلمية على وجه الخصوص.

لكن تلك الصورة السائدة عن الدور الهامشي للمرأة في المسيرة العلمية لا تعبّر عن الواقع. وهذا بالتحديد ما تريد الباحثة والرسّامة الأمريكية «راشيل انيوتوفسكي»، المعروفة بمساهماتها في صحيفة «نيويورك تايمز»، أن تثبته في كتابها الصادر مؤخرًا تحت عنوان «نساء في مسيرة العلم»، وهي تقدّم فيه «50 امرأة باسلة، رائدات ساهمن في تغيير العالم»، كما يقول عنوانه الفرعي.

خصوصيّة هذا الكتاب وتفرّده إلى حد كبير في مجال الكتب المهتّمة بالعلوم وتاريخها: أن المؤلفة تجمع بين الجانب الفنّي ـ الإبداعي عبر ما تقدمه من «رسوم» للنساء ـ العاملات في حقل العلم وللإنجازات التي حققتها وبين التوثيق الدقيق لمسيرتهن العلمية من موقع الباحث الرصين.

تجدر الإشارة إلى أنه إذا كان الجانب الفنّي في هذا الكتاب من خلال تقديم إنجازات النساء العالمات المعنيات بارزًا عبر رسوم المؤلفة الشهيرة، فإن هذا لا يقلل من أهميّة ودقّة المضمون العلمي، لما يحتوي عليه من شرح السياق، الذي تمّت فيه المساهمات العلمية وتقديم نبذة عن سيرة حياة اللواتي كنّ وراء تلك المساهمات.

ومن الأفكار التي تؤكّدها المؤلفة أن ما قامت به النساء الرائدات الخمسون اللواتي تقدّم باختصار كبير مسيرتهن العلمية لأبيّن للعالم أجمع أنه ليس هناك تمييز في عالم المعرفة بين الجنس، رجل أو امرأة، والعرق، بل إن جميع البشر قادرون على تحقيق إنجازات كبيرة.

والأسماء التي تقدّمها المؤلفة تضم نساء حصلن على شهرة عالمية، وعلى الاعتراف العام بهنّ كرموز في المسيرة العلمية الإنسانية، وليس أقلّهن شهرة «ماري كوري»، البولندية الأصل ثم اكتسبت الجنسية الفرنسية، التي شاركت بفعالية كبيرة مع زوجها «بيير كوري» باكتشاف الصفة الإشعاعية لبعض المواد.

وكانت المرأة الأولى التي حصلت مع زوجها بيير كوري على جائزة نوبل للعلوم الفيزيائية عام 1903. قدمت ماري كوري إلى باريس عام 1891 حيث وجدت نفسها، بعد عناء، طالبة في كليّة العلوم بين أغلبية ساحقة من الطلبة الشباب.

لكنها حصلت على الشهادة الجامعية في المرتبة الأولى بين دفعتها. وشرعت بدراسة الدكتوراه في مجال «الصفات المغناطيسية للمعادن»، وفي عام 1894 أعلنت عن اكتشافها لمادة «البولونيوم»، التي تزيد قدرتها الإشعاعية 400 ضعف بالقياس إلى اليورانيوم.

وأسماء شهيرة أخرى لنساء ـ عالمات تتعرّض لها في هذا العمل من بينها «آدا لوفلاس»، البريطانية، التي عاشت في القرن التاسع عشر، التي يتم اعتبارها بمثابة «المخترع الأول لبرنامج معلوماتية»، و«المبرمج المعلوماتي الأوّل» من خلال عملها على «آلة تحليل حسابي» اخترعها «شارل باباج»، التي يتم النظر لها بمثابة «أحد جدود» الحواسيب الإلكترونية الحالية.

و«ماي جاميسون»، الأمريكية ذات الأصول الإفريقية و«رائدة الفضاء»، التي نفّذت مهمة فضائية عام 1992، وأمضت إجمالاً 190 ساعة و30 دقيقة في الفضاء. و«جان غودال» البريطانية التي كرّست جهودها لدراسة سلوك بعض الحيوانات، وكانت أوّل من اكتشف أن قرود «الشامبانزي» تستخدم أدوات لإعداد غذائها. وأسماء نساء أخرى رائدات في عالم العلوم.

وتشرح المؤلفة أن هيباتيا ذات الأصل اليوناني كانت مصرية ومن مواليد الاسكندرية وفيها ترعرت وعاشت. والدها هو الفيلسوف الشهير «ثيون الاسكندراني»، وزوجها هو الفيلسوف «ازيدور» من غزّة. كان والدها من أشهر فلاسفة عصره، وكان عالمًا وأستاذًا في الرياضيات، حيث دّربها لولوج سبلهما. هكذا عملت مديرة لـ«المدرسة الأفلاطونية الجديدة» في الاسكندرية.

كذلك لا يعرف كثيرون ما قدّمته «أليس أوغست بال»، عالمة الكيمياء الصيدلانية والعقاقير الطبيّة. وكانت تلك الأمريكية ذات الأصول الإفريقية، المولودة في سياتل بولاية واشنطن، قد تخرّجت عام 1915 من جامعة هاواي حيث حصلت على الشهادة العليا في مجال الكيمياء. وكانت بذلك هي المرأة الأمريكية ـ الإفريقية الأصل تحصل على تلك الشهادة، بل والتي لم يكن قد نالها رجل أمريكي من أصول إفريقية.

المساهمة العلمية الكبرى التي قامت بها «أليس بال» تتمثل بأنها قامت، كما تشرح المؤلفة، بتطوير علاج لمرض الجذام ـ البرص ـ في أوائل القرن العشرين.

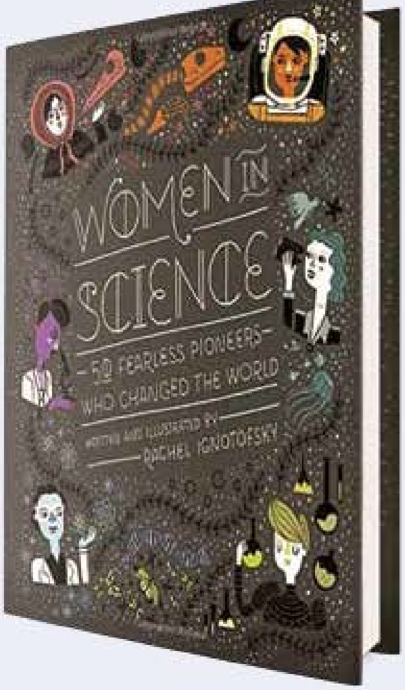
وكانت قد سعت أوّلاً إلى عزل «الجرثومة» المسببة للمرض، ثمّ طوّرت علاجًا بقي مستخدمًا في المستشفيات، وكان من الأكثر فعالية في معالجة المرضى حتى سنوات الأربعينيات من القرن العشرين عند انتشار المضادات الحيوية. لقد توفيت «أليس بال»، وهي في الرابعة والعشرين من عمرها في مسقط رأسها بمدينة سياتل.

في المحصّلة تقدّم مؤلفة هذا الكتاب عملاً يجمع بين البعد التربوي المهم وبين الجانب الجمالي ابتداء من الغلاف، ثمّ على الكثير من الصفحات الداخلية. ولا شكّ أن هذا الكتاب يشكّل مدخلاً مهمًا للتعرف على المساهمات العلمية التي قدّمتها 50 امرأة في مختلف المجالات والعلوم ومنذ الحقب القديمة إلى اليوم.

وتحدد مؤلفة الكتاب القول: إن الميزة الكبرى التي تجمع بين النساء الخمسين اللواتي ساهمن في تقدّم مسيرة العلوم، أنهن برعن في هذا المشرب أو ذاك من العلم. ذلك لأنهن أحببن المشارب العلمية التي كنّ يبحثن فيها، مهما كانت درجة صعوبتها ومهما كانت العقبات التي واجهت مسيرتهن. وأعطين كل الوقت والجهد لخوض غمار عالم المعرفة الرحب.

المؤلفة في سطور

راشيل انيوتوفسكي هي رسّامة وباحثة أمريكية. اشتهرت في الولايات المتحدة بما تقدمه من رسوم توضيحية في ما يخص الدراسات والمقالات العلمية المنشورة في صحيفة «نيويورك تايمز» منذ سنوات. هذا هو كتابها الأوّل.



معلومات عن الكتاب:

الكتاب: نساء في مسيرة العلم، 50 امرأة باسلة، رائدات أسهمن في تغيير العالم Women in science

المؤلف: راشيل انيوتوفسكي

الناشر: تين سبيد برس، نيويورك

تاريخ النشر: 2016

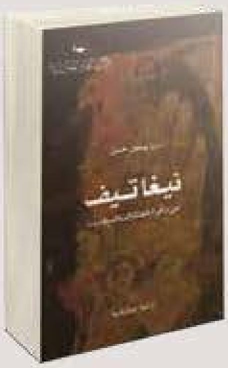
عدد الصفحات: 128 صفحة

الرقم المعياري الدولي: ISBN: 978-1607749769

10 كتب عربية تروي حكايات السجون

يتفق الجميع بأن الحرية أغلى ما يمكن أن يملكه الإنسان بدونها يصبح الإنسان مسلوب الإرادة، هنا عدد من الروايات والكتب لحكايات ممزوجة بالعذاب والمآسي حدثت بين جدران السجون، تلتقط لنا صورة باللون الأسود والأبيض لأقبية السجون ووحشتها بما تمتلك من عذاب.

ستجد لهؤلاء الكتّاب الكثير في قصصهم من العبر، والدروس، التي قدموها لنا خلاصة سنوات من الألم والعذاب والمعاناة.



1

الكتاب: نيغاتيف : من ذاكرة المعتقلات السياسيات

المؤلف: روزا ياسين حسن

رواية توثيقية، تكشف فصولها عن معاناة للمعتقلات السياسيات داخل السجون السورية خلال عقد التسعينيات من القرن الماضي، وتفضح قمع النظام السوري في تعامله مع المعارضة النسائية بشقيها الشيوعي والإسلامي كأبرز اتجاهين للمعارضة النسائية بسورية. كما تبرز أيضًا ضمن هذا العمل مآسي إنسانية عديدة يكشف عنها النص الأدبي في أكثر من موضع من الرواية.



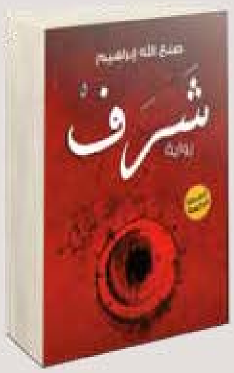
2

الكتاب: القوقعة

المؤلف: مصطفى خليفة

الرواية صدرت عن دار الآداب، حيث جسد مصطفى خليفة قصة سجنه وتعذيبه طوال 13 عام في السجون السورية، بعدما تم القبض عليه في مطار سوريا في أثناء عودته من فرنسا، وظل طوال هذه السنين، يُعذب بكافة أنواع وأشكال ومفاهيم التعذيب، النفسية والجسدية، دون أن يعرف التهمة الموجهة إليه.

مصطفى خليفة مخرج سينمائي قبل أن يكون كاتب، وهذا جليًا في كتابته حيث صوّر مشاهد التعذيب، كما لو كان يروي فيلمًا، لذلك من الصعب جدًا خروج هذه المشاهد المصوّرة ببراعة من مخيلتك.



3

الكتاب: شرف

المؤلف: صنع الله إبراهيم

صدرت رواية "شرف" عن دار الهلال 1997، واحتلت المركز الثالث في قائمة أفضل مئة رواية عربية.

وتعد رواية "شرف" رواية سوداوية إن أمكن القول، تناقش أسرار وخبايا السجون المصرية بفسادها وطغيانها، وما يدور داخلها من ظلم وافتراءات، كما تسلط الضوء أيضًا على ما يعانيه الاقتصاد والمجتمع المصري من كوارث.

الرواية مليئة بالأحداث التاريخية والاقتصادية والسياسية.



4

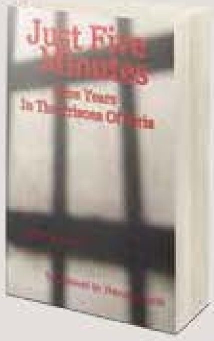
الكتاب: شرق المتوسط

المؤلف: عبدالرحمن منيف

صدرت عام 2001 عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، تتسم روايات عبدالرحمن منيف بمناقشة الواقع الاجتماعي والسياسي العربي، بكل جرأة وقوة.

تعد هذه الرواية أول رواية عربية تنتمي لأدب السجون، وبفضلها تجرأ الكتّاب على التطرق لهذا النوع من الأدب، حيث تلتها سيل من الروايات التي تصنف تحت أدب السجون.

تناقش الرواية الاعتقال السياسي، والقمع في الدول العربية دون تحديد أسماء أو مدن.

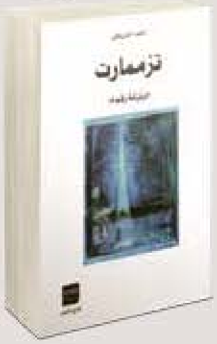


5
كتاب: خمس دقائق وحسب .. تسع سنوات في سجون سورية
المؤلف: هبة الدباغ

تحكي هذه الرواية معاناة الكاتبة داخل السجون السورية، ويجسد عنوان الرواية ليلة القبض عليها، عندما طلب منها رئيس المخابرات أن تحضر معه للتحقيق 5 دقائق وحسب، فعادت إلى بيتها بعد 9 سنوات.

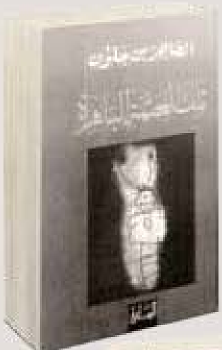
الرواية لا تسلط الضوء على التعذيب داخل السجون بقدر ما تركز على السجين نفسه، وحالته النفسية، وعلاقته بمن حوله.

لم تكن هبة الدباغ متهمة بشيء، فقط كل ما في الأمر أن أخاها كان ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين، فتم القبض عليها لاستدراجه. وبعد خروجها من السجن لم تجد أحدًا من عائلتها، فقد تم إعدامهم جميعًا بمجزرة حماة 1982، الرواية تحمل ألمًا كبيرًا، والكثير من المآسي التي تعرض لها الكاتبة.



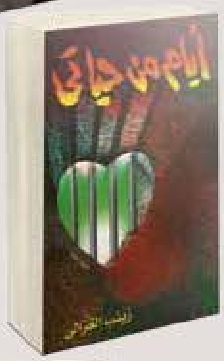
6
الكتاب: تزممارت: الزنزانة رقم 10
المؤلف: أحمد المرزوقي

صدرت هذه الرواية عن دار طارق للنشر، عام 2009، يروي فيها الكاتب معاناة 18 عامًا داخل سجن "تزممارت" لتورطه في محاولة انقلاب 1971 ضد ملك المغرب الحسن الثاني، فشلت المحاولة وتمت محاكمته عسكريًا، وترحيله إلى سجن "تزممارت"، وهناك تلقى أشد أنواع العذاب.



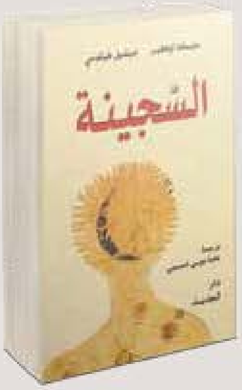
7
الكتاب: تلك العتمة الباهرة
المؤلف: الطاهر بن جلون

صدرت عن دار الساقي عام 2002، ويوثقها الطاهر بن جلون، وهي تتحدث عن معتقل "تزممارت"، تروي مأساة أحد السجناء الذين تورطوا في انقلاب الصخيرات، وهو السجين عزيز بنبين، الذي قضى عامين في السجون المغربية، ثم نُقل إلى جحيم "تزممارت" ليقضي فيه 18 عامًا.



8
الكتاب: أيام من حياتي
المؤلف: زينب الغزالي

تعد هذه الرواية من أقدم الروايات المصنفة تحت أدب السجون، صدرت عام 1999، عن دار التوزيع والنشر الإسلامية، بطل الرواية هذه المرأة، وهي زينب الغزالي السياسية التابعة لجماعة الإخوان المسلمين في مصر، تدور أحداث الرواية خلال مدة حكم جمال عبد الناصر، حيث تسلط الضوء على التضييق الممارس تجاه الإسلاميين آنذاك، ثم تنتقل الأحداث إلى داخل السجن، حيث قضت زينب الغزالي 6 سنوات من الألم.



9
الكتاب: السجينة
المؤلف: مليكة أوفقير

مليكة ابنة الجنرال أوفقير، التي عاشت حياتها في القصور، لتجد نفسها فجأة وبدون سابق إنذار قابعة بين أربعة جدران هي وعائلتها، تروي مليكة محاولة والدها للانقلاب على الملك الحسن الثاني، وكيف تجرعت العذاب طيلة 15 عامًا، هي وعائلتها جراء هذه المحاولة التي باءت بالفشل، الرواية مأساوية بالدرجة الأولى، وأسلوب السرد مؤلم، لن تتخيل أن هذه الأحداث حقيقية لشدة قسوتها، إنها حياة السجون التي تفوق كل التوقعات.



10
الكتاب: بين السجن والمنفى
المؤلف: أحمد عبدالغفور عطار

صدر هذا الكتاب عن المركز الثقافي العربي في بيروت للأديب السعودي الرائد أحمد عبد الغفور عطار (1916 – 1991) في أول طبعة رسمية، حيث ألف (العطار) كتابه عام 1936 وأصدره – بصورة غير رسمية – عام 1981.

كتاب (بين السجن والمنفى) يروي قصة اعتقال (العطار) تسعة أشهر عام 1936 قضاها في سجن الفرن في مكة المكرمة، ثم في سجن المصمك في الرياض بسبب وشاية، وحين ثبتت براءة (العطار) من التهمة المنسوبة إليه، وهي الكتابة ضد المملكة في الصحف المصرية – آنذاك – أمر الملك عبد العزيز آل سعود بإطلاق سراحه وتقديره.



1

أوجاع تعليمية

وجع المعلم (المعلم الجاني والمجني عليه)



د. محمد شوقي شلتوت

أستاذ تكنولوجيا التعليم المساعد ومدير مركز التعلم الإلكتروني بكليات الشرق العربي للدراسات العليا السعودية
واستشاري التعليم الإلكتروني والفنون البصرية

/http://www.shaltot.com

@drshaltout





ما أكثر ما يصيبنا من أوجاع في هذه الحياة، وأصعبها التي تصيبنا بأفكارنا وتجعل منا رأسًا فارغًا لا يوجد به هدفًا أو رسالة واضحة نؤديها. ولدي الكثير من الأوجاع التي أصابتني وما زالت للأسف تسري بعروقي، وهي أوجاعي تجاه العملية التعليمية في الوطن العربي، سوف يستغرب الكثير من حولي أن أكتب السطور القادمة وقد تعودوا إنني المتفائل دائمًا الذي لا تفارقه الابتسامة، والذي يكتب في كل ما هو جديد في مجال التقنية والفنون البصرية، ولكني أطمئنكم أنني ما زلت متفائلاً مبتسمًا إلى أن أفارق الحياة بإذن الله، ولكن أريد أن أعبر عن أوجاعي لعلها تكون بارقة أمل في إصلاح التعليم بالوطن العربي.

أوجاعي التعليمية لم تكن وليدة اللحظة، إنما بدأت معي من خلال عملي في التدريس لطلاب الدراسات العليا والبحث العلمي، وكذلك العمل في مجال تقديم الاستشارات لعدد كبير من الجهات التعليمية بالوطن العربي، حيث تعايشت بداخل الحقل التعليمي بين المعلمين والمعلمات والمشرفين والطلاب، فبدا الوجع بسيطًا ثم تحول إلى آلام كبيرة تفعتني، لكي أعبر عنها في السطور القادمة، حيث وجدت الكثير من المشكلات التي لها الأثر السلبي الكبير في العملية التعليمية، التي أحسست إنها أوجاع أصابت الأعمدة الرئيسية بالعملية التعليمية من معلم وطالب ومنهج، وأقدم بين أيديكم أوجاعي التعليمية الثلاثة في شكل سلسلة مقالات، التي أتمنى وأدعو الله بشفاء العملية التعليمية العربية منها لترتقي بالمخرجات التعليمية بشكل أكثر تطورًا وتفاعلاً بإذن الله تعالى.

وفي السطور القادمة لن أكون جلادًا للمعلم ككثير من الناقدين في زماننا هذا، ولكن سأحاول أن أكون منصفًا ليس معه ولا ضده، إنما سأعرض ما تعايشته مع الكثير من المعلمين من خلال عملي، وما أحسست به من التعامل مع الكثير من المعلمين من مشكلات، وسأعرضها في مسارين وهما "الجاني والمجني عليه":

المعلم "الجاني":

الكثير من المعلمين سيتضايقون من هذه التسمية، فكيف يكون من يحمل رسالة العلم جانيًا، ولكني أطلب منهم أن يتحلوا بالصبر إلى أن ينتهوا من قراءة السطور القادمة لأن المعلم أصبح جانيًا وهو لا يشعر بذلك، وسوف أستعرض النقاط التي جعلت منه جانيًا تجاه طلابه وتجاه العملية التعليمة ككل، وهي:

- عدم إيمانه برسالته حيث أصبحت في نظر الكثير من المعلمين، إنها وظيفة لحصول على راتب وليست رسالة يؤديها بشكل متفانٍ ليكون لها الأثر الكبير في إخراج جيل صالح ينفع الأمة.

- عدم تطويره لنفسه حيث إن الكثير من المعلمين لا يضع لنفسه خطة لتطوير نفسه، من حيث طريقة التعامل مع التقنيات والأساليب الحديثة في التدريس وغيرها، وسيكون رد الكثير من المعلمين إن التطوير يحتاج إلى تكاليف مالية، وسيكون الرد مني أن شبكات الانترنت بها الكثير من المواقع المجانية، التي تقدم الكثير للمعلمين مجانًا، ولكن يحتاج من كل معلم أن يضع خطته الخاصة لتطوير نفسه، ويجتهد أكثر لتحقيقها.

المعلم "مجني عليه":

المعلم مجني عليه، كيف هذا؟ نعم مجني عليه، حيث يعيش الكثير من القهر والتهميش، وهذا سيتضح للقارئ من خلال السطور القادمة، التي توضح كيف أن المجتمع جنى على المعلم كثيرًا، وما زال يجني عليه.

- عدم تعليمه جيدًا: حيث يحدث صدمة للكثير من المعلمين الجدد، عندما يبدأ حياته المهنية عندما يجد نفسه إنه لم يتعلم الكثير في أثناء دراسته الجامعية حتى يساعده في أداء وظيفته بشكل جيد، مما يكون له الأثر السيئ على المعلمين في ترك وظيفة التدريس، والاتجاه إلى أعمال إدارية أو وظائف أخرى، لذلك نحتاج إلى تطوير كليات التربية، بحيث يقدم بها ما يلمس واقع المدارس الآن من مهارات يحتاجها المعلم.

- النظر لمهنة المعلم إنها مهنة في آخر السلم المهني: حيث نجد أن الكثير من المهن مميزًا تميزًا واضحًا، إلا مهنة المعلم، فهي مهمشة، فإذا لم نتوقف قليلاً ونظرنا إلى مهنة المعلم على إنها مهنة عظيمة سيكون له الأثر في مخرج تعليمي ضعيف، ينعكس على باقي المهن الأخرى أيضًا وعلى المجتمع ككل.

- عدم اشتراك المعلم في تطوير العملية التعليمية: كعادة الكثير من وزارات التعليم في بلادنا العربية، تأتي بالخبراء من شتى بقاع الأرض لتطوير العلمية التعليمة، ويتناسوا إشراك من بداخل الميدان التعليمي وهو المعلم، حيث من المفترض أن يسأل المعلم قبل أي تطوير لأنه هو من يعايش الواقع التعليمي، لذلك سيعطي تطويرًا صادقًا وليس مجرد تطوير أمام كاميرات الإعلام.

- سياحة التدريب: تقدم وزارات التعليم بوطننا العربي الجميل العديد من الدورات التدريبية، التي للأسف الكثير منها غير مبني على احتياجات المعلم، إنما مجرد سياحة للمعلمين للذهاب إلى رفاهية أو مجرد أن يقال: إن الوزارة تقوم بتدريبهم وعند النظر إلى ناتج التدريب تجدها إنها لا تسمن ولا تغني من الجوع ولا يوجد أي فائدة منها على المعلم أو العملية التعليمية.

وأخيرًا أختم وجع المعلم... بسؤال سُئل لرئيس وزراء اليابان عن سر التطور التكنولوجي باليابان، فأجاب: أعطينا المعلم راتب وزير، وحصانة دبلوماسي، وإجلال الامبراطور !

" آه..آه.. يا له من وجع فطر قلبي.. إذا لم يحترم المجتمع المعلم ...ويحترم المعلم نفسه ...لن نجد تعليمًا ناجحًا" شذرات فلسفية

انتظروني إذا كان في العمر بقية ... مع باقي أوجاعي التعليمية لعل الله يشفيها قريبًا.



وهم المهارات

أدير تيرنر

رئيس معهد الفكر الاقتصادي الجديد

يتفق الجميع على أن توفير التعليم الأفضل والمهارات المحسنة لأكبر عدد ممكن من الناس أمر بالغ الأهمية لزيادة الإنتاجية وتحسين مستويات المعيشة ومعالجة فجوة التفاوت المتزايدة الاتساع. ولكن ماذا لو كان الجميع على خطأ؟

يجزم أغلب خبراء الاقتصاد بأن رأس المال البشري لا يقل أهمية عن نمو الإنتاجية بوصفه رأسمالاً ماديًا. وهذا صحيح إلى حد ما بوضوح. فما كانت الاقتصادات الحديثة لتصبح في حكم الإمكان من دون انتشار معرفة القراءة والكتابة والحساب على نطاق واسع؛ وتعجز العديد من الاقتصادات الناشئة عن تحقيق المزيد من التقدم بسبب نقص المهارات.

ولكن إحدى السمات اللافتة للنظر في الاقتصاد الحديث هي أن دفع مجالات حيوية من النشاط الاقتصادي يتطلب عددًا قليلاً من ذوي المهارات. تبلغ قيمة فيسبوك السوقية، على سبيل المثال، نحو 374 مليار دولار أمريكي ولكن يديرها 14500 موظف فقط. وشركة ميكروسوفت التي تبلغ قيمتها السوقية 400 مليار دولار، توظف نحو 114000 موظف فقط. وشركة جلاكسو سميث كلاين، التي تقدر قيمتها بما يتجاوز 100 مليار دولار، لا يزيد عدد العاملين فيها عن 96 ألف موظف.

الواقع أن قوة العمل في هذه الشركات الثلاث ليست سوى قطرة في محيط سوق العمل العالمية. ولكنها تقدم برغم ذلك خدمات استهلاكية يتمتع بها آلاف الملايين من البشر، وتُنْشِئ برمجيات تدعم تحسين الإنتاج على مستوى الاقتصاد بالكامل، أو تُنتِج عقاقير قادرة على تحقيق فوائد صحية هائلة لمئات الملايين من البشر.

ويعكس هذا الانفصال بين العمالة والقيمة المضافة الدور الذي تلعبه تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، التي تتميز في ناحيتين حاسمتين. فأولاً، وبما يتفق مع قانون مور، كانت وتيرة تحسن إنتاج الأجهزة أسرع كثيرًا مما كانت عليه في مراحل سابقة من التغير التكنولوجي. وثانيًا، بمجرد إنشاء البرمجيات، يصبح من الممكن نسخها مرات لا حصر لها بتكلفة هامشية تكاد تكون صِفرًا. وتعمل كل هذه العوامل مجتمعة على تمكين الأتمتة المنخفضة التكلفة للمزيد من الأنشطة الاقتصادية، المدفوعة بمهارات عالية يتمتع بها أفراد أقلية ضئيلة من قوة العمل.

على الرغم من هذه الظاهرة، يسعى عدد من الناس أكبر من أي وقت مضى للحصول على مستويات أعلى من التعليم، وتحفزهم بوضوح حقيقة مفادها أن المهارات الأعلى تجلب أجرًا أعلى. ولكن العديد من الوظائف ذات الأجور الأعلى قد لا تلعب أي دور في دفع عجلة تحسين الإنتاجية. فإذا أصبح عدد أكبر من الناس محامين مهرة، فربما تُدار القضايا القانونية بشكل أكثر فعالية وتكلفة على الجانبين، ولكن في غياب أي زيادة صافية في الرفاهة البشرية.

والعواقب الاقتصادية المترتبة على هذا القدر الكبير من التداول المالي محصلتها صِفر هي الأخرى. ولكن هذه قد تكون أيضًا حال العديد من الأنشطة المكرسة لتطوير موضات أو علامات تجارية جديدة، مع تكريس المهارات العالية والطاقات العظيمة للتنافس على الفوز باهتمام المستهلكين وحصة في السوق، ولكن لا شيء من هذا يُفضي بالضرورة إلى زيادة في الرفاهة البشرية.

ومن ثم فإن زيادة أعداد الأشخاص الذين يتلقون تعليمًا عاليًا لا تعني أن مهاراتهم الأعلى تدفع في كل الأحوال نمو الإنتاجية. والواقع أن ارتفاع رسوم التعليم الجامعي - التي تنمو في الولايات المتحدة بمعدل سنوي يبلغ نحو 6% بالقيمة الحقيقية - قد لا يشير إلى أن المهارات المتزايدة الارتفاع مطلوبة لأداء وظائف محددة. فبدلاً من ذلك، ربما يصبح طالبو الوظائف في المستقبل راغبين ببساطة في إنفاق قدر كبير من المال للإشارة إلى أرباب العمل أنهم يتمتعون بمهارات عالية القيمة.

والجامعات بدورها من الممكن أن تقع في خضَم منافسة محصلتها صِفر على الإنفاق المتزايد لاجتذاب الطلاب القادرين على الدفع. وربما تعمل ديون الطلاب السريعة الارتفاع - من 400 مليار دولار إلى 1.3 تريليون دولار أمريكي في الولايات المتحدة وحدها منذ عام 2005 - على تمويل المزيد من المنافسة الشديدة جزئيًا على الوظائف الأعلى أجرًا، وليس الاستثمارات المطلوبة اجتماعيًا في رأس المال البشري.

على نحو مماثل، عند الطرف الأدنى من سلم الدخل، ليس من الواضح أن المهارات الأفضل من الممكن أن تعوض بشكل كبير عن فجوة التفاوت المتزايدة الاتساع. فمن الممكن إنشاء الوظائف الجديدة دائما مع أتمتة العديد من الوظائف القائمة، ولكن الوظائف الجديدة تكون أجورها أقل غالبًا.

وتوضح توقعات المكتب الأمريكي لإحصاءات العمل فيما يتصل بخلق فرص العمل على مدار السنوات العشر المقبلة هذا النمط. فبين الفئات المهنية العشر الأوائل التي تمثل 29% من كل توقعات خلق فرص العمل، سنجد أن فئتين فقط - الممرضات المسجلات والمديرين التنفيذيين - تدفع في المتوسط أجورًا أكبر من الدخل المتوسط في الولايات المتحدة، في حين تدفع أغلب الفئات الثماني الأخرى أقل من ذلك كثيرًا.

وينمو تشغيل العمالة على أسرع نحو في الخدمات التي تتطلب التعامل المباشر مع متلقي الخدمة مثل الرعاية الشخصية. وأتمتة هذه الوظائف أكثر صعوبة من التصنيع أو خدمات المعلومات؛ ولكنها وفقًا للمكتب الأمريكي لإحصاءات العمل تتطلب مهارات رسمية محدودة أو التدريب على رأس العمل. ولا تأتي فئات الوظائف التي تتطلب مهارات متخصصة في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات حتى بين الفئات العشر الأولى. ويتوقع المكتب الأمريكي لإحصاءات العمل 458 ألف وظيفة أخرى لمساعدي الرعاية الشخصية، ونحو 348 ألف وظيفة لمساعدي الصحة المنزلية، ولكن 135 ألف وظيفة فقط للمبرمجين ومطوري التطبيقات.

ولكن ألن تساعد المهارات الأفضل في تمكين الناس الذين يمارسون حاليًا فئات من العمل سريعة النمو، ولكنها منخفضة الأجر من الحصول على وظائف أعلى أجرًا؟ في العديد من الحالات، قد تكون الإجابة "كلا". فمهما كان عدد الأشخاص القادرين على التشفير، فإن عددًا ضئيلاً للغاية منهم سوف يحصلون على وظيفة لمهاراتهم في التشفير. وحتى لو قمنا بتجهيز شخص ما يعمل حاليًا في وظيفة لا تتطلب مهارات عالية لتمكينه من أداء وظيفة تتطلب مهارات عالية بكفاءة على الأقل، فإن مثل هذه الوظيفة قد تذهب إلى موظف يتمتع بمهارات أعلى، وربما يظل الفارق في الأجر كبيرًا: ففي العديد من الوظائف ربما يكون التصنيف النسبي للمهارات أكثر أهمية من القدرة المطلقة.

وعلى هذا فربما يكون "التعليم الأفضل والمزيد من المهارات للجميع" أقل أهمية في تعزيز نمو الإنتاجية وأداة أقل قوة في التعويض عن التفاوت بين الناس مما يفترض الرأي التقليدي. ولكن هذا لن يقوض بأي درجة القيمة الشخصية والاجتماعية للتعليم.

ينبغي لأكبر عدد ممكن من الناس أن يكون تعليمهم عاليًا، وأن يكونوا مدركين لمبادئ العلوم الأساسية ومفتونين بها، ومتحمسين للتصميم الجيد أو الموسيقى وقادرين على فهمها. في نهاية المطاف، وفي عالم حيث من الممكن أن تحررنا الأتمتة من كدح العمل الذي لا ينتهي، يساعد التعليم الجيد في تجهيزنا على نحو أفضل لعيش حياة مُرضية، بصرف النظر عن قدرته على زيادة الأجور الفردية أو الرخاء القابل للقياس.

أما عن التفاوت بين الناس، فربما نكون في احتياج إلى التعويض عنه من خلال إعادة التوزيع العلني، مع عدم ارتباط الزيادة في أجور الحد الأدنى أو دعم الدخل بسعر الناس في سوق العمل، ومن خلال توفير السلع العامة العالية الجودة بسخاء.

في عالم حيث يصبح بوسع الروبوتات أن تقوم بالعمل على نحو متزايد، تتعاظم أهمية التعليم والمهارات أكثر من أي وقت مضى - ليس لأنها قادرة على زيادة أسعار الجميع في سوق العمل، بل لأنها من الممكن أن تعدنا لحياة حيث تصبح وظائف عديدة غير قادرة على تحقيق القدر الكافي من الدخل، أو الرضا، أو المكانة.

Project Syndicate



صرخة «مونش» من عذاب النفس

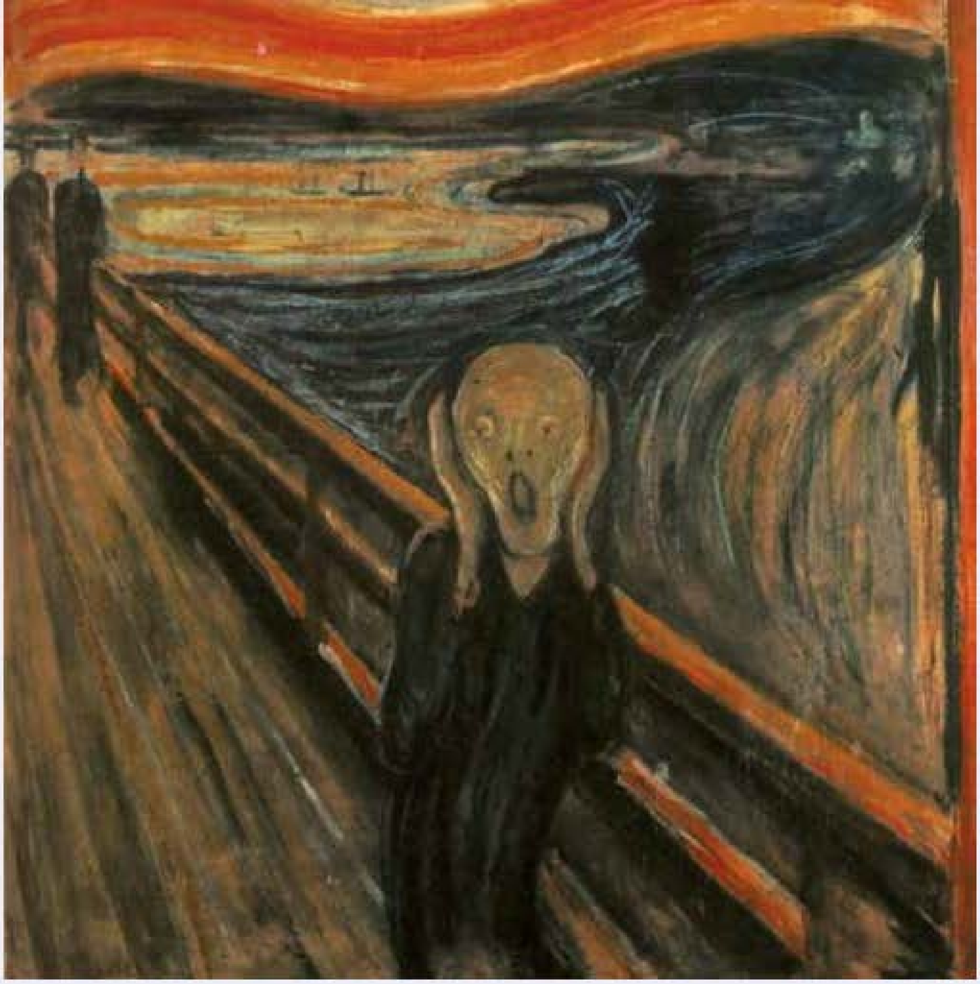
عبدالإله بوشير

فنان تشكيلي، باحث وكاتب

الجزائر

"لن أرسم بعد هذا اليوم نساء جالسات يحكن ورجال منهمكين في القراءة، أريد أن أعرض أناسا يتنفّسون و يشعرون ويحبُّون ويتألمون، أود أن أعيد إلى الناظر الشعور بالعنصر المقدس في هذه الأشياء، فيرفع قبعته احتراما كما يفعل في الكنيسة "

إدفارد مونش



يعد نقاد تاريخ الفن أن "الصرخة" هي مثال نموذجي من التعبيرية، هذا التيار الذي مثله إدوارد مونش (مواليد 12 ديسمبر 1863) أحسن تمثيل. برغم بساطتها إلا أنها استطاعت كسب شعبية جارفة، وكان استعمالها رائجًا في الكثير من المواد الدعائية، وحتى السينما ومختلف وسائل الإعلام. مونش سابق زمانه مثله مثل الفنان فان غوخ أحد رواد الفن في القرن العشرين.

امتازت التحفة بنوع من الحركة والدراما في المشهد. الذعر الوجودي في هذا المشهد غير المألوف على الأقل عند سابقيه في الفنون الجميلة، بحيث كان للجمال عناوين ولا مجال للقبح في الأعمال. لقد أعطت هذه الشحنة التعبيرية غير المحدودة، أفقًا لخيالات واسعة لفنانين لاحقًا. فكان استخدام هذا العمل في مجالات عدة بطريقة أو بأخرى. فالملاحظ لأول وهلة أنها كانت جرعة زائدة من التعبير، إلا أنها في الحقيقة كانت ترجمة حقيقية لرد فعل طبيعي، ذلك الفعل المحرر للإنسان من عذاب النفس، ألا وهو الصرخة.

وهنا بالضبط يمكن قراءة فن آخر من فن التعبيرات الجسدية، وكذا تفاقم المشاعر جعلت من أسلوبه في إبراز الآلام البشرية وتوضيح الشعور بالضيق من الحضارة حاضرًا وبقوة.

وكان لهذه الصرخة المأساوية إن صح التعبير في المجتمع الاسكندنافي المحافظ والبرجوازي أثر بالغ ما دفع بهذا الأخير إلى التفكير نحو الأمام.

ظهرت التعبيرية في ألمانيا عام 1905. لقد كانت هذه الحركة المناهضة لكل ما هو طبيعي تدعو لإعادة استكشاف تعقيدات النفس البشرية، وتحتفي بسحر الموت، وظاهرة للعيان في أعمالها، فتمثلهم تارة أجسام حل بها الشقاء، ووجوه ملأها العذاب والبؤس، وتارة مناظر طبيعية كئيبة وأحيانًا مخيفة.

خرج إلى هذا العالم إدوارد مونش في عام 1863 بالنرويج، حيث أصيب بمرض في طفولته ظل هاجسًا يؤرقه طيلة حياته، وأخذ الموت عائلته عندما كان في الخامسة، حيث فارقت والدته وشقيقته الحياة بسبب مرض السل. لقد أعطت هاته الأحداث صبغة من الهوس وحالة مرضية تجسدت في أعماله الفنية.

أستاذ الفنان

بدأ في الرسم تحت العين الساهرة لمعلمه "كريستيان كروغ" في ذلك الوقت، والرجل كان رسام الواقعية الأكثر شهرة في النرويج.

بدعوة من رابطة فناني برلين، انتقل إدوارد مونش إلى برلين، وأصبح مألوفًا في الأوساط الفلسفية والفنية، التي يطلق عليها ظلاً ثقيلاً ومأساويًا للكاتب الكبير نيتشه، ففي ديسمبر 1893، خلال معرض في أونتر دن لندن، عرض مونش ست لوحات بعنوان "إفريز الحياة"، الذي هو جزء من الصرخة، التي صنعت شهرته.

الاكتئاب

عدت أعماله فنًا "منحطًا" من قبل النازيين، وغالبًا ما أسيئ فهم رؤيته الفنية وإدانتها في الكثير من المرات، مثل فان جوخ، مونش كان من أولئك الأشخاص الذين لديهم نزعة ثورية، فالنشاط الإبداعي والإلهام العنيف هو جزء لا يتجزأ من حياة تميزت بالأحداث الدرامية، تعاطيه للكحول زاد من حدة تفاقم الاختلال العقلي، وعلى إثرها سنة 1908 انتابته نوبة حادة من الاكتئاب، بحيث كان استرجاعه لقصة الحب المأساوية التي انتهت بتبادل لإطلاق النار، خرج منها مصابًا في يده اليسرى، بحيث لم ينس أبدًا هذه المذلة، توفي في منزله بـ "إيكلي" يوم 23 يناير من عام 1944.

حول عمله الشهير هذا، كتب إدوارد مونش: "لقد كنت أسير على طول الطريق مع اثنين من أصدقائي، وكانت الشمس تغيب في الأفق، فجأة أصبحت السماء كالدم حمراء، توقفت، كنت تعبًا، واتكأت على الجدار، كان هناك دم وألسنة النار فوق المضيق البحري الأزرق والأسود للمدينة، لكنني توقفت هناك أرتعشُ من الخوف، ثم سمعتُ صرخةً عاليةً أخذ صداها يتردد في الطبيعة بلا نهاية"!

مونش مع الكبار

قائلاً عن دويستوفسكي "لم يظهر من الرسّامين بعد من استطاع النفاذ إلى العوالم الموسيقية للروح والميتافيزيقيا واللاوعي بمثل ما فعل دستويفسكي في الرواية إدفارد مونش أزمة وجودية.

لا تزال لوحة الصرخة تعبر عن ذلك القلق الذي عاناه إدفارد مونش في حياته، ثم جسده في فنه، في اللوحة يتحول الإيقاع المنحني الذي يصرخ إلى رمز وجودي يمتزج بنفسه مع إيقاعات الطبيعة، وهذه الطبيعة التي من خلال إيقاعات سماوية حمراء وبحرية زرقاء وسوداء، تبدو وكأنها جميعها، تصرخ معًا، ومعها مونش صرخة مرعبة، تنم عن المعاناة والقلق والألم الشديد، وكأنها تخرج من جسده كله، من وجوده كله، فتتردد أصداؤها في ذلك الوجود الكبير المحيط به، وكأنه هو أيضًا وحده الذي يعاني، بينما يمشي أصدقاؤه في هدوء في اللوحة خلفه غير مبالين، وفي مذكراته كما قال، تركاه في وضعه المرعب ذلك، وسبقاه، تركاه وراءهما ومضيا

يقول ديفيد ولكنز: "من خلال صرخته، وهي صرخة طويلة ممتدة، أصبح مونش، وحده أمام الطبيعة، وأدرك أسوأ كوابيسه ومخاوفه من الأماكن الواسعة الهائلة الممتدة، لقد أصبح في مواجهة الجليل بالمعنى الذي أشار إليه بيرك وكانط"

مع صراخه يتشوه وجهه حتى يصبح شبيها بالجمجمة بكل دلالتها التصويرية والرمزية الخاصة بالموت، التي لا يظهر خلالها جنس الإنسان إذا كان امرأة أو رجلًا، فهذا القلق الهائل لا يفرق بينهم، سجّل مونش صرخته في ذاكرته وجسّدها في لوحته، وجسد نفسه معها، وهو يصرخ صرخته هذه، التي خلد من خلالها رعب الطبيعة من الغياب، وفزع الإنسان من الموت.



هل كان الفن الحديث أحد أسلحة الاستخبارات الأمريكية ؟

في أواخر أربعينيات القرن العشرين، ظهر من العدم تقريبًا فنانون ينتمون لمذهب في الفن التشكيلي عُرِفَ باسم "التعبيرية التجريدية"، ليجعلوا نيويورك مركزًا للفن في العالَم. لكن هناك من يقول إن هؤلاء أصبحوا أدوات في يد الاستخبارات الأمريكية خلال حقبة الحرب الباردة.
الكاتب الفني أليستر سوك يتقصى حقيقة هذا الأمر.

عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة، شهدت الساحة الفنية في نيويورك تطورًا مثيرًا، فقد سرت في أوصالها طاقة غريبة الطابع، ولا تُقاوم في الوقت نفسه، بعدما اكتسب فنانون - طالما كافحوا لسنوات في ظل فقرٍ وتجاهل - الثقة في النفس، وحققوا النجاح على حين غرة.

وشكل هؤلاء مجتمعين حركة فنية عُرفت في ذلك الوقت باسم "التعبيرية التجريدية". وتشكل أعمال فناني هذه الحركة محورًا لمعرض كبير يُقام هذا الشهر في الأكاديمية الملكية للفنون في العاصمة البريطانية لندن، ويتضمن 164 عملاً فنيًّا لثلاثين فنانًا (من بينهم فيليم دي كونينغ وجاكسون بولوك ومارك روثكو).

وكان من بين أكثر الأمور اللافتة للنظر بشأن مذهب "التعبيرية التجريدية"، هو تلك السرعة التي نال بها الشهرة والمكانة على الساحة الدولية. فمع أن الفنانين المرتبطين بهذه الحركة استغرقوا الكثير من الوقت لبلورة أساليب فنية تميزهم، فإن الحركة نفسها لم تأخذ وقتًا طويلاً، لكي تحظى بصيت سيء في البداية ثم بالاحترام لاحقًا، بمجرد أن تبلورت ملامحها بحلول أواخر أربعينيات القرن العشرين.

وبحلول الخمسينيات من القرن نفسه، بات من المسلم به بوجه عام، أن نيويورك - لا باريس - هي موطن أكثر التطورات المثيرة التي يشهدها عالم الرسم والنحت وقتذاك.

ويكفي للتدليل على ذلك الإشارة إلى ما حدث عام 1957، أي بعد وفاة بولوك بعام واحد إثر حادث سيارة. ففي ذلك العام، اشترى متحف المتروبوليتان للفنون لوحة بولوك المعروفة باسم "إيقاع الخريف" بـ 30 ألف دولار، وهو ما مثّل سابقةً - حينذاك - من حيث كونه أعلى ثمن دُفع في ذلك الوقت لشراء لوحة لرسام معاصر.

في العام التالي لذلك، اكتمل انتصار الحركة "التعبيرية التجريدية"، بانطلاق جولة - استمرت عامًا وطافت مدنًا أوروبية بينها لندن وباريس وبرلين وميلانو وبروكسل وبازل - لأعمال معرض ذي تأثير كبير في الحركة الفنية العالمية، حمل اسم "الرسم الأمريكي الجديد"، وهي الجولة التي نُظمت من قبل متحف "الفن الحديث" بنيويورك.

مساعدون دون قصد؟

لكن لم يمضِ وقتٌ طويل قبل أن تبدأ ردود الفعل العكسية في الظهور. في البداية، ظهرت حركة جديدة في عالم الفنون البصرية، حملت اسم مدرسة "فن البوب" وانتزعت الانتباه والاهتمام من "التعبيرية التجريدية" في مطلع ستينيات القرن الماضي.

أعقب ذلك ظهور مروجي شائعات همسوا قائلين: إن شبهاتٍ تحوم بشكل أو بآخر، حول النجاح السريع الذي حققه مذهب "التعبيرية التجريدية".

ففي عام 1973، نشر الناقد الفني ماكس كوزلوف مقالاً



اقتنى متحف المتروبوليتان في نيويورك لوحة "إيقاع الخريف" لجاسون بولوك ودفع فيها مبلغًا غير مسبوق عام 1957، أي بعد عام من وفاة بولوك

في مجلة "آرت فورم"، تناول فيه بشكل تحليلي التيارات التي شهدها فن الرسم في الولايات المتحدة عقب الحرب العالمية الثانية، ولكن من منظور الحرب الباردة وفي سياقها.

وقيل وقتذاك: إن هذا المقال كان بمثابة رد فعل من جانب

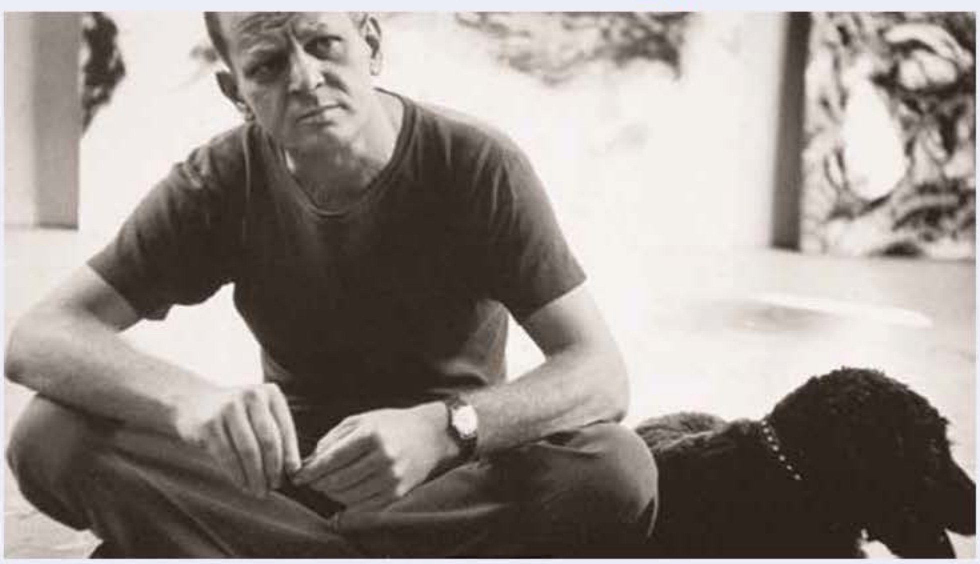
> ويكفي للتدليل على ذلك الإشارة إلى ما حدث عام 1957، أي بعد وفاة بولوك بعام واحد إثر حادث سيارة. ففي ذلك العام، اشترى متحف المتروبوليتان للفنون لوحة بولوك المعروفة باسم "إيقاع الخريف" بـ 30 ألف دولار، وهو ما مثل سابقة - حينذاك - من حيث كونه أعلى ثمن دُفع في ذلك الوقت لشراء لوحة لرسام معاصر

كوزلوف، على مطبوعات نُشرت في ذلك الوقت وسادها مزاجٌ احتفالي مفعمٌ بعبارات تهنئة الذات فيما يتعلق بوضع الرسم الأمريكي في تلك الحقبة، مثل كتاب صدر عام 1970 بعنوان "انتصار الرسم الأمريكي: أول تأريخ للحركة التعبيرية التجريدية" لـ "إرفينغ سيندلر".

وذهب كوزلوف في مقاله للقول: إن مذهب "التعبيرية التجريدية" لم يكن "سوى شكلٍ من أشكال الدعاية النافعة"، تناغم مع الإيدلوجية السياسية التي تبنتها الإدارات الأمريكية المتعاقبة في حقبة ما بعد الحرب.

الفكرة بدت منافيةً للعقل من أوجه عدة. فغالبية المنتمين لهذه المدرسة كانوا في الأساس من أصحاب الشخصيات المتقلبة الذين يتسمون بعدم انتمائهم للمؤسسة التقليدية في الولايات المتحدة.

فقد قال بولوك يومًا: إن جميع من كانوا معه في مدرسته العليا بلوس أنجليس كانوا يحسبون أنه "متمردٌ عفنٌ من روسيا".



عاش بولوك حياة انطوى فيها على نفسه إلى أن مات فجأة عن عمر يناهز 44 عاماً إثر حادث سيارة

أما دافيد أنفام، أحد المسؤولين عن معرض الأكاديمية الملكية بلندن المُقام حاليًا، فيقول، إن "روثوكو قال: إنه كان فوضويًّا". كما كان بارنت نيومان فوضويًّا بشكل معلن، وقد كتب مقدمةً لكتاب ألفه (بيتر) كوبتكين عن الفوضوية. لذا فقد كان لديك هنا تلك الأصرة التي تربط فنانين غير ملتزمين بالأعراف والعادات المتبعة في المجتمع، ممن كانوا منسلخين تمامًا عن الثقافة الأمريكية. لقد كانوا على النقيض تمامًا لمقاتلي (الحرب) الباردة".

برغم ذلك، رسخت أفكار كوزلوف أقدامها. ولا عجب في ذلك، ففي عام 1967 – أي قبل نشرها ببضع سنوات – كشفت مجلة "نيويورك تايمز" النقاب عن أن مجلة "إنكاونتر" الليبرالية المناوئة للشيوعية، كانت تُمول من قبل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (سي آي أيه) بشكل غير مباشر.

ونتيجة لذلك ثارت الشكوك والتساؤلات: فهل كان لـ "سي آي أيه" يدٌ هي الأخرى في الترويج للتعبيرية التجريدية على الساحة الدولية؟ وهل كان فنانٌ مثل بولوك مروجًا لأفكار الولايات المتحدة سواء عامدًا أو غير متعمد؟

قوة ناعمة

وأعقب نشر مقال كوزلوف ظهور عدد من المقالات والكتب والموضوعات المتعمقة التي تبنت وجهة النظر القائلة إن الـ "سي آي أيه" تحكمت في الحركة "التعبيرية التجريدية" بصورة ما.

ففي عام 1999، نشرت الصحفية والمؤرخة البريطانية



لوحة لروثكو تعود لعام 1957 وتحمل اسم "أخضر قاتم على أزرق مع شريط أخضر"

"ويُقال إنه لم يكن بوسع معرض "تيت مودرن" في لندن، تحمل نفقات استقدام المعرض للعاصمة البريطانية، لذا تدخل مليونير أمريكي يُدعى جوليوس فليشمان، ليتحمل هذه النفقات حتى يتسنى إقامة المعرض في المملكة المتحدة. وكان فليشمان رئيسًا لكيان تموله الـ "سي آي أيه" ويحمل اسم "مؤسسة فارفيلد". ولذا من الممكن الادعاء بأن أفكار فنانين تجريديين بريطانيين مهمين مثل جون هويلاند – الذي أثر المعرض الذي أقيم في "تيت مودرن" عميقًا في أعماله – قد تشكلت من جانب الاستخبارات الأمريكية."

فرانسيس ستونر سوندرز كتابًا عن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية و"الحرب الثقافية الباردة"، أكدت فيه أن "التعبيرية التجريدية كانت تُوظف باعتبارها أحد أسلحة الحرب الباردة".

وتوجد على شبكة الإنترنت خلاصةٌ لحججها في هذا الشأن، وذلك في سياق مقال نشرته في صحيفة الإندبندنت عام 1995، وقالت فيه: "كأي أمير من عصر النهضة – ولكن سرًا هذه المرة – تعهدت الـ سي آي إيه



كان نيلسون روكفلر مديرًا لمتحف "الفن الحديث" بنيويورك في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي وكانت له صلات قوية بشخصيات في أوساط الاستخبارات الأمريكية

اللوحات الأمريكية المنتمية للمدرسة التعبيرية التجريدية بالرعاية والعناية، وروجت لها في مختلف أنحاء العالم لأكثر من 20 عامًا".

وتمحورت براهين سوندرز على صحة هذا التصور حول أفكار من قبيل أننا نعلم جميعا أن الـ "سي آي إيه" موّلت مبادرات وتحركات ثقافية في إطار حربها الدعائية ضد الاتحاد السوفيتي.

وقد جرى ذلك بصورة غير مباشرة، عبر مسار كان يُعرف باسم "الرَسَن الطويل"، جرى من خلاله إيصال هذه الأموال باستخدام كيانات من قبيل "مُنظمة الحرية الثقافية"، وهي مؤسسة مناصرة للأفكار المناهضة للشيوعية عملت في 35 دولة، وساعدت الاستخبارات الأمريكية في تأسيسها وتمويلها.

وكانت هذه المنظمة – على سبيل المثال – وراء إصدار مجلة "إنكاونتر" عام 1953. كما أنها موّلت رحلة أوركسترا بوسطن السيمفوني إلى باريس للمشاركة في مهرجانٍ للموسيقى الحديثة.

وتقول سوندرز إن هذه المنظمة موّلت كذلك العديد من المعارض الكبرى، التي نُظمت لأعمال "التعبيرية التجريدية" في خمسينيات القرن العشرين، بما في ذلك "معرض الرسم الأمريكي الجديد"، الذي جال أوروبا بين عامي 1958 و1959.

ويُقال: إنه لم يكن بوسع معرض "تيت مودرن" في لندن، تحمل نفقات استقدام المعرض للعاصمة البريطانية، لذا تدخل مليونير أمريكي يُدعى جوليوس فليشمان، ليتحمل هذه النفقات حتى يتسنى إقامة المعرض في المملكة المتحدة.

وكان فليشمان رئيسًا لكيان تموله الـ "سي آي إيه" ويحمل اسم "مؤسسة فارفيلد". ولذا من الممكن الادعاء بأن أفكار فنانين تجريديين بريطانيين مهمين مثل جون هويلاند – الذي أثر المعرض الذي أقيم في "تيت مودرن" عميقًا في أعماله – قد تشكلت من جانب الاستخبارات الأمريكية.

كما أبرزت سوندرز الروابط التي كانت قائمة بين الـ "سي آي إيه" ومتحف "الفن الحديث" بنيويورك، الذي لعب



كانت أعمال فرانز كلاين منعمة أكثر بالحيوية وأقل عفوية مقارنة بلوحات فنانين آخرين ينتمون بدورهم لمدرسة "التعبيرية التجريدية"

دورًا فعالاً في الترويج لفن "التعبيرية التجريدية".

فقد كانت لـ"نيلسون روكفلر"، مدير المتحف خلال أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، صلاتٌ وثيقة بأوساط الاستخبارات الأمريكية حينذاك. وكذلك فعل السكرتير التنفيذي للمتحف توماس برايدن، الذي أدار الأنشطة الثقافية والدعائية لـ"سي آي إيه" قبل حتى انضمامه إليها.

فطنٌ وساخر

وحتى يومنا هذا لا تزال مسألة وجود دور للاستخبارات الأمريكية في دعم الحركة "التعبيرية التجريدية" أمرًا مثيرًا للجدل. فبنظر إرفينغ سيندلر – الذي يبلغ الآن من العمر 91 عامًا – ليس لما يتردد في هذا الشأن أيُّ أساسٍ من الصحة.

وفي اتصال هاتفي أجراه مع الكاتب الفني أليستر سوك في الـ (بي بي سي) من شقته الكائنة بحي "غرينتش فيلدج" في نيويورك، قال لي الرجل: "لم يكن هناك أي دورٍ على الإطلاق لأي وكالة حكومية. لم أر حقيقةً واحدة تشير إلى وجود هذا النوع من التواطؤ. (إن كان هناك شيءٌ من هذا القبيل) لكان من المؤكد أن يظهر بحلول وقتنا هذا.. أليس من المثير للاهتمام (تذكر) أن الحكومة الفيدرالية (الأمريكية) اعتبرت حينذاك "التعبيرية التجريدية" مؤامرةً شيوعية لتقويض دعائم المجتمع الأمريكي؟

أما دافيد أنفام فقد كان أكثر وعيًا وحذرًا، إذ قال إنه من قبيل "الحقائق الموثقة جيدًا" كون وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية قد اختارت توظيف "التعبيرية التجريدية" في حربها الدعائية ضد الاتحاد السوفيتي السابق.

واستطرد بالقول إنه "حتى (معرض) الرسم الأمريكي الجديد" استفاد من تمويلٍ قدمته الـ"سي آي إيه".

ويرى الرجل أنه من اليسير فهم السبب الذي حدا بالاستخبارات الأمريكية للعمل على تشجيع هذا المذهب الفني، قائلاً: "إنها إستراتيجيةٌ شديدة الفطنة والدهاء، وتنطوي على سخريةٍ في آن واحد.. لأنها أظهرت أن بمقدورك أن تفعل كل ما كان بحلول لك في أمريكا".

فبحلول خمسينيات القرن العشرين، كان مذهب "التعبيرية التجريدية" يرتبط بمفهوم الحرية الفردية، وكانت لوحات الفنانين المنتمين لهذه المدرسة الفنية تُفهم على أنها تعبيرٌ ذاتي عن حياة كلٍ منهم، وعما يدور في داخلهم.

> **فبحلول خمسينيات القرن العشرين، كان مذهب "التعبيرية التجريدية" يرتبط بمفهوم الحرية الفردية، وكانت لوحات الفنانين المنتمين لهذه المدرسة الفنية تُفهم على أنها تعبيرٌ ذاتي عن حياة كلٍ منهم، وعما يدور في داخلهم.**

ونتيجة لذلك، شكلت تلك الحركة الفنية الأمريكية وسيلةً مفيدة لإلحاق الهزيمة بالمدرسة الواقعية في الرسم، التي كانت مُعتمدة رسميًا في الاتحاد السوفيتي السابق، والتي كانت تحبذ الرسوم التي تُصور الحياة كما هي دون نزوعٍ للمبالغة أو الخيال.

ويقول أنفام: "من الوجهة الثقافية: كانت أمريكا أرض الحرية، بينما كانت روسيا سجينة"، واصفًا بذلك التصور الذي سعت "سي آي إيه" لترسيخه خلال الحرب الباردة.

ولكن ما سبق لا يعني بطبيعة الحال أن فناني هذه الحركة كانوا متواطئين هم أنفسهم مع الاستخبارات الأمريكية، أو حتى على علم بأنها توفر التمويل للمعارض التي تضم لوحات مدرسة "التعبيرية التجريدية".

وفي نهاية المطاف، وأيًا كانت الحقيقة بشأن حجم "الدعم المالي المفترض" الذي قدمته "سي آي إيه" لتلك الحركة الفنية، فإن أنفام يقول مبتسمًا إنه يرى أن ذلك الأمر شكّل "أفضل ما مولته" الاستخبارات الأمريكية على الإطلاق. ويضيف قائلاً: "أُفضلُ أن ينفقوا الأموال على الحركة التعبيرية التجريدية، بدلاً من إنفاقها للإطاحة بحكام يساريين مستبدين".

المصدر: B.B.C



رحلة إلى سلوفينيا

سما يوسف

جدة

سلوفينيا، هذا البلد الجميل الذي يقع في وسط أوروبا، تشتهر بمناظرها الطبيعية الجذابة وتضاريسها المتنوعة بين جبال وبحيرات وغابات كثيفة، وبمنتجعات التزلج على الجليد، فسواء كنت من عشاق الهدوء والاستجمام والاسترخاء بين المشاهد الجميلة، أو من هواة المغامرة ونشوة الأدرينالين الناتجة عن الأنشطة المختلفة، فإن سلوفينيا هي بالتأكيد البلاد الذي يمكنك الذهاب إليه للتمتع بما تريد.

فهي تتوسط أربع دول هي النمسا والمجر وكرواتيا وإيطاليا كما تقع قريبة من البوسنة والهرسك، لذلك ربما يمكنك ضم بعض المعالم منها في رحلتك وتخصيص أيام لها، ومن أهم الأشياء التي لا يمكن أن تفوتها هي:

1. نهر سوكا

يشتهر نهر سوكا بمجموعة واسعة من الأنشطة التي يمكن القيام بها بين المياه المتسدلة والبحيرات الزرقاء والأماكن الطبيعية الغابية والصخرية، من المشي وصعود الجبال إلى القفز بالمظلات وتسلق الصخور، أو الصعود على متن الدراجات الجبلية، أشياء تثبت لك دائمًا أن بضعة أيام تقضيها في الوادي سوف تحفر في مخيلتك ذكريات رائعة وتمدك بالطاقة اللازمة للعودة إلى العمل بعد عطلة جميلة.

2. مدينة بليد

تقع بليد شمال غرب سلوفينيا في جبال الألب جوليان وعلى حافة بحيرة بليد، وأصبحت مقصدًا سياحيًا شهيرًا لما تحتويه من معالم سياحية متنوعة، فهي مكان مثالي لك لالتقاط الصور، لذلك تأكد من إحضار الكاميرا، كما أن بحيرة بليد مرآة واضحة جدًا من شدة صفاء مياهها، خصوصًا إذا كنت في قلعة بليد المرتفعة على ربوة على حافة البحيرة، وإذا كان لديك الوقت الكافي فلا تفوت زيارة جزيرة صغيرة تتوسط البحيرة وبها كنيسة صغيرة بطابع مميز.

با بك في ljubljana ليوبليانا، نتمنى أنك ستستطيع أن تنطق اسمها 3 بشكل صحيح في المرات الأولى.. تمتلئ البلدة القديمة بالهندسة المعمارية الباروكية التاريخية، التي يفضل لك استكشافها سيرًا على الأقدام، ولا تفوت أيضًا رؤية الجسر الثلاثي المثير للاهتمام والعديد من صور وتماثيل التنانين، حيث تقول الأساطير أن وجود أوصاف مختلفة من التنين في هذه المدينة يعود إلى بطل الأساطير اليونانية جايسون وفريقه من المغامرين، الذين هزموا الوحوش حيث تقع ليوبليانا، ويمكنك أيضًا القيام بزيارة كهوف أخرى مثل كهوف بوستونيا

Postojna التي يبعد عن سكوكجان مسافة 30 كيلومترًا، والتي تعد أطول نظام كهفي في سلوفينيا وتقع عند نهر بيفكا، ويمكنك من خلالها الاستمتاع باستكشاف ألوان وأشكال وتركيبات غريبة وجميلة.

الجدران التي تحيط بمدينة بيران Piran بنيت حوالي

القرن السابع الميلادي ولا تزال قائمة ومحافظة بشكل جيد إلى اليوم، ولا تزال مداخل المدينة الثمانية قائمة، وفي حين أن بعض الأبراج لا تزال متاحة للدخول فإن البعض الآخر يمكن مشاهدته من مسافة بعيدة فقط، وتقع هذه البلدة الساحلية بالقرب من البحر الأدرياتيكي، مليئة بالمعالم الثقافية والتاريخية

هناك عدد من منتجعات التزلج على الجليد في ربوع سلوفينيا، ومع ذلك فإن المنتجع الذي يُعد الأفضل لأولئك الذين لا يرغبون في مواجهة الكثير من السياح هو منتجع فوجل Vogel، الذي يعد غير معلوم تمامًا، كما أنه أرخص قليلاً بالمقارنة مع المنتجعات الأخرى، ويدوم موسم التزلج لمدة أطول أيضًا، في الحقبة من ديسمبر حتى مايو، ويبقى لك الخيار بين مجموعة المنتجعات المتوفرة.













عيد القمر عند الصينيين



حسن محمد النعمي

لكل شعوب الدنيا تراثها وإرثها الثقافي الخاص بها، وهي فقط من تتميز به خلاف غيرها من الشعوب الأخرى، ولهذا الإرث الثقافي ارتباط بثقافة كل شعب من هذه الشعوب. عيد القمر والمعروف" باسم عيد منتصف الخريف، هو عيد حصاد شعبي يحتفل به الصينيون، واليابانيون، والكوريون، والفيتناميون (على الرغم من أن طريقة الاحتفال تكون بشكل مختلف من بلد لآخر).

يرجع تاريخ هذا المهرجان إلى أكثر من 3000 سنة لعبادة القمر في الصين في عهد أسرة شانغ. يشار إليه في ماليزيا، وسنغافورة، والفلبين باسم مهرجان المصابيح أو مهرجان كعك القمر، يعقد الاحتفال بهذا العيد في اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن في التقويم الصيني، الذي يكون عادة في أواخر شهر سبتمبر أو أوائل شهر أكتوبر في التقويم الغريغوري، وهو التاريخ الذي يقابل الاعتدال الخريفي في التقويم الشمسي أي عندما يكون القمر مستديرًا. الأطعمة التقليدية لهذا المهرجان هي كعكة القمر الذي يوجد منه الكثير من الأنواع في تلك البلدان، وهو من أهم الأعياد في التقويم الصيني، وهو يوم عطلة رسمية، وفي التقاليد الصينية يجتمع أفراد الأسرة والأصدقاء الصينيون في هذا اليوم ليستمتعوا بقمر منتصف الخريف المشرق، ويأكلون كعك القمر معًا. هناك عدد من التقاليد المصاحبة للاحتفال منها: أكل كعكة القمر تحت ضوء القمر، وضع قشور فاكهة البوملي على الرأس، حمل فوانيس مضاءة، إضاءة المصابيح على الأبراج، حرق البخور في إكبار إلى الآلهة بما في ذلك تشانغ، غرس أشجار منتصف الخريف، جمع أوراق الهندباء وتوزيعها بالتساوي بين أفراد الأسرة، رقصة تنين النار، قصة الليلة المصيرية عندما تم رفع تشانغ إلى القمر، وهي من القصص المعروفة لمعظم المواطنين الصينيين، خلافًا لآلهة القمر في الكثير من الثقافات الأخرى، التي تمثل بالقمر ذاته، فإن تشانغ ببساطة تعيش على سطح القمر، ولكنها ليست القمر في حد ذاته.

يعتقد أن قصة تشانغ تعود إلى الحقبة حوالي 2170 قبل الميلاد. هناك الكثير من الروايات المختلفة لأسطورة تشانغ. ومع ذلك، فإن معظم الأساطير حول تشانغ في الثقافة الصينية تنطوي على بعض التغييرات حول العناصر الرئيسية: هووي، الرامي، تشانغ، أسطورة آلهة القمر الخالدة؛ الإمبراطور، إكسير الحياة، والقمر. هناك ما لا يقل عن 6 روايات مختلفة لهذه القصة، حيث يعتقد أن هووي كان راميًا للسهام في أحد الأوقات كان هناك عشرة شموس للأرض. كانت هذه الشموس تحرق المحاصيل، وعانى الشعب من الجدب والجوع. تعاطف الرامي هووي مع البشر، وقرر إسقاط تسعة شموس وترك واحدة ليستفيد منها البشر. بعد أن أسقط الشموس التسعة، اعتبره الناس بطلاً. كان لديه زوجة جميلة يدعى تشانغ، وكانوا يعيشون معا بسعادة. وكان لهووي العديد من المتدربين الذين تبعوه لتعلم الصيد. في أحد الأيام عندما كان هووي في طريق العودة إلى البيت أعطاه إمبراطور الخلود اثنتين من الحبوب كل منها يمنح الحياة الأبدية كمكافأة لإسقاطه الشموس، إحداها له والأخرى لزوجته. وحذره قائلاً "لا تتعجل على ابتلاع الحبوب" حيث كان على هووي الانتظار حتى يوم رأس السنة الجديدة، حيث كان من المفترض له ولزوجته تشانغ أن يتناولا حبوب الخلود معًا. وضعت تشانغ الحبوب في صندوق المجوهرات لحفظها. إلا أن بنغ، أحد المتدربين عند هووي، اكتشف سرهم وقرر سرقة حبوب الخلود. في أحد الأيام، عندما خرج هووي ومساعدوه إلى الجبل، تظاهر بنغ بأنه مريض ليتمكن من البقاء في المنزل. بعد أن ذهب الجميع إلى الجبل، تسلل بنغ إلى غرفة تشانغ وأجبرها على إعطائه حبوب الخلود. أدركت تشانغ أنه لا يمكن لها مقاومة بنغ، فقامت بابتلاع حبوب الخلود بنفسها. إلا أنها بعد تناولها للحبوب بدأت تطفو في الهواء، غير قادرة على العودة إلى الأرض مجددًا وأخذت تطير وتحلق بعيدًا، بعيدًا. لم تكن تريد أن تترك زوجها، لذلك توقفت عند القمر الذي هو أقرب الكواكب إلى الأرض. بعد أن علم هووي بما حدث لزوجته أصبح في غاية الغضب والحزن. وكان ينظر إلى السماء في الليل وينادي اسم تشانغ. اكتشف أن هناك داخل القمر ظل لسيدة تبدو مثل تشانغ، لذا ركض وركض محاولاً الوصول إلى القمر. إلا أنه فشل في الوصول إليها. وهكذا بقيت هذه الأسطورة وتلك المناسبة المتجددة كل عام الى وقتنا الحاضر.











المكتبة الخالدية .. إرث ثقافي عريق

شعاع ثقافي وتراث عريق لا يبعد سوى خطوات عن الحرم القدسي الشريف، يجسد عظمة المدينة العتيقة، وبداخلها نفائس نبغ من خلالها علماء ومفكرون ساهموا في بناء الحضارة الإسلامية، وكانوا رأس حربة للدفاع عن قدسية المدينة وإسلاميتها.. إنها "المكتبة الخالدية" التي تقع في قلب المدينة القديمة بالقدس المحتلة.

أنشأ المكتبة الخالدية في عام 1899 ميلادي (1318 هجري) الحاج راغب الخالدي باعتبارها وقفًا إسلاميًا، وذلك بمبلغ من المال أوصت به جدته خديجة الخالدي، بنت موسى أفندي الخالدي، الذي كان قاضي عسكر الأناضول في عام 1832، وقامت المكتبة على ما كان في حوزة أسرة الخالدي من مخطوطات وكتب، جمعها جيلاً بعد جيل، وكان القصد من المكتبة أن تكون مكتبة عمومية لتعزيز نشر العلم وبعث الاهتمام بأمهات الكتب في العلوم الإسلامية وفي الموضوعات الحديثة.

وفي عام 1900 حيث تم فتح المكتبة، كمكتبة عامة، وهي أول مكتبة افتتحت في مدينة القدس بشكل عام كمكتبة خاصة، وتحوي أكبر مجموعة مخطوطات خاصة في العالم.

وقد أكد إعلان تأسيس المكتبة الخالدية على الصلة بين المكتبات والثقافة التي ترقى إلى عصر الإغريق ومطلع العصر الإسلامي، اذ إن "العرب لما دخلت عليهم الحضارة والمدنية أسسوا المكتبات والمدارس". وأضاف الإعلان أن نشر العلم هو أساس التقدم والازدهار وإن القصد من المكتبة هو أن تكون ذخرًا للديار المقدسية، لأنه "مهما امتطينا قطارات الآمال لنباري ما لدينا من المؤسسات الأجنبية في هذه الديار لخاب العمل".

وأسست المكتبة الخالدية لغرض التقدم بالعرب على طريق الازدهار برعاية العلوم وتمكينهم من مباراة المؤسسات الثقافية القوية، التي أنشأتها القوى الأجنبية في طول المنطقة وعرضها، وانطلاقًا من هذا، أعلن بأن المكتبة الخالدية ستكون "مكتبة عمومية"، وبعد إجراء ترميم واسع النطاق، وإنجاز أعمال التصنيف والتبويب والحفظ، أصبحت المكتبة اليوم جاهزة للترحيب بالعلماء من جميع أنحاء العالم.

المكتبة الخالدية تشبه المكتبة الظاهرية في دمشق، وإن كانت أصغر منها كثيرًا، ومؤسس المكتبة الظاهرية، العالم البارز الشيخ طاهر الجزائري، أحد أهم زعماء الإصلاح الإسلامي في سوريا، شارك في تنظيم المكتبة الخالدية في أثناء توليه الإشراف على مكتبات ولاية دمشق، وبهذه الصفة ساعد الشيخ طاهر الجزائري على إنشاء المكتبات داخل ولاية دمشق، كما في دمشق وحمص وحماة، وفي القدس وطرابلس، وقدم يد المساعدة في إنشاء المكتبة الخالدية، بل حضر حفل افتتاحها الرسمي وظهر في صورة التقطت في الحفل الذي أقيم في حينه، وتضم المكتبة عددًا من كتب الشيخ طاهر الجزائري وعدة نسخ من بعضها، كما تضم العديد من كتابات العلماء الآخرين مثل السيد رشيد رضا.

ثم تعاقب عدد من أفراد آل الخالدي على الاضطلاع بمهمة مُتولّي المكتبة أو أمينها، وأدوا دورًا مهمًّا في حفظ

> ”تحتوي المكتبة على 2000 مخطوط، و6000 كتاب جمعت على عصور مختلفة وتحتوي المكتبة على وثائق العائلة الخالدية“

وصون التقليد الذي اتبعته الأسرة منذ أجيال في السير قدمًا بالعلم، وتطوير المكتبة وحمايتها في الوقت ذاته..

تقع المكتبة الخالدية في قلب مدينة القدس داخل أسواق البلدة القديمة، ولا يبعد مبناها سوى أمتار قليلة على المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة، وهي محاطة من كل الجهات بمبان وبيوت استولى عليها مستوطنون، وحولوها إلى مدارس دينية يهودية.

ويعد مبنى المكتبة نموذجًا معماريًا للقدس في العصور الوسطى، تعود بدايته إلى مملكة القدس في الحقبة الصليبية في القرن الثالث عشر، أما الهدف من ورائه فقبر معروف، في حقبة لاحقة، دفن في الموقع ثلاثة محاربين خوارزميين جاءوا ضمن الفيلق الخوارزمي للقوات التي هزمت الصليبيين في فلسطين، الثلاثة هم أب وابناه، أما الأب فيدعى بركت خان (لذلك سمي المبنى في الحقبة المملوكية بـ "تربة بركت خان"). هناك افتراض بأن بركت خان هو ابن السلطان المملوكي بيبرس، الذي تزوج من ابنة أحد القواد الخوارزميين.

يمتاز المبنى بثرائه من الناحية المعمارية، فيدمج بين الأقواس الموسدة والأقواس المتعرجة التي تميز العمارة الصليبية والأيوبية بالإضافة إلى مميزات مملوكية، مثل النموذج الأبلق، وهو دمج حجارة حمراء وبيضاء في إطارات الأبواب وشبابيك محاطة بأطر منحنية.

ويتألف مبنى المكتبة من قسمين، أحدهما لحفظ المخطوطات وآخر للمطبوعات ويتم فيه أيضًا مسح المخطوطات القيمة بهدف نشرها وفسح المجال أمام الباحثين للاطلاع عليها خاصة، وأنها تتآكل مع مرور الزمن، ولا توجد في فلسطين الإمكانيات المطلوبة لحمايتها.

وتضم خزائن هذه المكتبة أكبر مجموعة من نفائس المخطوطات الإسلامية التي تحويها مكتبة خاصة في القدس، بل تنافس المخطوطات الإسلامية الموجودة في العالمين العربي والإسلامي.

وتحتوي المكتبة على أكثر من 2000 مخطوط غير متواجدة في العالم ككل، والمخطوطات فيها تمتد من القرن العاشر الميلادي وحتى نهاية الحقبة العثمانية، بلغات متنوعة منها اللغة العربية، واللغة التركية، واللغة العثمانية، واللغة الفارسية، تتوزع على ما مجموعه 1970 موضوعًا، يتميز بعضها بأنها خط المؤلف أو تحمل ملاحظاته وحواشيه



افتتاح المكتبة سنة 1900، ويظهر في الصورة من اليمين: الحاج راغب الخالدي، والشيخ طاهر الجزائري (الدمشقي)، والشيخ موسى شفيق الخالدي، والشيخ خليل الخالدي، والشيخ محمد الحبّال (البيروتي)

الشخصية".

والكتب المطبوعة في الخالدية تصل إلى 6000 نوع، وهي كمثيلاتها من المخطوطات جمعت من عصور مختلفة، والعديد منها في طبعتها الأولى، وهذه الكتب والمخطوطات جميعها تم جمعها من قبل أفراد عائلة الخالدية على مر العصور الماضية".

وتحتوي المكتبة على وثائق العائلة الخالدية وأوراق رجالات العائلة الخالدية والذين كانوا يشغلون مناصب مهمة في الدولة العثمانية، وسجلات وممتلكات العائلة الخالدية؛ مثل أوراق روحي الخالدي وكل ما يتعلق بهم موجود في المكتبة وجزء مع العائلة الخالدية".

وهناك أقدم مخطوطة في المكتبة تتناول الشريعة المالكية وتعود للقرن الحادي عشر، يتوفر في المكتبة عدد كبير نسبيًا من المخطوطات الأصلية، المكتوبة بيد المؤلف نفسه لا النساخ، ويوجد أيضًا كتب مزخرفة تدعى بالمكرّمات مُنحت كهدايا، من بينها مكرمة منحت لصلاح الدين الأيوبي، كذلك تتواجد في المكتبة كتب مزخرفة في الطب الهندي من القرن الثالث عشر، مصحف ضخم ومزخرف من القرن السادس عشر والمزيد.

أنشئت قائمة علمية مفصلة للمكتبة على يد لورنس آي. كونراد، حتى عام 2007 تم نشر القسم المتعلق بالحقبة العثمانية فقط.



من يمتلك الإنترنت؟

جوزيف س. ناي

أستاذ جامعة في جامعة هارفارد

من يملك الإنترنت؟ الجواب: هو لا أحد بعينه يملكها والجميع يملكونها. الإنترنت هي شبكة الشبكات. وكل من الشبكات المنفصلة تنتمي إلى شركات ومنظمات مختلفة، وهي تعتمد على خوادم مادية في دول مختلفة، وتحكمها قوانين وقواعد تنظيمية متفاوتة. ولكن في غياب بعض القواعد والمعايير المشتركة، يصبح من غير الممكن الربط بين هذه الشبكات بفعالية. ويشكل التفتت - الذي يعني نهاية الإنترنت - تهديدًا حقيقيًا.

تشير بعض التقديرات إلى أن مساهمة الإنترنت الاقتصادية في الناتج المحلي الإجمالي العالمي ربما تبلغ 4.2 تريليون دولار أمريكي في عام 2016. ومن هنا فإن "شبكة الانفصال (وليس الاتصال)" المفتتة قد تكبد العالم تكلفة باهظة، بيد أن هذا ليس سوى أحد احتمالات المستقبل التي عَرَضها تقرير اللجنة العالمية المعنية بحوكمة الإنترنت.

تربط الإنترنت الآن بين ما يقرب من نصف سكان العالم، ومن المتوقع أن تربط مليارًا آخر من البشر - فضلاً عن نحو 20 مليار جهاز - في السنوات الخمس المقبلة.

بيد أن المزيد من التوسع أمر غير مضمون. في أسوأ سيناريوهات اللجنة، قد تتسبب الأعمال الخبيثة التي يمارسها المجرمون والضوابط السياسية التي تفرضها الحكومات في دفع الناس إلى فقدان الثقة في الإنترنت والحد من استخدامهم لها.

وفقًا لبعض التقديرات، بلغت تكلفة الجريمة السيبرانية (التي تمارس باستخدام الإنترنت) نحو 445 مليار دولار أمريكي، وقد تنمو بسرعة. فمع ربط المزيد من الأجهزة بدءًا من السيارات إلى أجهزة ضبط نبضات القلب بالإنترنت، يصبح بوسع الخبثاء من مخترقي الشبكات والأجهزة تحويل "إنترنت الأشياء" إلى "أداة لتحويل كل شيء إلى سلاح". ومن الممكن أن تعمل انتهاكات الخصوصية الواسعة النطاق من قِبَل الشركات والحكومات، والهجمات السيبرانية على البنية الأساسية المدنية، مثل شبكات الطاقة (كما حدث مؤخرًا في أوكرانيا)، على إيجاد حالة من انعدام الأمان كفيلة بتقويض إمكانات الإنترنت.

ويتمثل سيناريو ثان في ما تسميه اللجنة "النمو المتوقف". يستولي بعض المستخدمين على مكاسب غير متناسبة، في حين يفشل آخرون في جني أي قدر من الاستفادة. فلا يزال ثلاث أو أربعة مليارات شخص غير متصلين بالإنترنت، كما تتسبب الحواجز التجارية والرقابة والقوانين التي تشترط التخزين المحلي للبيانات، وغير ذلك من القواعد التي تحد من التدفق الحر للسلع والخدمات والأفكار، في تقويض قيمة الإنترنت الاقتصادية لكثيرين من المتصلين بها.

الواقع أن التحرك نحو السيطرة السيادية ينمو بالفعل، وهناك درجة ما من التفتت قائمة بالفعل. يعيش العدد الأكبر من مستخدمي الإنترنت في الصين، ولكن "سورها الناري العظيم" تسبب في إيجاد حواجز تحول دون التواصل مع العالم الخارجي.

وتفرض العديد من الحكومات الرقابة على الخدمات التي تعتقد أنها تهدد سيطرتها السياسية. وإذا استمر هذا الاتجاه فقد يكلف أكثر من 1% من الناتج المحلي الإجمالي سنويًا، وقد يشكل أيضًا تعديًا على خصوصية الناس، وحرية التعبير، والقدرة على الوصول إلى المعرفة. وفي حين قد يتخبط العالم على طول هذا المسار، فسوف تكون الخسارة كبيرة، وسوف يتخلف كثيرون عن الركب.

في السيناريو الثالث للجنة، توفر الإنترنت فرصًا غير مسبوقة للإبداع والنمو الاقتصادي. وقد ساهمت ثورة الإنترنت في العقدين الماضيين بنحو 8% من الناتج المحلي الإجمالي، وربطت ثلاثة مليارات من البشر بالإنترنت، فنجحت بذلك في تضييق الفجوات الرقمية والمادية والاقتصادية والتعليمية. ويشير تقرير اللجنة إلى أن إنترنت الأشياء ربما تُفضي إلى تحقيق ما قد يبلغ 11 تريليون دولار في هيئة ناتج محلي إجمالي إضافي بحلول عام 2025.

وقد خلصت اللجنة إلى أن دعم الإبداع المتحرر من العوائق سوف يتطلب تطوير معايير الإنترنت وإتاحتها بشكل علني؛ وأن يعمل المستخدمون على تطوير "نظافة" رقمية أفضل لتثبيط المخترقين والمتسللين؛ وأن يكون الأمن والمرونة في جوهر تصميم النظام (وليس ردة فعل تالية كما هي الحال الآن)؛ وأن لا تفرض الحكومات على الأطراف الثالثة تعريض التشفير للخطر؛ وأن تتفق الدول على عدم مهاجمة البنية التحتية الأساسية للإنترنت؛ وأن تفرض الحكومات المسؤولية ورفع التقارير الشفافة عن المشكلات التكنولوجية لتوفير صناعة تأمينية قائمة على السوق لتعزيز أمن إنترنت الأشياء.

حتى وقت قريب، كانت المناقشة حول النهج الأنسب في إدارة وحوكمة الإنترنت تدور حول ثلاثة معسكرات رئيسية. الأول يتمثل في نهج أصحاب المصلحة المتعددين، والذي نشأ في الأصل من المجتمع الذي طور الإنترنت، والذي عمل على ضمان الكفاءة الفنية ولكن ليس الشرعية الدولية، لأن التكنوقراط الأمريكيين كانوا يهيمنون عليها بشكل كبير. وكان معسكر ثان يفضل قدرًا أكبر من السيطرة من قِبَل الاتحاد الدولي للاتصالات، الهيئة المتخصصة التابعة للأمم المتحدة، والتي ضمنت الشرعية ولكن على حساب الكفاءة. وقد ناصرت الدول الاستبدادية مثل روسيا والصين المعاهدات الدولية التي تضمن عدم التدخل في شؤون الدول التي تفرض ضوابط سيادية قوية على حصتها في الإنترنت.

وتزعم المفوضية أن نموذجًا رابعًا بدأ يتطور في الآونة الأخيرة، حيث ينطوي مجتمع أصحاب المصلحة المتعددين الموسع على تخطيط أكثر وعيًا لمشاركة كل صاحب مصلحة (المجتمع الفني، والمنظمات الخاصة، والشركات، والحكومات) في المؤتمرات الدولية.

كان القرار الذي اتخذته وزارة التجارة الأمريكية بتسليم الرقابة على ما يسمى وظائف تعيين أسماء الإنترنت (IANA) - "دفتر عناوين" الأنترنت - لمؤسسة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة (ICANN) خطوة مهمة في هذا الاتجاه. ولا تُعَد مؤسسة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة، التي تتألف من لجنة استشارية حكومية من 162 عضوًا و35 مراقبًا، منظمة بين حكومية نمطية: إذ لا تسيطر الحكومات على هذه المنظمة. ومن ناحية أخرى، تتوافق مؤسسة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة مع نهج أصحاب المصلحة المتعددين الذي صاغه وأضفى عليه الشرعية منتدى حوكمة الإنترنت، الذي أنشأته الجمعية العامة للأمم المتحدة.

اشتكى بعض أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي من أن وزارة التجارة في عهد الرئيس باراك أوباما "تخلت عن الإنترنت" عندما سلمت وظائف الإشراف على تعيين أسماء الإنترنت لمؤسسة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة. ولكن الولايات المتحدة لا "تتخلى" عن شبكة الإنترنت، لأنها لا تملكها. وبرغم أن أجهزة الكمبيوتر المتصلة التي ألفت شبكة الإنترنت الأصلية موجودة بالكامل في الولايات المتحدة، فإن الإنترنت اليوم تربط المليارات من البشر في مختلف أنحاء العالم. وعلاوة على ذلك فإن دفتر عناوين الإنترنت (الذي توجد منه عدة نسخ) ليس الإنترنت.

كان تحرك الولايات المتحدة خطوة في اتجاه إنترنت أصحاب المصالح المتعددين الأكثر استقرارًا وانفتاحًا من ذلك النمط الذي أشادت به اللجنة العالمية. ولا نملك إلا أن نأمل أن يتبع ذلك اتخاذ المزيد من الخطوات في الاتجا نفسه.

Project syndicate





الطاقة الذرية والمتجددة

قوة دافعة نحو توطين التقنية وتأصيل المعرفة

أ.د: عبدالله بن محمد الشعلان
قسم الهندسة الكهربائية - كلية الهندسة
أستاذ كرسي الزامل لترشيد الكهرباء
جامعة الملك سعود - الرياض

مقدمة

تأسست مدينة الملك عبد الله للطاقة الذرية والمتجددة بموجب الأمر الملكي رقم أ/ 35 وتاريخ 3/ 5/ 1431هـ.

كي تتولى هذه المدينة مهام إعداد برامج الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية في المملكة، وبخاصة في مجالات توليد الكهرباء والطاقات المتجددة وتحلية المياه وتحضير النظائر المشعة لاحتياجات الأبحاث الطبية والصناعية. مما سيمكن المملكة من استشراف حاجة المجتمع والتخطيط لتلبيتها بشكل دقيق ومدروس، يساعد في زيادة معدلات التنمية، ويعطي المملكة القدرة المعرفية ضمن الاتفاقات والمعاهدات الدولية المتعلقة بموضوع الأمان النووي، التي تنظم استخدام الطاقة الذرية للأغراض السلمية، وتوفر المواد الضرورية للاستخدامات الطبية والزراعية والصحية وكافة الاحتياجات الوطنية، وهذه المدينة تفتح بابًا واسعًا للمساهمة في التنمية المستدامة في المملكة، وذلك باستخدام العلوم والأبحاث والصناعات ذات الصلة بالطاقة الذرية والمتجددة في الأغراض السلمية، بما يؤدي إلى توطين التقنية ورفع مستوى المعيشة وتحسين نوعية الحياة، وبخاصة أن المملكة تشهد نموًا مطردًا وبمعدلات عالية للطلب على الكهرباء والمياه المحلاة، وذلك نتيجة للنمو السكاني والامتداد الحضري إلى جانب الأسعار المدعومة للمياه والكهرباء. ويقابل هذا الطلب المتنامي على الكهرباء والماء طلبًا متزايدًا على الموارد الأحفورية (النفط والغاز) الناضبة لاستخدامها في توليد الكهرباء وتحلية المياه، التي ستستمر الحاجة لتوفيرها بشكل متزايد، ولذلك فإن استخدام مصادر بديلة مستدامة وموثوقة لتوليد الكهرباء وإنتاج المياه المحلاة يقلل من الاعتماد على تلك الموارد ومن ثم يوفر ضمانًا إضافيًا لإنتاج الكهرباء وتحلية المياه في المستقبل ويحفظ في الوقت ذاته تلك الموارد الأحفورية، الأمر الذي سيؤدي إلى إبقائها مصدرًا للدخل لحقب طويلة من الزمن.

الكهرباء والماء من الطاقة الذرية

تزود الطاقة الذرية دول العالم بأكثر من 16% من الطاقة الكهربائية؛ فهي تمد 35% من احتياجات دول الاتحاد الأوروبي، كما أن اليابان تحصل على 30% من احتياجاتها من الكهرباء من الطاقة الذرية، بينما تعتمد بلجيكا وبلغاريا والمجر وسلوفاكيا وكوريا الجنوبية والسويد وسويسرا وسلوفينيا وأوكرانيا على الطاقة الذرية لتزويد ثلث احتياجاتها من الطاقة، وذلك لأن كمية الوقود النووي المطلوبة لتوليد كمية كبيرة من الطاقة الكهربائية أقل بكثير من كمية الغاز أو البترول اللازمة لتوليد الكمية نفسها. فطن واحد من اليورانيوم يقوم بتوليد طاقة كهربائية أكبر من ملايين من براميل البترول، كما أنها طاقة نظيفة لا تطلق غازات ضارة في الهواء كغازات ثاني أكسيد الكربون وأكاسيد الكبريت والنيتروجين التي تسبب الاحتباس الحراري والمطر الحمضي والضباب الدخاني، ومن الجدير ذكره أن الحديث عن إنتاج الماء بتحلية مياه البحر المالحة قد يسير بشكل متواز مع عملية إنتاج الكهرباء من الطاقة الذرية، حيث تستغل الحرارة الناتجة من تلك الطاقة في تبخير مياه البحر، ومن ثم تحويلها إلى مياه عذبة صالحة للشرب، كما هو المعمول بها لدينا في منطقة الخليج العربي، ولكن من خلال تطبيق الطرق التقليدية في إنتاج الطاقة الحرارية.


داخل أحد المفاعلات الذرية

ماهية الطاقة الذرية

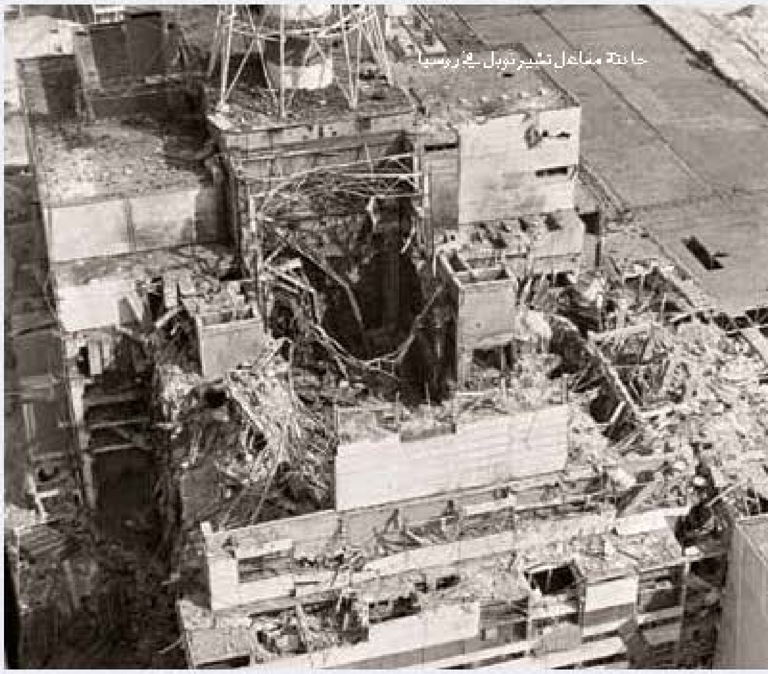
تعد الطاقة الذرية من أعظم مصادر الطاقة في العالم، حيث يمكن استغلالها في مناحي شتى كتوليد الكهرباء وتحلية المياه، وفي استخلاص النظائر المشعة في الطب وتحسين المنتجات الزراعية وغير ذلك من الاستخدامات السلمية التي لا حصر لها، بيد أنها من جانب آخر ينظر إليها على أنها من أكثر مصادر الطاقة حساسية وأكثرها إثارة للجدل والهواجس كونها قد تستخدم في صنع القنابل النووية أعظم الأسلحة فتاكة وأشدها فتكًا وتدميرًا، ويعرف عنصرا اليورانيوم والبلوتونيوم على أنهما العنصران المستخدمان في إنتاج الطاقة عن طريق الانشطار النووي، إذ إن كل ذرة من ذرات اليورانيوم والبلوتونيوم لها نواة عند مركزها تتكون من (بروتونات ونيوترونات)، وعند الانشطار النووي تصادم ذرة النيوترون مع ذرة اليورانيوم وعندئذ تنفلق النواة إلى جزئين مطلقة كمية هائلة من الطاقة كما أنها تحرر نيوترونين أو ثلاثة لتتصادم هذه النيوترونات مع ذرات أخرى، ويحدث الانشطار نفسه في كل مرة، وهو ما يسمى بالتفاعل المتسلسل، ولهذا يمكن أن يحدث ملايين الملايين من الانشطارات في جزء من المليون من الثانية، وهذا هو ما يحدث بالفعل عندما تنفجر قنبلة نووية، وعندما تنتج طاقة نووية للأغراض السلمية العادية فإن الانشطارات تحدث في آلة مصممة، لذلك تسمى المفاعل النووي أو الفرن الذري، حيث يتم التحكم في سرعة الانشطارات بطرق مختلفة منها استخدام قضبان التحكم في عزل بعض النيوترونات بعيدًا عن عملية التفاعل.

استخدامات الطاقة الذرية

تستخدم الطاقة الذرية في وقتنا الحاضر في أغراض ومناح شتى، منها توليد الطاقة الكهربائية، كذلك يمكن من خلالها تسيير السفن الضخمة (عابرات المحيطات)، وكذلك الغواصات لأن المفاعلات النووية لا تحتاج إلى أكسجين، ولذا يمكن للغواصات النووية البقاء تحت الماء لحقب زمنية طويلة، كذلك تستخدم الطاقة النووية في الطب حيث إن هناك أنواعًا معينة من الذرات الناتجة في أثناء الانشطار النووي تساعد الأطباء في تشخيص بعض الأمراض ومكافحتها، وتسمى هذه الذرات بالنظائر المشعة، وهي ذات استخدامات أخرى كثيرة في الصناعة والزراعة، كذلك يمكن استغلال الطاقة الحرارية الناتجة عن الانشطار النووي في تحلية مياه البحر والحصول على مياه عذبة، كما يمكن استغلال هذه الحرارة في تشغيل توربينات لتوليد الكهرباء، كما يحصل استغلالها الآن بالطرق التقليدية لتحلية مياه البحر المالحة لدينا في دول منطقة الخليج العربي.

اعتبارات السلامة والأمان في استخدامات الطاقة الذرية

هناك جهود كبيرة بذلت وتبذل في أثناء عمليات تصميم المفاعلات النووية وبنائها من أجل الوصول إلى أعلى درجات السلامة والأمان، ومن المعروف أن كل دولة تستخدم الطاقة الذرية في كافة الأغراض السلمية، تنشئ هيئات رقابية حكومية ومستقلة لمراقبة استيراد وتركيب وتشغيل وتخزين كل الأجهزة والمواد التي يصدر عنها إشعاعات مؤينة ضارة بالصحة والكائنات النباتية



حادثة مفاعل تشيرنوبيل في روسيا



لحظة انفجار مفاعل فوكوشيما النووي

والحيوية، ويصبح وجود هذه الهيئة أكثر ضرورة عند البدء ببناء مفاعلات بحثية أو مفاعلات لإنتاج الطاقة.

خيارات الطاقة الذرية

إن اعتماد خيار الطاقة الذرية في المستقبل يرتكز أساسًا على عدة عوامل جوهرية، منها مدى توفر المصادر الأخرى للطاقة (بترول، فحم، غاز طبيعي، طاقات متجددة)، كذلك مدى الوعي البيئي ووجود الجهة المستثمرة (دولة، قطاع خاص)، كذلك مدى المستوى التقني لامتلاك التقنيات النووية في ميدان المفاعلات النووية، كذلك مدى نمو الطلب على الطاقة في البلد، إذ يرتبط بالنمو المتزايد والنشاط الاقتصادي العالمي، كذلك توفر الوقود النووي الذي يعتمد على ما هو متوفر من اليورانيوم أو ما يمكن توفيره عبر اكتشافات جديدة بتقنيات جديدة، وهناك أيضًا عدة عوامل جوهرية يجب أخذها في الحسبان عند التفكير في الاستحواذ على الطاقة الذرية واستغلالها والاستفادة منها، ومن تلك العوامل ما يلي:

أ) **إدارة النفايات المشعة:** يجب أن يتم التفكير فيه لاسيما على ضوء التكلفة العالية للتخلص من تلك النفايات وإيجاد أماكن تدفن فيها (عميقًا) تحت سطح الأرض، مع العلم بأن مراكز البحوث الذرية في جميع أنحاء العالم تعمل جاهدة على التخلص من تلك النفايات الضارة بإيجاد تقنيات حديثة آمنة لحل تلك المعضلة.

ب) **الأمان النووي:** وهو ذو سجل مثير للجدل بالنظر للحوادث المأساوية المثيرة للفزع كالحادثة التي حصلت في جزيرة الأميال الثلاثة بولاية بنسلفانيا بأمريكا في 28 مارس 1979م، وما أحدثته من هروب لسكان القريبين منها، وكذلك حادثة مفاعل تشيرنوبيل في روسيا، والتي حدثت في 26 أبريل من عام 1986م، والتي تعد أكبر كارثة نووية شهدها العالم، وكذلك أحدث حادثة وهو كارثة زلزال اليابان الكبير الذي وقع في 11 مارس 2011م وما تبعه من انفجار مفاعل فوكوشيما النووي، وربما يؤدي التوسع في استخدام القدرة النووية إلى زيادة احتمالات وقوع مثل هذه الحوادث العارضة مهما يستدعي جهودًا إضافيةً وخططًا استباقية، لتلافي مثل تلك الحوادث وتجنب أخطارها الماحقة.

ج) **انتشار الأسلحة:** إن المخاوف من انتشار السلاح الذري يساهم في عدم التمكن من اعتماد الخيار الذري في بعض الدول لا سيما تلك التي يتوجب عليها شراء المفاعلات والمواد النووية من الخارج وكيفية علاج والتخلص من نفاياتها.

د) موقف الرأي العام من الطاقة الذرية: إن درجة القبول لدى الرأي العام تحدد مدى قيام متخذي القرار باعتماد الخيار الذري كمصدر ضمن مصادر الطاقة الأخرى.

هـ) **توفير المهارات في الميدان الذري:** ويعد هذا الأمر مهمًا في ظل وجود قرار باعتماد الخيار النووي، حيث إن الوصول بالمهارات الوطنية في أي ميدان -لاسيما ميدان الطاقة الذرية- يتطلب وقتًا وجهدًا كبيرين، وبرغم توفر هذه المهارات في الدول الكبرى فإنها بدأت تحس بالقلق إزاء تقلص الاهتمام بهذا التخصص في الجامعات ومراكز البحوث، لذا وضعت مشاريع وطنية ودولية (بالتعاون مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية) للحفاظ على المعرفة، وهذا ما يستدعي أن تتحول الدول الأخرى بمجهودات إضافية لتوفير حد معقول من المهارات النووية ذات الأغراض والتوجهات السلمية.

و) **البحث والتطوير:** إن وجود مهارات وكفاءات في علوم الطاقة الذرية مؤهلة ومدربة على إنتاجها وإدارتها والهيمنة عليها سيؤمن اندفاعًا في مجالات البحث والتطوير لاستغلال أمثل للطاقة الذرية بوصفها مصدرًا ثريًا وموثوقًا وآمنًا من مصادر الطاقة المستقبلية يمكن الركون إليه والاعتماد عليه.

الخاتمة

إن حجم التحديات المصاحبة لقضايا مصادر الطاقة وتأثيراتها على السلامة والصحة والبيئة ستبقى في العقود القادمة كبيرة ومثيرة للجدل، ويبقى على الدول التي تمتلك القدرات الذرية والنووية أن تساهم في تطوير مفاعلات أكثر أمانًا وأقل تكلفة وأفضل جذبًا للاستثمار التجاري، بيد أن القرار يبقى غير كاف، إذ يجب أن يسبقه قرار بإعداد العلماء والمهندسين والفنيين القادرين على مواكبة تصميم وتركيب تلك المفاعلات وتشغيلها بكفاءة وأمان، ويمكن القول: إن هذا القرار يجب اتخاذه بغض النظر عما إذا كان ثمة خطط لبناء مثل تلك المفاعلات النووية أم لا، فبدلاً من أن نوجه طلابنا نحو دراسات لا ولن تجدي، يتوجب أن يكون هناك توجيه نحو دراسات الطاقة الذرية للأغراض السلمية، إن الحاجة لوجود علماء ومهندسين وفنيين في ميدان الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية هي حاجة جلية وملحة سيما في وقتنا الحاضر، وقبل أن يفوتنا القطار ثم نتطلع حولنا فنجد العالم قد سبقنا، ونحن ما برحنا نراوح مكاننا ولازلنا ننتظر الركوب للمحطة القادمة، وهذا ما تجلت عنه الرؤية الحصيفة للمملكة 2030 في السباق مع الزمن واللحاق بالركب قبل فوات الأوان.

المطاردات الالكترونية الحميمية للكائن الكوكبي



يونس عاشور
مصر

لا يكاد يسلم أو يفلت هذا الكائن البشري من الملاحقات والمطاردات أو المتابعات والممارسات التعقبيّة إن لم تكن تجسُسيّه (Chasing) في مُجملها ومفهومها الغائي بحيث لا يتسنى لهذا الكائن التخفي أو الاختفاء والهروب بعيدًا عن عدسات الكاميرات (Zoom) وعمليات التقاطات التصوير المختلفة في محاولة الاحتفاظ بالفريسة الهدف في قلب الدائرة التي تتجه دومًا إليه والمتمثلة في توجيه أكبر قدر ممكن من تصويب هذه الأجهزة الإلكترونية باتجاه الهدف، وكأنها مطاردة حميميّة كرّ وفرّ تنطلق من جانب أحادي، لتطارد هذا الأخير الخصم لتلقي عليه الضربة القاتلة.

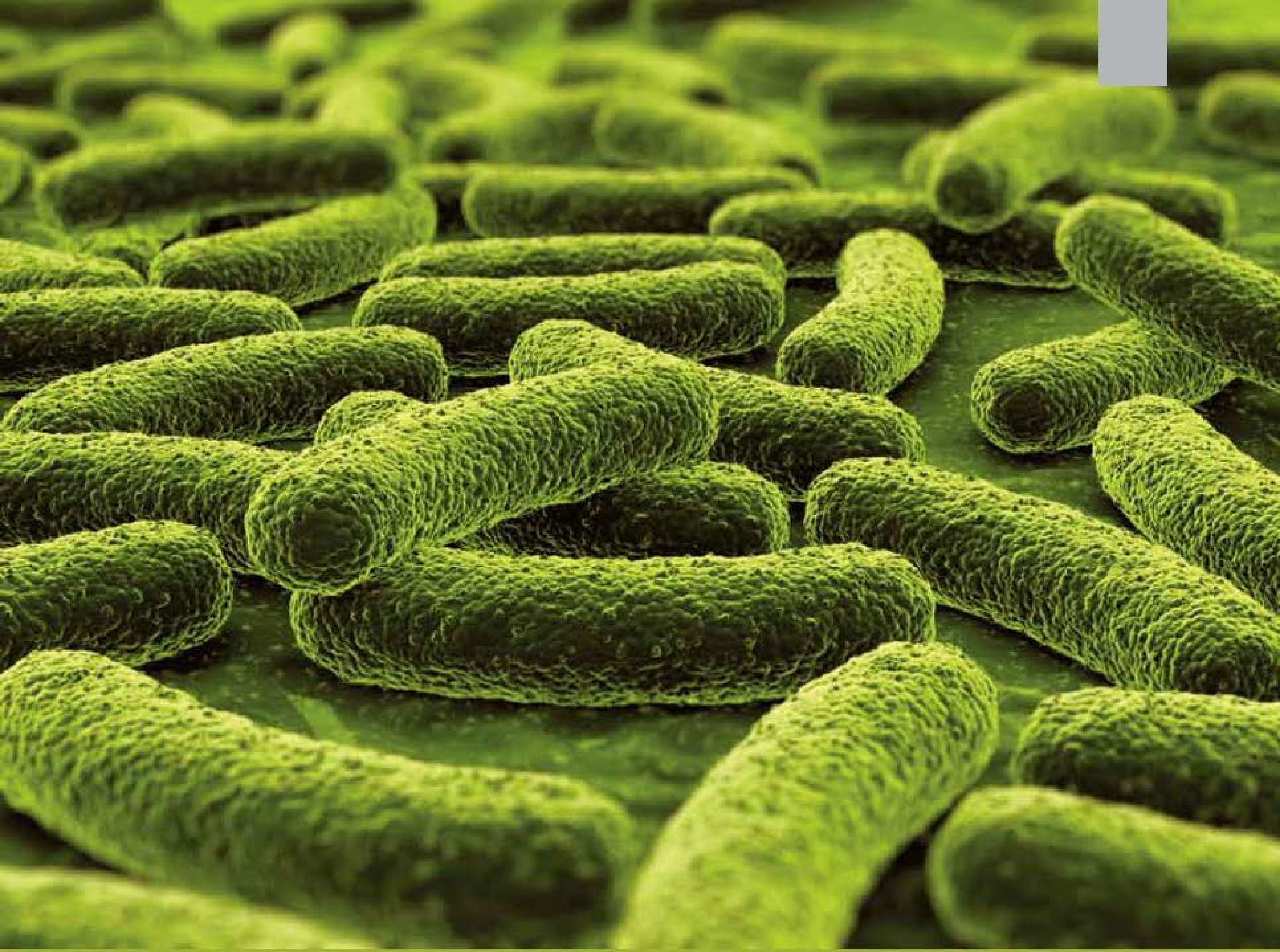
لقد تمت مراقبة هذا الكائن ورصد كل تحركّاته عبر عدة أدوات آلية وإلكترونية ومعدات كهربائية وميكانيكية ذات عمل تقني عال في الجودة والأداء والتنفيذ، وظيفتها الرصد والمتابعة ومعرفة ما في جعبته، بحيث تطال حتى أموره الشخصانية، ومن ثمّة قراءة ما في حوزته من ممتلكات، تكون هي الأخرى في خدمة المطاردة الإلكترونية ذاتها، فالحوادث التي يُحدثها بذاته على أرض الحدث تكون مكشوفة ومربوطة بشتى الوكالات والشركات المعلوماتية الكبرى العابرة للقارات، فهنالك عشرات الأقمار الاصطناعية السابحة في الفضاء التي تعمل على مساعدة وكشف خفايا تحركات هذا الكائن مما يجعل منه كائنًا منتظمًا للقوانين والمواثيق والدساتير التي تُصدرها الهيئات الرقابية والمؤسسات الحكومية والأعراف الدولية من هنا يضطر هذا الكائن البشري للانقياد والانصياع لتلك الأنظمة والقوانين والأعراف التي تقوم بمكاشفته وتزويده بصور وثائقية عن تحركاته إذا تطلب الأمر ذلك.

لقد غدا هذا الإنسان محكومًا بتلك المطاردات الإلكترونية الذكية Chases E-Smart التي تجبره بالتقيّد بها وعدم إمكانية الإفلات منها مما يترتب عليه عدم مخالفتها حتى لا يكون هدفًا للدوائر القضائية والأمنية ففي الطرقات تم وضع آلاف الكاميرات وعدسات التصوير الدقيقة لرصد تحركات هذا الكائن، وعلى صعيدٍ متصل تواصل هذه الكاميرات الانتشار بشكلٍ كثيف لتتعدى الأماكن المحلية إلى نطاق العالمية والكونية عبر تخطي الحدود والقارات لمطاردة وملاحقة هذا الإنسان للكشف عن هيئته راصدة حركته وكيفية تنقلاّته من مكان لآخر، بل ومعرفة خلفياته من حينٍ لآخر أيضًا عبر استقبال البيانات وقراءة الأرقام الظاهرة في الشاشة، التي يقتنيها كالتليفون والسيارة وغيرها من المقتنيات ذات الطابع التقني، وعبر ذلك يمكن تحديد المكان وحساب الوقت والزمان الذي يتعدى فيه النظام والقانون العام.

المطاردة الإلكترونية للإنسان تتمثل في تحديد معالمه كالجنسية والهيئة والهوية في تصويب الصناعات الإعلامية نحو التقاط صوره وحركاته المختلفة التي يقوم بأدائها وتأديتها سواءً كانت عن قصدٍ أو غير قصد بهذا المعنى يتجلى مفهوم المطاردة من حيث إنها سيرورة دائبة نحو الملاحقة والمحاصرة فهي في نهاية المطاف عملية استهداف للجيب المالي الشخصي والجانب المالي العمومي أيضًا يشهد على ذلك ما نسمعه ونراه من تكاليف باهظة يقوم بدفعها هذا الكائن لملاّك هذه الأجهزة التقنية الحديثة.

لكنّ هذا الإنسان الذي لا يقيم وزنًا لهذه المطاردات كعملية الكرّ والفرّ منها، والتي في بعض الأحيان قد تكلفه حياته أيضًا عندما تقوم الطائرات الحربية بتحديد هدفها لاقتناص المطلوب وتصفيته جسديًا، فهو لا يولي لها اعتبارًا في اتباع هذه المسطرة القاسية، التي تعمل على جلد من يخالفها بتصفيته أو تغريمه ماديًّا ومعنويًّا.

بين هذه المطاردة وهذا الكائن ثمة مسافة وهوّة، يحاول هذا الأخير الاختفاء والتخفي وعدم الظهور لها أو الاستسلام لمعانيها ومفاهيمها التحكميّة والاقتصادية، فهو بقدر ما هو متخفٍ عن الأنظار، إلا أنه قريب كل القرب منها بواسطة تعريف ذاته لها عبر امتلاكه أدواتها وآلياتها وتقنياتها، التي هي الوجه الآخر والحقيقي لمساعدة الكاشف على المكشوف.



البكتيريا وتقنيات المستقبل

منة الله عبدالمنعم

كاتبة ومترجمة علمية وفيزيائية

بمعهد الكبد القومي

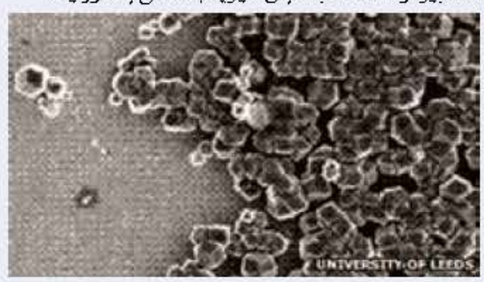
جامعة المنوفية - مصر

البكتيريا ليست فقط الكائن الأكثر انتشارًا والأقدم تواجدًا على كوكبنا الأرض بل هي كذلك تعد الأكثر تنوعًا (تقدر أعدادها بمليارات الفصائل) والأكثر تكيفًا متجاوزة حلقات الانتخاب الطبيعي منذ ظهور الخليقة فهي قادرة على التواجد في درجات الحرارة الشديدة الارتفاع تحت سطح الأرض والمنخفضة قرب القطبين وحتى في الفضاء الخارجي وقد تخطت البكتيريا منذ أمد طويل الفكرة السيئة عنها أنها مسببة الأمراض والأوبئة برغم أن هناك أنواعًا منها تسبب أمراضًا خطيرة كالكوليرا والزهري والجمرة الخبيثة وكذلك عدوى المحاصيل والنباتات، فهي منذ عهود تستخدم في إنتاج منتجات الألبان في عمليات التخمير وكذلك في معالجة الذهب والنحاس وإنتاج الكيماويات والمضادات الحيوية ومجالات أخرى.

لكن الآن في قرننا الحادي والعشرين، الذي توقع الخبراء أن علوم الحياة ستكون هي محرك نهضته وتقنياته، آخذة نفس الدور الذي أخذته الفيزياء في القرن العشرين. لذا لا بد وأن تحظى البكتيريا بدور بارز في تقنيات حديثة شديدة الإبهار في ما يلي بعض منها:

كمبيوتر المستقبل حيوي

دراسة مشتركة بين جامعة ليدز البريطانية وجامعة طوكيو للزراعة والتكنولوجيا باليابان، حيث قام الباحثون بتطوير بكتيريا آكلة للحديد وثم عند هضمه تقوم بتحويله إلى مغناطيسات مصغرة داخلها مشابه في الخواص لتلك المستخدمة داخل القرص الصلب للحواسيب الشخصية، ولذا يسعى الباحثون لاستخدامها لإنتاج أقراص صلبة مصغرة عالية الكفاءة وقد سبق الباحثين أنفسهم استخدام بكتيريا مغناطيسية موجودة في الطبيعة، واسمها العلمي Magnetospirilllum magneticum تتواجد في البيئات المائية على مسافات بعيدة عن سطح الماء، حيث يقل الأوكسجين، وتستعمل هذه البكتيريا خواصها المغناطيسية كبوصلة تستدل بها على البقع الأغنى بالأوكسيجين، ولا زالت في طور الدراسة، لكن خرجت من عباءتها البكتيريا آكلة الحديد التي تتفاعل البروتينات المكونة لها مع الحديد مكونة مغناطيسات نانوية ومع التصغير الفائق المستمر لأجهزة الكمبيوتر سيصعب إنتاج إلكترونيات فائقة الصغر، لذا كان الحل في العودة للطبيعة. ونجري كذلك أبحاث لاستخدام الميكروبات والكائنات الدقيقة الأخرى لإنتاج أسلاك ودوائر كهربية تستخدم أيضًا في الكمبيوترات فائقة الصغر، مما سيحول الكمبيوترات مستقبلاً إلى حيوية بدلاً من إلكترونية.[1]



البكتيريا المغناطيسية هل تحل محل الدوائر العادية في أجهزة الكمبيوتر

بكتيريا صانعة للوقود الحيوي

يُعد البعض الوقود الحيوي هو وقود المستقبل لحل مشكلة وسائل المواصلات لكن المشكلة تكمن في اختلافه الكيميائي عن الوقود الحفري مما لا يتناسب مع المحركات المتوفرة ويتسبب في إتلافها مع الوقت، ولذا فالحل في أحد أمرين: إما تحسين الوقود الحيوي الحالي وإما تحسين المحركات الحالية لتتناسب مع الوقود المتوافر. لكن تجربة العالم البريطاني جون لاف هو وفريقه بجامعة إكستير البريطانية تطرح حلاً أفضل فقد قاموا بأخذ جينات من بكتيريا التربة وشجرة الكافور ونوع من الطحالب، ثم قاموا بحقنها في المادة الوراثية لبكتيريا معروفة باسم ESCHERICHIA COLI فنتج بكتريا جديدة عند تغذيتها بالجلوكوز تنتج إنزيمات تحول السكر إلى أحماض كربونية، تتحول بعد ذلك إلى مواد هيدروكربونية تصبح في تركيبها الكيميائي مطابقة للوقود الحفري التقليدي المستخدم تجاريًا. وهذه الخطوة تبشر بحل مذهل لأزمة الوقود، ولكن لا زال فريق العمل يدرس إمكانية إنتاج كميات ضخمة من هذه البكتريا.[2]



بكتيريا الاشريكية القولونية كما تبدو تحت الميكروسكوب الإلكتروني

وكذلك في دراسة أخرى اكتشف علماء من ولاية الميسيسبي أن دب الباندا تحتوي فضلاته على بكتيريا لها تأثير فعال في إنتاج وقود حيوي من العشب وقطع الخشب وبقايا المحاصيل.

ووفقا للدكتور أشلي براون المساهم في نشر البحث، فإن دب الباندا العملاق الذي يحتوي جهازه الهضمي على بكتيريا مميزة مثل النمل الأبيض آكل الخشب والماشية تساعده على تكسير جزيئات المادة الأصلب في النبات، وهي السليولوز الذي يتواجد في لحاء الأشجار.

ودب الباندا غذاؤه الرئيسي يعتمد على نبات البامبو ويستهلك ما بين 20 – 40 باوند منه يوميًا. وهذه الكمية الكبيرة التي يستهلكها الدب لفتت نظر العلماء إلى قدرته على تحويل السليلوز قد تكون أفضل كثيرًا من النمل الأبيض آكل الخشب الأشهر، وجاءت فكرة فحص فضلاته التي بها أكثر من فصيلة بكتيرية تحوي أنزيمات بإمكانها تكسير ما يزيد على 95% من كتلة النبات العضوية إلى سكريات بسيطة. وإنتاج الوقود الحيوي من الخشب ولحاء الذرة والعشب، بدلاً من العمليات الحالية التي تستهلك كمية كبيرة من المحاصيل الغذائية، مثل الذرة وفول الصويا وقصب السكر التي هي أولى بالاستهلاك الغذائي، مما ينتج وفرة اقتصادية كبيرة على المستوى العالمي خاصة، وأن حوالي 20 % من إنتاج هذه المحاصيل يستهلك في إنتاج الوقود الحيوي الحالي.

وقد يكون العائق الوحيد أمام هذه الدراسة المميزة أن دب الباندا على قائمة الحيوانات المهددة بالانقراض لندرتها، حيث مئتين دب فقط موزع على حدائق ومراكز الحيوانات في العالم، وألفين وخمس مئة دب في البرية والمحميات الطبيعية أغلبها في الصين موطنه الأصلي، لكن الفريق العلمي يعكف حاليًا على دراسة وتحديد البكتيريا المنتجة للوقود من فضلات الدب مما يمكن من إيجادها في مصدر آخر أو هندستها وراثيًا.[3]

بكتيريا اليد جيل جديد من البصمات

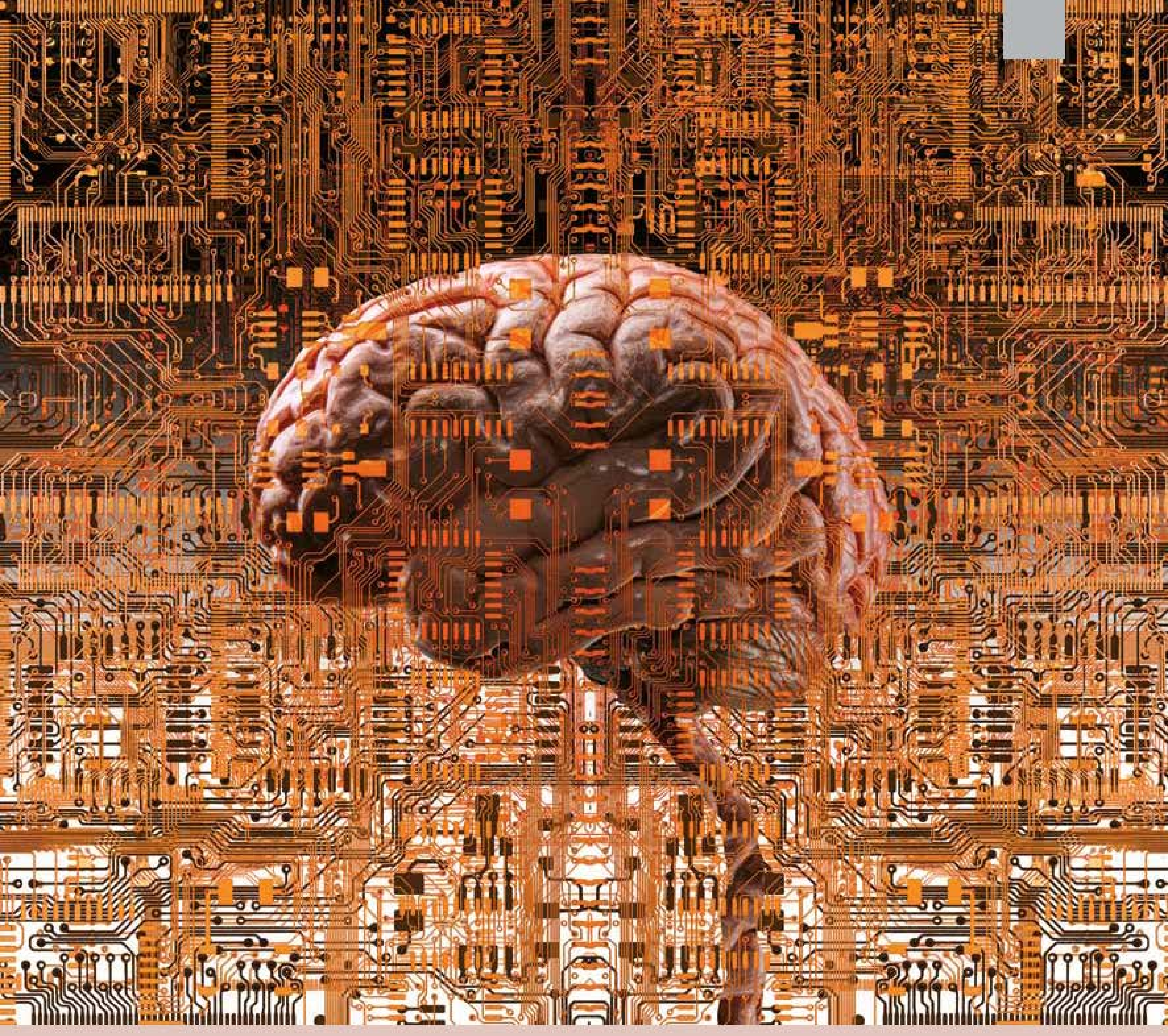
كشف الجريمة المعروف بالعلوم الجنائية والشرعية تعد من المجالات التطبيقية، التي تتقاطع مع الكثير من العلوم الأخرى من الكيمياء والطب والفيزياء وعلم السموم والتكنولوجيا الحديثة، كذلك لا تتوقف عن مد علوم الجريمة بجديدها كل يوم، ومن أهم أهداف العلوم الشرعية هو كشف الجناة من خلال بصماتهم الخاصة، التي اعتمدت طويلاً على بصمات الأصابع، وتطورت لاحقًا إلى الحمض النووي من خلال السوائل الجسدية، وكذلك يتم التعرف على بصمة الشفاه، وحتى شكل الأذن في بعض الدول، أما أحدث التقنيات توفرها لنا البكتيريا فقد وجد فريق من العلماء الأمريكيين أن بكتيريا اليد البشرية لا تتكرر أبدًا من شخص لآخر حتى التوائم مما يمكن استخدامها كبصمة مميزة في الطب الشرعي والبحوث الجنائية، ووجد العلماء أن هناك مئة وخمسين فصيلة في المتوسط في يدي كل شخص، ولا يتغير هذا العدد حتى لدى الأشخاص المهووسين بغسل أيديهم، وكذلك تظل البصمة البكتيرية موجودة في مكانها لأكثر من أسبوعين، حتى لو تم مسح أو تلطيخ بصمات الأصابع أو لم تتواجد كمية حمض نووي كافية لتعريف الأشخاص وتحمل التقنية الجديدة دقة تقدر مابين 70-90%، ويتوقع أن تصل لمزيد من الدقة مع الوقت.[4]



بكتيريا اليد البشرية هل تحل محل بصمات اليد التقليدية

المراجع:

1- HTTP://WWW.BBC.COM/NEWS/TECHNOLOGY-17981157
2- BACTERIA CHURN OUT FIRST EVER PETROL-LIKE BIOFUEL. NEW SCIENTIS.APRIL 2013.REBECCA SUMMERS.
3- BACTERIA IN PANDA POOP USED TO MAKE BIOFUELS FROM CELLULOSE. ASIANSCIENTIST (AUG. 30, 2011)
4 -http://www.usnews.com/science/articles/201007/06//next-in-forensics-bacterial-fingerprints



على أعتاب ثورة الذكاء الاصطناعي

مارك بينيوف

الرئيس التنفيذي لشركة "سايلزفورس" للحوسبة السحابية

على مدى السنوات الثلاثين الماضية، حصد المستهلكون فوائد التقدم التكنولوجي الهائل. في العديد من البلدان، معظم الناس لديهم الآن في جيوبهم جهاز كمبيوتر شخصي أكثر قوة من حواسب الثمانينيات. كان حاسوب أتاري 800XL ، الذي كنت أضع عليه ألعابًا عندما كنت في المدرسة الثانوية، مدعومًا من قبل مُعالج يتوفر على 3500 ترانزستورات. اليوم يشتغل الحاسوب في جهاز "آي فون" على اثنين مليار ترانزيستور. في ذلك الوقت، كان غيغا بايت واحد من التخزين يكلف 100 000 دولارًا، أي ما يعادل حجم الثلاجة. أما اليوم فأصبح التخزين بالمجان أساسًا ويقاس بالمليمتر.

حتى مع هذه المكاسب الضخمة، نتوقع تقدمًا أكبر وأسرع على مستوى اتصال الكوكب بأسره – الناس والأشياء – سيصبحون أكثر اتصالاً. بالفعل، خمسة مليارات من البشر يتوفرون على جهاز محمول، وأكثر من ثلاثة مليارات شخص يمكنهم الولوج إلى الإنترنت. في السنوات المقبلة، 50 مليار من الأشياء – من المصابيح الكهربائية والثلاجات، والطرق، والملابس، وأشياء أخرى – سوف تكون متصلة بالإنترنت كذلك.

خلال كل جيل أو نحو ذلك، تتلاقى التكنولوجيات الناشئة، ويحدث اختراع ثوري. على سبيل المثال، ساعد الإنترنت، بأسعار معقولة وبواسطة ضغط الملفات، ونظام "أبل"، مبدع "آي فون"، على تمكين شركات مثل أوبر، إيربنبي، يوتيوب، الفيسبوك، وتويتر لإعادة تعريف تجربة المحمول على الزبائن.

ونحن الآن على أعتاب تقارب كبير آخر: سوف تضاعف البيانات الكبيرة والتعلم الآلي القدرة الحاسوبية، لتجعل الذكاء الاصطناعي متوفرًا في كل مكان قريبًا.

ويتبع الذكاء الاصطناعي مقولة ألبرت أينشتاين: إن العبقرية تُحَول التعقيد إلى البساطة. لذلك، حيث إن العالم نفسه أضحى أكثر تعقيدًا، من المنتظر أن يصبح الذكاء الاصطناعي بمثابة التكنولوجيا المتميزة للقرن الحادي والعشرين، تمامًا كما كان المعالج في القرن العشرين.

ويلاقي المستهلكون بالفعل الذكاء الاصطناعي على أساس يومي. ويستخدم نظام قوقل التعلم الآلي لاستعلامات البحث التلقائي، وغالبًا يتوقع بدقة ما يبحث عنه المرء. و يستخدم الفيسبوك والأمازون خوارزميات التنبؤ لتقديم توصيات بناء على القراءة أو تاريخ الشراء. الذكاء الاصطناعي هو العنصر المركزي في السيارات ذاتية القيادة – والتي يمكنها الآن تجنب الاصطدام والاختناقات المرورية – وأنظمة اللعب مثل "ألفا قو" و"قوقل العقل العميق"، وجهاز الكمبيوتر الذي تغلب على نظام كوريا الجنوبية "قو ماستر سيد لي" في مباراة ذات خمس ألعاب في وقت سابق من هذا العام.

ونظرًا للتطبيقات الواسعة للذكاء الاصطناعي، فإن جميع الشركات اليوم تواجه حتمية إدماجه في منتجاتها وخدماتها. وخلافًا لذلك، فإنها لن تكون قادرة على المنافسة مع الشركات التي تستخدم شبكات لجمع البيانات لتحسين خبرات الزبائن وإبلاغ القرارات التجارية. لقد كَبُر الجيل القادم من المستهلكين مع التكنولوجيات الرقمية وسوف ينتظر من الشركات توقع احتياجاتهم وتوفير الإجابات الفورية لكل شخص.

حتى الآن، الذكاء الاصطناعي مكلف للغاية أو معقد بالنسبة للعديد من الشركات التي تريد الاستفادة منه. قد يكون من الصعب إدماج الذكاء الاصطناعي في العمليات القائمة على الأعمال التجارية، وتاريخيًّا قد يتطلب العلماء بيانات من ذوي المهارات العالية. ونتيجة لذلك، لا تزال العديد من الشركات تتخذ قرارات مهمة على بشكل عفوي بدلاً من الاعتماد على المعلومات.

وسيؤدي ذلك إلى تغيير في السنوات القليلة المقبلة، كما سيصبح الذكاء الاصطناعي أكثر انتشارًا، مما سيجعل كل شركة وكل موظف أو عامل أذكى وأسرع وأكثر إنتاجية. ويمكن لخوارزميات التعلم الآلي تحليل المليارات من الإشارات لتوجيه خدمة الزبائن تلقائيًّا إلى الوكيل الأنسب أو تحديد الزبائن الأكثر احتمالاً لشراء منتج معين.

وستتجاوز تطبيقات الذكاء الاصطناعي البيع بالتجزئة على الإنترنت: وما تزال محلات الطوب ولوح الملاط تمثل 90% من مبيعات التجزئة، وفقًا لشركة الاستشارات أ.ت. كيرني. قريبًا، عندما يدخل الزبائن متجر عاديًّا، سوف يكون في استقبالهم رجل آلي تفاعلي يمكن أن يوصي بمنتجات حسب تاريخ التسوق، وتقديم خصومات خاصة، والتعامل مع قضايا خدمة الزبائن.

التقدم في ما يسمى "التعلم العميق"، وهو فرع من الذكاء الاصطناعي على غرار الشبكة العصبية في الدماغ، سيمكن التقنيات الرقمية الذكية من التخطيط للعطلات مع فطنة مساعد بشري، أو تحديد ثقة المستهلك تجاه علامة تجارية معينة، استنادًا إلى ملايين الإشارات من الشبكات الاجتماعية وغيرها من مصادر البيانات. في مجال الرعاية الصحية، يمكن لخوارزميات التعلم العميق مساعدة الأطباء في تحديد أنواع الخلايا السرطانية أو تشوهات داخل الجمجمة من أي مكان في العالم في الوقت الحقيقي.

لنشر الذكاء الاصطناعي على نحو فعال، سوف تحتاج الشركات للحفاظ على الخصوصية والأمن. و نظرًا لكون الذكاء الاصطناعي يتغذى من البيانات، فكلما تعددت البيانات عن الفرد، كلما كان ذلك أفضل بالنسبة للتنبؤ باحتياجاتهم والعمل نيابة عنهم. ولكن، بطبيعة الحال، يمكن أن نخصص هذا التدفق الهائل من البيانات الشخصية بطرق مخلة بالثقة. وسوف يتعين على الشركات أن تكون شفافة في كيفية استخدام البيانات الشخصية للناس. ويمكن للذكاء الاصطناعي أيضًا الكشف والدفاع عنها ومقارعة الخروقات الأمنية الرقمية، وسيلعب دورًا حاسمًا في حماية خصوصية المستخدم وبناء الثقة.

كما هو الحال في الأوقات الماضية من التحول الاقتصادي، سيطلق الذكاء الاصطناعي العنان لمستويات جديدة من الإنتاجية ونمو حياتنا الشخصية والمهنية، وطرح الأسئلة الوجودية حول العلاقة القديمة بين الإنسان والآلة. وسوف يزعج الصناعات ويخلخل العمال، كما سيجعل المزيد من المهام ذات طابع آلي أو أوتوماتيكي. ولكن مثلما فعل الإنترنت قبل 20 عامًا، سيساهم الذكاء الاصطناعي أيضًا في تحسين الوظائف الحالية وإيجاد فرص عمل جديدة. وينبغي لنا توقع هذا التحول والتكيف معه من خلال توفير تداريب على وظائف الغد، وكذلك شبكات الأمان بالنسبة لأولئك الذين تأخروا.

ولا زال الطريق طويلاً أمام الذكاء الاصطناعي قبل أن يتجاوز الذكاء البشري. قبل 60 عامًا كان وهو عالم الكمبيوتر، جون مكارثي، أول من استعمل كلمة الذكاء الاصطناعي خلال مؤتمر في كلية دارتموث، وأصبحت أجهزة الكمبيوتر في الآونة الأخيرة فقط قادرة على كشف القطط في أشرطة فيديو يوتيوب أو تحديد أفضل مسار إلى المطار.

مستقبلاً، سنستطيع مواصلة الابتكار التكنولوجي بوتيرة أكبر مما كانت عليه الأجيال السابقة. وسوف يصبح الذكاء الاصطناعي مثل التيار الكهربائي – غير مرئي وإضافة جديدة في كل جزء من حياتنا. ثلاثون عامًا من الآن، سوف نتساءل كيف استطعنا في وقت مضى العيش دون الإمدادات الرقمية، تمامًا كما هو الحال اليوم، حيث أصبح بالفعل من الصعب تخيل السير أكثر من بضع دقائق من دون التحقق من الحاسوب الشخصي (المعتمد على المركزية 1980) في جيبنا.

Project syndicate